إذا كان هذا إنسانًا

بريمو ليفى

ترجمة

عماد البغدادى

المشروع القومى للترجمة

المجلس الأعلى للثقافة

1087

تتحدث هذه الرواية عن السيرة الذاتية لبريمو ليفى الذى كتبها بين ديسمبر ١٩٤٥ و يناير ١٩٤٧، وهى تمثل شهادة قوية ومؤثرة عن تجربة المؤلف فى معسكر الاعتقال النازى فى أوشفيتز.

وتتضمن الرواية مقاطع من الحياة اليومية داخل المعسكر تتخللها فترات من التفكير العميق للمؤلف تسمح للقارئ معايشة بطل الرواية - المؤلف والوقوف معه فعليًا فى "تجربته". وتتضح صفحاتها بالمعاناة التى عاشها "إنسان" بأقصى درجات الكرامة التى استطاع الحفاظ عليها فى الظروف التى أُجبر فيها على العيش داخل معسكر اعتقال.

تعد قراءة هذه الرواية تجربة ثرية ومؤلمة أيضًا للقارئ الذى يعيش من جديد مع المؤلف كل هذه المعاناة فى تلك الأيام.

المجلس الأعلى للثقافة

Istituto Italiano di Cultura

إذا كان هذا إنسانا

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٨٧
- إذا كان هذا إنسانا
- بريمو ليفى
- عماد البغدادى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

Se questo è un uomo
Primo Levi
Copyright © 1958 e 1976 Giulio Einaudi editore s.p.a., Torino.

هذا العمل تم نشره بمساهمة وزارة الخارجية الإيطالية
Questo Libro e' stato pubblicato con il
Contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

إذا كان هذا إنسانًا

تأليف

بريمو ليفى

ترجمة

عماد البغدادى

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ليفي ، بريمو

إذا كان هذا إنسانًا / تأليف : بريمو ليفي ؛ ترجمة : عماد البغدادى ؛ إشراف : جابر عصفور - ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ .

٣٥٢ ص ؛ ٢٠ سم - (المشروع القومى للترجمة) ؛ العدد ١٠٨٧)

١ - ليفى ، بريمو - المذكرات .

(أ) البغدادى ، عماد (مترجم) .

(ب) عصفور ، جابر (مشرف) . ٩٢٠

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٥٠٨٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 233 - 6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة........ 7
إذا كان هذا إنسانا........ 9
الرحلة........ 11
على القاع........ 27
فترة المستجدّين........ 55
العيادة........ 63
ليالينا........ 89
العمل........ 103
يوم طيب........ 115
ما قبل الخير والشر........ 127
المغمورون والناجون........ 145
اختبار كيمياء........ 171
أنشودة عوليس........ 185
أحداث الصيف........ 197
أكتوبر ١٩٤٤........ 209
كراوس........ 223
ثلاثة عمال من المعمل........ 231
الأخير........ 247
قصة عشرة أيام........ 257
مُلحَق........ 299

تقديم المؤلف

من حسن حظى أننى رحلت إلى أوشفيتز فى عام ١٩٤٤، أى بعد أن كانت الحكومة الألمانية قد قررت، نتيجة للندرة فـــى الأيدى العاملة، أن تطيل متوسط عمــر المعتقلــين المطلــوب إبادتهم، بمنحهم تحسينات ملموسة فى مستوى المعيشة وبوقــف عمليات القتل الاعتباطية للأفراد مؤقتا.

ولهذا فإن كتابى هذا، من حيث التفــصيلات الــشنيعة، لا يضيف شيئا لما أصبح معروفا للقراء فـــى كــل العــالم حــول موضوع معسكرات الإبادة المثير للقلق. وهو لم يُكتــب بهــدف توجيه تهم جديدة، ولكنه يمكن أن يقدم بالأحرى وثائق لدراســة هادئة لبعض جوانب النفس البشرية. ويمكن أن يحدث لكثير من الأفراد والشعوب أن يعتقدوا، عن وعى تقريبا، أن "أى أجنبـــى هو عدو". وغالبا ما يرسخ هذا الاقتناع فى قاع النفوس كعدوى مستترة، وتظهر فقط فى أعمال متفرقة وغير مترابطة ولا تخلق نظاما للتفكير. ولكن عندما يحدث هذا، عندما تصبح العقيدة غير المعلنة مقدمة أكبر لقياس منطقى، فإن السلسلة تنتهـــى عندئــذ بمعسكر الاعتقال. إنه نتاج مفهوم للعالم وصل إلى نتائجه بصدق صارم: ما دام المفهوم مستمرًّا فإن النتــائج تهــددنا. وتــاريخ

معسكرات الإبادة يجب أن يفهمه الجميع كعلامة مشئومة تنذر بالخطر.

وأنا أدرك وأطلب الصفح للعيوب التى تخللت تأليف الكتاب؛ فقد وُلد الكتاب منذ أيام معسكر الاعتقال كمجرد نية وفكرة، إن لم يكن فعلا فى الواقع. وكانت الحاجة إلى أن تروى "للآخر" وأن تجعل "الآخرين" مشاركين، قد اتخذت بيننا قبل التحرير وبعده صورة اندفاع فورى وعنيف، حتى أنها تنافست مع الاحتياجات الأخرى الأولية؛ فقد كُتب الكتاب لتلبية هذا الاحتياج، وبالتالى بهدف التحرير الداخلى بالدرجة الأولى. ومن هنا جاء طابعه المتجزئ؛ فالفصول ليست مكتوبة فى تعاقب منطقى، ولكن على أساس الاحتياج العاجل. وقد تمت عملية التنسيق والمزج بناء على خطة معينة فى مرحلة لاحقة.

ولا أرى أننى بحاجة إلى أن أضيف أنه لا يوجد أى حدث مختلَق من هذه الأحداث.

بريمو ليفى

إذا كان هذا إنسانا

يا من تعيشون آمنين

فى بيوتكم الدافئة

يا من تجدون الطعام والوجوه الصديقة

عندما تعودون فى المساء ، تخيلوا إنسانا يعمل فى الطين

ولا يعرف السلام

ويكافح من أجل نصف رغيف من الخبز

ويموت من أجل كلمة نعم أو لا

تخيلوا أن هذا الإنسان امرأة

بلا شعر وبلا اسم

وبلا قدرة على التذكر

أعين خاوية وحضن بارد

مثل ضفدعة فى الشتاء

تخيلوا أن هذا حدث

آمركم بهذه الكلمات

احفروها فى قلوبكم

وأنتم فى البيت أو سائرون فى الطريق

وأنتم ذاهبون للنوم أو تستيقظون

وكرروها لأبنائكم

أو لينهَرْ بيتكم

وليمنعكم المرض

وليُشِح أولادكم بوجوههم عنكم

الرحلة

كانت الميليشيات الفاشية قد ألقت القبض عليَّ فى ١٣ ديسمبر ١٩٤٣، وكنت أبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، مع قليل من الحكمة ولا شيء من الخبرة وميل قوى للعيش فى عالم خاص بى، بعيدا عن واقع تسكنه أشباح ديكارتية متحضرة، وأصدقاء مخلصون وصديقات واهنات، وقد شجعنى على ذلك نظام العزل الذى اضطررت إليه بعد أربع سنوات من القوانين العنصرية.

ولم يكن من السهل عليَّ اختيار طريق الجبل، والإسهام فيما كان يتعين أن يصبح فى رأيى وفى رأى أصدقاء آخرين أكثر خبرة منى، جماعة مقاومة تتبع "العدالة والحرية". كانت تنقصنا الاتصالات والأسلحة والنقود والخبرة للحصول عليها، ولم يكن هناك الرجال القادرون، ولكننا كنا غارقين فى طوفان من الأشخاص غير المؤهلين، بحسن نية أو بسوء نية، وكانوا يصلون إلى أعلى الجبل قادمين من السهل بحثا عن منظمة غير موجودة وعن الكوادر والأسلحة أو حتى مجرد الحماية أو البحث عن مخبأ أو بعض النيران أو حذاء.

وفى ذلك الوقت لم يكن أحد قد علَّمنى المذهب الذى كان علىَّ أن أتعلمه بعد ذلك بسرعة فى معسكر الاعتقال، والذى

يقول إن المهمة الأولى للإنسان هى السعى نحو تحقيق أهدافه بالوسائل المناسبة، ومن يخطئ يدفع الثمن؛ ولذا فإنه لا يسعنى إلا اعتبار ما تلا ذلك من أحداث متماشيًا مع العدل. وفى جوف الليل انطلقت ثلاث وحدات من الميليشيا لمهاجمة جماعة أخرى، أقوى وأخطر منا بكثير، متمركزة فى الوادى المجاور، واقتحمت مخبأنا ذات فجر يغطيه الجليد وألوان الطيف، واقتادتنى إلى الوادى كشخص مشبوه.

وفى التحقيقات التى أعقبت ذلك فضلت الإعلان عن وضعى كـ "مواطن إيطالى من سلالة يهودية"، لاعتقادى أننى لن أتمكن من تبرير وجودى بغير ذلك فى تلك المنطقة المعزولة جدًّا، حتى بالنسبة إلى أى "مُهجَّر"، وكان تقديرى (الخاطئ، كما اتضح بعد ذلك) أن الاعتراف بنشاطى السياسى سيؤدى إلى تعذيب وموت محقق. وكيهودى أرسلت إلى فوسُولى بالقرب من مدينة مودينا، حيث كان هناك معسكر اعتقال مخصَّص أصلا لأسرى الحرب الإنجليز والأمريكيين، يقوم بتجميع المنتمين إلى العديد من الفئات من الأشخاص غير المرغوب فيهم لدى الحكومة الفاشية الجمهورية الوليدة.

ولحظة وصولى، أى فى نهاية يناير ١٩٤٤، كان اليهود الإيطاليون فى المعسكر مائة وخمسين تقريبا، ولكن عددهم

وصل خلال بضعة أسابيع إلى ما يزيد على ستمائة؛ وكانوا فى معظمهم عائلات بأكملها أسَرَهم الفاشيون أو النازيون لعدم حيطتهم أو فى أعقاب وشاية بهم، وكان القليل منهم قد سَلَّموا أنفسهم طواعية أو بعد أن استبد بهم اليأس من حياتهم الهائمة، أو لعدم امتلاكهم للإمكانيات، أو لكى لا ينفصلوا عن قريبٍ أسير، أو حتى من أجل "الالتزام بالقانون" على نحو غريب. وعلاوة على ذلك، كان هناك ما يقرب من مائة من العسكريين اليوغسلاف المحتجزين، وبعض الأجانب الآخرين الذين كانوا يُعَدُّون من المشبوهين سياسيا.

وكان لا بد أن يثير وصول قوة صغيرة من الشرطة السرية الألمانية الشك لدى المتفائلين، ولكننا تمكنا مع ذلك من تفسير هذا الأمر الجديد بصور مختلفة، دون أن نستخلص من ذلك العاقبة البديهية، حيث وجد الإعلان عن الإبعاد النفوس غير مهيأة، على الرغم من كل شىء.

وفى يوم ٢٠ فبراير كان الألمان قد قاموا بتفتيش المعسكر بعناية، وقدموا شكاوى علنية وقوية لمركز الشرطة الإيطالية بسبب التنظيم المعيب لخدمة المطبخ والكمية الضئيلة من الخشب الموزع للتدفئة، حتى إنهم قالوا إن العيادة سيتعين افتتاحها قريبا. ولكننا فى صباح ٢١ علمنا أن اليهود سيرحلون فى اليوم التالى،

كلهم، دون أى استثناء، حتى الأطفال، والشيوخ، والمرضى. إلى أين؟! لم يكن أحد يعرف. الاستعداد لخمسة عشر يوما من السفر. وفى مقابل كل غائب، سيُعدَم عشرة رميا بالرصاص.

وكانت هناك أقلية فقط من السذج والواهمين أصرت على الأمل؛ فقد تحدثنا طويلا مع اللاجئين البولنديين والكروات، وكنا نعلم ماذا يعنى الرحيل.

وإزاء المحكوم عليهم بالإعدام، كانت التقاليد تقضى بطقوس صارمة توضح كيف أن أى انفعال وأى غضب قد انطفأ، وكيف أن تطبيق العدالة لا يمثل سوى واجب حزين تجاه المجتمع، حتى أنه يمكن أن يكون مصحوبا بالشفقة تجاه الضحية من جانب منفذ الإعدام نفسه؛ ولهذا تُمنع أى عناية بالمحكوم عليه، ويُسمح له بالعزلة، وبكل راحة روحية إذا طلب ذلك، أى أن هناك حرصًا على ألا يشعر حوله بالكراهية أو التعسف، ولكن الضرورة والعدالة، والصفح مع العقاب.

ولكن هذا لم يُمنح لنا لأننا كنا كثيرين جدًا، وكان الوقت محدودا، ثم على ماذا كان يجب أن نندم فى النهاية؟ وعن أى شىء سيصفحون عنا؟ وقد أمر المأمور الإيطالى إذن أن تستمر كل الخدمات فى العمل حتى الإعلان النهائى؛ ولهذا بقى المطبخ فى العمل، وكان عمال النظافة يعملون كما هو معتاد، حتى

المدرسين والأساتذة فى المدرسة قاموا بالتدريس مساء، مثل كل يوم، ولكن الأطفال فى ذلك المساء لم يُطلب منهم الواجب.

وجاء الليل، وكان ليلا عرفنا أن عيون البشر لم يكن يجب أن تشهده وتبقى على قيد الحياة. وقد سمع الجميع هذا: لا أحد من الحراس الإيطاليين أو الألمان واتته الشجاعة ليأتى ليرى ماذا يفعل الناس عندما يعرفون أنهم سيموتون.

لقد اعتزل كل شخص الحياة بالطريقة التى كانت تروق له، فقام البعض بالصلاة، وأسرف آخرون فى الشرب، وانتشى آخرون بآخر هواية مستهجنة. ولكن الأمهات سهرن لإعداد طعام الرحلة بعناية حلوة، وغسلن الأطفال وأعددن الحقائب، وعند الفجر كانت الأسلاك الشائكة مليئة بملابس الأطفال الداخلية المنشورة لتجففها الرياح، ولم ينسين الكافولات والألعاب والوسائد وعشرات الأشياء الصغيرة التى يعلمنها جيدًا والتى يحتاج إليها الأطفال فى كل الأحوال. ألا تفعلون أنتم أيضًا الشىء نفسه؟ إذا كان لا بد أن يقتلوكم فى اليوم التالى مع طفلكم، ألن تقدموا له الطعام اليوم؟

فى الثكنة ٦-أ كان يسكن جاتينيو العجوز، مع زوجته وكثير من الأبناء والأحفاد وأزواج البنات وزوجات الأبناء النشيطات. وكان كل الرجال نجارين، وكانوا قادمين من

طرابلس، عبر رحلات كثيرة وطويلة، وكانوا يحملون معهم دائمًا أدوات المهنة، وبطارية المطبخ والأكورديون والكمان للعزف والرقص بعد يوم من العمل، لأنهم كانوا أناسا سعداء ومتدينين. وكانت نساؤهم أول من أسرع بتجهيزات السفر، في صمت وسرعة، حتى يتبقى وقت للحداد. وعندما أصبح كل شىء جاهزا وطُهى الخبز المفرود ورُبطت الحِزَم، خلعن عندئذ أحذيتهن، وأسدلن شعورهن ووضعن الشموع الجنائزية على الأرض، وأشعلنها طبقا لعرف الآباء، وجلسن على الأرض على شكل دائرة للشكوى، وصلين وانتحبن طوال الليل، ووقفن بأعداد كبيرة أمام بابهن، ونزل على أرواحنا ألم جديد بالنسبة إلينا، وهو الألم القديم الذى يشعر به الشعب الذى ليست له أرض، الألم بلا أمل فى النزوح مع بداية كل قرن جديد.

داهمنا الفجر على غرة، كما لو أن الشمس البازغة قد شاركت الناس فى تدميرنا عن عمد. كانت المشاعر المختلفة التى تضطرب داخلنا، عن القبول الواعى والتمرد بلا مخرج والخلوة الدينية والخوف واليأس، تتدفق الآن بعد ليلة من السهاد، فى جنون أعمى خرج عن السيطرة. وكان زمن التأمل وزمن التحديد قد انتهى، وذابت كل حركة للعقل وسط الفوضى العارمة، وكانت تعلو ذلك فى لمح البصر الذكريات الطيبة فى بيوتنا، مؤلمة كضربات السيف.

كانت أشياء كثيرة قد قيلت وتمت فيما بيننا، ولكن يُفَضّل ألا تبقى فى الذاكرة.

وبالدقة السخيفة التى سيتعين علينا التعود عليها فيما بعد، قام الألمان بنداء الأسماء، وفى النهاية سأل المساعد: "ويفيل ستوك"، وقام العريف بالتحية على الفور، ورد بأن "القطع" كانت ستمائة وخمسين، وأن كل شيء على ما يرام، وعندئذ قاموا بشحننا على حافلات ونقلونا إلى محطة كابرى، وهنا كان ينتظرنا القطار والحراسة للرحلة، وهنا تلقينا الضربات الأولى. كان الأمر جديدا وبلا معنى حتى أننا لم نشعر بالألم الجسدى أو النفسى. كانت هناك فقط دهشة عميقة: كيف يمكن ضرب إنسان بلا غضب؟

كانت هناك اثنتا عشرة عربة ونحن ستمائة وخمسون؛ كان فى عربتى خمسة وأربعون فقط، ولكنها كانت عربة صغيرة. وها هو أمام أعيننا وتحت أقدامنا واحد من أشهر القطارات العسكرية الألمانية، التى لا تعود، والتى غالبا ما كنا نسمع عنها ونحن نرتجف غير مصدقين. هكذا بالضبط، نقطة بنقطة: عربات بضاعة مغلقة من الخارج، وبالداخل رجال ونساء وأطفال مضغوطون بلا رحمة، كبضاعة رديئة ، فى رحلة نحو العدم، فى رحلة إلى أسفل، نحو القاع. وفى هذه المرة كنا نحن بالداخل.

ويكتشف الجميع، فى وقت مبكر تقريبا من حيـــاتهم، أن السعادة الكاملة لا يمكن تحقيقها، ولكن القلة يتوقفون عند الرأى المعارض: أن هذه أيضًا تعاسة كاملة. إن اللحظات التى تعترض تحقيق كلتا الحالتين القصويين هى من الطبيعة نفسها، تترتـــب على حالتنا البشرية، وتعترض ذلـــك معرفتنـــا غيـــر الكافيـــة بالمستقبل دائمًا، وهذا يُسَمَّى، فى حالة من الحالات أملاً، وفـــى حالة أخرى عدم يقين بالغد، ويعترض ذلك اليقين الموت، الذى يفرض حدًّا لكل فرحة، ولكل ألم أيضًا. وتعترض ذلك العلاجات الحتمية التى تلوث كل سعادة دائمة، وتصرف انتباهنـــا أيـــضًا بانتظام عن الكارثة التى ستحل بنا، وتجعل وعينا بهـــا مجـــزَّأً، وبالتالى فإنه يكون محتمَلا.

كانت المعاناة بالذات والضرب والبرد والظمأ هى التى جعلتنا نطفو على فراغ يأس بلا قاع، فى أثناء الرحلة وبعدها. ولـــم تكـــن هذه هى الرغبة فى الحياة ولا استسلاما واعيا، لأن قلة من البـــشر يقدرون على ذلك، ونحن لم نكن سوى عينة عادية من البشرية.

كانت النوافذ قد أغلقت للتوِّ، ولكن القطار لم يتحـــرك إلا فى المساء. وكنا قد علمنا فى ارتياح وجهتنا: أوشفيتز، اسم كان يخلو من المعنى آنذاك بالنسبة إلينا، ولكنه كان لا بد أن يقابـــل مكانًا فى هذه الأرض.

كان القطار يسير ببطء، مع وقفات طويلة مرهقة، ورأينا من النافذة اصطفاف المنحدرات الصخرية الشاهقة الشاحبة فى وادى أديجى وآخر أسماء المدن الإيطالية. وعبرنا البرنيرو فى الساعة الثانية عشرة من اليوم الثانى، ونهض الجميع واقفين، ولكن أحدا لم يقل كلمة واحدة. كنت أفكر فى العودة، وكنت أتمثل بقسوة الفرحة التى كان يمكن أن تكون عند ذلك الممر الآخر، مع الأبواب المفتوحة؛ لأن أحدا لم يكن سيرغب فى الهروب، والأسماء الإيطالية الأولى... ونظرت حولى وفكرت فى الذين سيلقون حتفهم، من بين هذا التراب البشرى المسكين.

ومن بين الخمسة والأربعين شخصا فى عربتى، هناك أربعة فقط رأوا منازلهم من جديد؛ وكانت هذه هى العربة الأوفر حظا. كنا نعانى من الظمأ والبرد، وفى كل المحطات كنا نطلب الماء بصوت مرتفع، أو على الأقل حفنة من الجليد، ولكن نادرًا ما كان أحد يسمعنا، وكان جنود الحراسة يبعدون من كان يحاول الاقتراب من الركب (القافلة). وكانت هناك اثنتان من الأمهات الشابات لا تزالان تحملان ابنيهما على صدريهما، تتأوهان ليل نهار وتستجديان الماء. وكان الجوع والتعب والسهاد أقل تعذيبا للجميع، وقد أصبح ذلك أقل إيلاما بفعل توتر الأعصاب، ولكن الليالى كانت كوابيس لا تنتهى.

قلةٌ من البشر هم الذين يستطيعون الذهاب إلى الموت بكرامة، وغالبا لا يكونون من الذين تتوقع منهم أن يفعلوا ذلك، وقليلون يستطيعون السكوت واحترام صمت الآخرين. وكان نعاسنا القلِق غالبًا ما تقطعه مشاجرات صاخبة وغير مجدية، ولعنات وركلات ولكمات تُوَجَّه عشوائيا دفاعًا ضد بعض التلامس المزعج والحتمى، عندئذ كان البعض يشعل شمعة كئيبة، وكان يكشف، وهو مستلق على الأرضية، عن حشد كئيب ومادة بشرية مختلطة ومستمرة، وكدرة ومؤلمة، تنهض هنا وهناك من تقلصات مفاجئة يطفئها التعب على الفور.

من الفتحة نرى أسماء شهيرة ومجهولة لمدن نمساوية: سالزبورج، فيينا، وبعد ذلك تشيكية، وأخيرًا بولندية. وفى مساء اليوم الرابع اشتد البرد. كان القطار يعبر غابات لا تنتهى من أشجار الصنوبر وهو يرتفع بصورة ملموسة، وكان الجليد مرتفعا، وكان لا بد أن يكون هذا خطًّا ثانويا، فكانت المحطات صغيرة مهجورة تقريبًا. ولم يكن أحد يحاول فى أثناء التوقف الاتصال بالعالم الخارجى؛ لقد كانوا يسمعوننا الآن "من الجانب الآخر". وكان هناك توقف طويل فى قلب الريف، ثم المسير الذى استؤنف بمنتهى البطء، وتوقف الركب نهائيا، فى جوف الليل، وسط سهل مظلم وصامت.

وكنا نرى على جانبَى الرصيف صفوفا مــن الأضــواء البيضاء والحمراء، على مرمى البصر، ولكن لم يكن هناك شىء من ذلك الضجيج المختلط الذى ينبئ من بعيــد عــن الأمــاكن المأهولة. وعلى الضوء البائس للشمعة الأخيرة، انطفــأ إيقــاع القضبان، وانطفأ كل صوت بشرى، وانتظرنا أن يحدث شىء...

وكانت بجوارى امرأة مضغوطة بــين الأجــساد طــوال الرحلة، كان كل منا يعرف الآخر منذ ســنوات طويلــة، وقــد فاجأتنا الكارثة معا، ولكن كل واحد منا كان يعرف القليل عــن الآخر. وقد قال كلانا للآخر آنذاك، ساعة القرار، أشياء لا تقال بين الأحياء. وحيًّا كل منا الآخر بسرعة، وقد تمنى كــل منــا الحياة للآخر، ولم نكن نشعر بالخوف.

وجاء الحل فجأة؛ وفُتح الباب بصخب، وترددت فى الظلام أصداء أوامر أجنبية، ونباح الألمان البربرى عنــدما يــأمرون، ويبدو أنهم ينفسون عن غضب قديم يرجع لقرون طويلة. وبدا لنا الرصيف مضاءً بالكشافات. وبعد ذلك بقليل صف من ســيارات النقل، ثم صمت كل شىء من جديد. وقد فسر البعض هذا قائلاً: لا بد من النزول مع الحقائب، ووضعها بطول القطــار. وفــى لحظة واحدة أصبح الرصيف يعج بالظلال، ولكننا كنا نخاف من كسر هذا الصمت، وكان الجميع مشغولين حول الحقائب، ويبحث

بعضهم عن بعض، وينادى كل منهم الآخر، ولكن على استحياء، بصوت منخفض.

كان هناك ما يقرب من عشرة من جنود الشرطة السرية يقفون جانبيا، وقد بدا عليهم عدم الاكتراث وهم منتصبون وسيقانهم منفرجة. وعند لحظة معينة دخلوا بيننا، وبصوت منخفض وبوجوه من الحجر بدأوا فى استجوابنا بسرعة، واحدا تلو الآخر، بلغة إيطالية سيئة. لم يكونوا يستجوبون الجميع، ولكن البعض فقط: "كم عمرك؟ سليم أم مريض؟"، وبناء على الإجابة كانوا يوجهوننا إلى اتجاهين مختلفين.

كان كل شيء صامتا كما لو كنا فى حوض للسمك، وكما يحدث فى بعض مشاهد الأحلام. كنا نتوقع شيئا أكثر من مشاهد نهاية العالم. كان يبدو أنهم مجموعة من رجال الأمن. كان أمرا محيرا ومطلقا، وقد تجرأ البعض وسأل عن الحقائب، فردوا بقولهم "الحقائب فيما بعد". وكان البعض الآخر لا يريد ترك زوجته فقالوا: "فيما بعد معًا من جديد". وكثير من الأمهات لم يكنّ يردن الانفصال عن أبنائهن فقالوا: "حسن حسن، ابقين مع أبنائكن". بالثقة الهادئة نفسها لمن لا يفعل سوى وظيفته اليومية، ولكن رنزو توقف لحظة أكثر من اللازم لتحية فرانشيسكا خطيبته، وعندئذ أوقعوه أرضا بضربة واحدة مباشرة فى وجهه! كانت هذه وظيفتهم اليومية.

وفي أقل من عشر دقائق قاموا بتجميعنا جميعا تحت الرجال الأصحاء في مجموعة واحدة. وما حدث للآخرين، للنساء، وللأطفال، وللمسنين، لم نستطع تحديده آنذاك ولا بعد ذلك؛ لقد ابتلعهم الليل بكل بساطة. ولكننا نعلم اليوم أن كل واحد منا حكم عليه، في هذا الاختيار السريع والفوري، ما إذا كان يستطيع العمل أم لا بصورة مفيدة للرايخ، ونعلم أنه لم يدخل معسكري بونا مونوفيتز وبيركناو على الترتيب من قافلتنا، سوى ستة وتسعين رجلا وتسع وعشرين امرأة، وأن كل الآخرين، الذين يزيد عددهم على خمسمائة، لم يعش منهم واحد بعد تلك بيومين. ونعلم أيضًا أن هذا المبدأ الهش في التمييز بين القادرين وغير القادرين لم يتبع دائمًا، وأنه غالبا ما استخدم بعد تلك النظام الأبسط في فتح كلا البابين في العربة، دون تحذيرات ولا تعليمات للقادمين الجدد. وقد دخل المعسكر الذين أنزلتهم المصادفة من جانب القافلة، وذهب الآخرون إلى الغاز.

هكذا ماتت إميليا، التي كانت في الثالثة من عمرها؛ لأنه كان يبدو واضحا للألمان الضرورة التاريخية لقتل أطفال اليهود. إميليا، ابنة المهندس ألدو ليفي من ميلانو، التي كانت طفلة محبة للاستطلاع وطموحة ومرحة وذكية، والتي تمكن والدها ووالدتها، في أثناء رحلة العربة المكتظة، من مساعدتها على

الاستحمام في حوض من الزنك في مياه فاترة، كان سائق القطار الألماني المنحل قد سمح بضخها من القاطرة التي كانت تجر الجميع إلى الموت.

هكذا اختفى، في لحظة، على غرة، نساؤنا، وآباؤنا، ولم يستطع أي أحد تقريبا تحيتهم. رأيناهم لبعض الوقت كتلة داكنة عند الطرف الآخر من الرصيف، ثم لم نرَ شيئا بعد ذلك.

ولكن ظهر في ضوء الفنارات مجموعتان من الأفراد الغرباء يسيرون في مجموعات ثلاث، بخطوة غريبة مضطربة، ورءوسهم متدلية إلى الأمام وأذرعهم جامدة. وكانوا يضعون على رءوسهم قبعة صغيرة غريبة، ويرتدون أروابا طويلة مخططة، كان يُظن أيضًا في الليل ومن بعيد أنها قذرة وممزقة. وقد رسموا دائرة كبيرة حولنا بحيث لا يقتربون منا، وشرعوا بصمت في العبث بحقائبنا، والصعود والنزول من العربات الفارغة.

كنا ننظر دون أن نتكلم. كان شيئا غير مفهوم ومجنونا، ولكننا أدركنا شيئا واحدا، أن هذا هو التحول الذي ينتظرنا، وغدا سنصبح نحن أيضًا هكذا.

ودون أن أعرف كيف حدث هذا، وجدت نفسي مشحونا على سيارة نقل مع ما يقرب من ثلاثين آخرين، ورحلت السيارة

فى الليل بأقصى سرعة، وكانت مغطاة ولم يكن مــن الممكــن النظر إلى الخارج، ولكننا كنا ندرك أن الطريق بــه منحنيــات ونتوءات كثيرة. هل كنا بلا حراسة؟ هل يمكن القفز إلى أسفل؟ لقد فات الأوان، فات الأوان، سنذهب جميعا "إلى أسفل". ومــن ناحية أخرى، سرعان ما تنبهنا إلى أننا بلا حراسة: إنها حراسة غريبة. إنه جندى ألمانى، مدجج بالسلاح، ونحن لا نراه بــسبب الظلام الحالك، ولكننا نسمع ارتطامه الشديد فى كل مرة تحــدث فيها هزة كبيرة للعربة تلقى بنا جميعا فى كومة يمينا أو يسارا. ويضىء بطارية صغيرة، وبدلا من أن يصيح "الويل لكم أيتهــا الأرواح الشريرة" يطلب من كل واحد منا بذوق، بالألمانية وبلغة صريحة، ما إذا كان معنا مال أو ساعات نعطيه إياه، حيث إنــه لا فائدة منها فيما بعد. وهذا ليس أمرا وليس مــن التعليمــات، ويتضح جيدًا أنها مبادرة خاصة صغيرة من مرافقنــا. ويثيــر الأمر فينا غضبا وضحكا وارتياحا غريبا.

على القاع

لم تستمر الرحلة سوى عشرين دقيقة، ثم توقفت السيارة النقل، ورأينا بابا كبيرا، وفوقه عبارة مضاءة بشدة (ونكراها لا تزال تداهمنى فى الأحلام): العمل يجعل الإنسان حرًا، العمل يجعل الإنسان حرًا.

نزلنا وأدخلونا غرفة واسعة وخاوية وبها تدفئة ضعيفة. يا له من ظمأ كنا نشعر به! كان حفيف المياه الضعيف فى مواسير المدفأة يصيبنا بالجنون؛ فنحن لم نشرب منذ أربعة أيام. ومع ذلك فهناك صنبور، وفوقه لافتة تقول: "ممنوع الشرب لأن الماء ملوث". وهذا هراء، لأنه يبدو لى من الواضح أن اللافتة خدعة، "هم" يعلمون أننا نموت من الظمأ، ويضعوننا فى غرفة، وهناك صنبور، وممنوع شرب الماء! أشرب، وأحث الآخرين لكى يشربوا، ولكننى أضطر إلى البصق، فالماء فاتر وعذب قليلا، وتفوح منه رائحة المستنقع.

هذا هو الجحيم. اليوم فى أيامنا هذه، يجب أن يكون الجحيم هكذا، غرفة كبيرة وخاوية، ونحن المتعبون نبقى واقفين، وهناك صنبور ينزل منه الماء نقطة بنقطة والماء لا يمكن شربه، ونحن ننتظر شيئا رهيبا بالتأكيد، ولا يحدث شىء،

ويستمر الموقف دون أن يحدث أى شيء. كيف يمكن التفكير؟ لم يعد من الممكن التفكير، كما لو كنا موتى بالفعل. البعض يجلس على الأرض، والزمن يمر نقطة بنقطة.

نحن لم نمت؛ لقد فُتح الباب ودخل أحد رجال الشرطة السرية وهو يدخن. ينظر إلينا دون تسرع، ويسأل: "من يعرف الألمانية؟"، يتقدم واحد منا لم أرَه من قبل، يُدعى "فليس"، وسيكون هو مترجمنا. يقوم رجل الشرطة بحديث طويل هادئ والمترجم يترجم. لا بد من الوقوف في صف من خمسة أشخاص، مع مسافة مترين بين كل رجل والآخر، ثم لا بد من خلع الملابس وربط الملابس معا بطريقة معينة، والملابس الصوفية فى ناحية وكل الباقى فى الناحية الأخرى، وخلع الأحذية ولكن مع الانتباه الشديد لكى لا تُسرق.

تُسرق ممَّن؟ ولماذا يتعين أن يسرقوا أحذيتنا، ووثائقنا، والقليل الذى نحمله فى جيوبنا، والساعات؟ كلنا ينظر إلى المترجم، وسأل المترجم الألمانى، والألمانى كان يريد أن يدخن، ونظر إليه من جانب إلى آخر كما لو كان شفافا، كما لو أن أحدا لم يتكلم.

لم أكن قد رأيت قط رجالا مسنين عرايا. كان السيد بيرجمان يضع حزام الفتق، وسأل المترجم ما إذا كان يتعين

عليه وضعه، وتردد المترجم. ولكن الألمانى فهم، وتحدث بجد للمترجم مشيرا إلى شخص ما، ورأينا المترجم يبلع ريقه ثم قال: المساعد يقول إنه يجب وضع الحزام ، وإنك ستأخذ حزام السيد كوهين. كنا نرى الكلمات تخرج مريرة من فم "فليس"، وكانت هذه هى طريقة الألمانى فى الضحك.

ثم يأتى ألمانى آخر، ويقول إنه يجب وضع الأحذية فى زاوية معينة، ونقوم نحن بوضعها، لأن الأمر انتهى الآن ونشعر بأننا خارج العالم، والشىء الوحيد الباقى هو الطاعة. ويأتى شخص بالمكنسة ويكنس جميع الأحذية خارج الباب فى كومة. إنه مجنون، يخلطها جميعا، الستة والتسعين حذاء، ولا بد أن الأزواج قد اختلطت. الباب يطل على الخارج، وتدخل رياح ثلجية ونحن عرايا ونغطى بطوننا بأذرعنا. وتطرق الرياح الباب فتغلقه، ويعيد الألمانى فتحه من جديد، وينظر وهو منهمك فى التفكير كيف نتلوى لكى نقى أنفسنا من الرياح واحدا وراء الآخر، ثم يرحل ويغلق الباب من جديد.

هذا هو الفصل الثانى. يدخل بعنف أربعة أشخاص بالأمواس وفرش الحلاقة وماكينات قص الشعر، ويرتدون بناطيل وسترات مخططة، مع رقم مثبت بالخياطة على الصدر، ربما من نفس نوع الآخرين الذين جاءوا مساء اليوم (مساء اليوم

أم مساء أمس؟)، ولكن هؤلاء أقوياء وأصحاء. نوجه الكثير من الأسئلة ولكنهم يقبضون علينا، وفى لحظة نجد أنفسنا حليقى الرؤوس وقد جُزَّ شعرنا، ويا لها من وجوه مضحكة، وجوهنا بلا شعر! الأربعة يتحدثون لغة لا يبدو أنها من هذا العالم، وبالطبع ليست الألمانية، فأنا أفهم الألمانية قليلا. أخيرًا يُفتح باب آخر. ها نحن كلنا محتجزون، عرايا وحليقو الرءوس وواقفون، وأقدامنا فى الماء، وهذه صالة للأدشاش. نحن بمفردنا، وشيئا فشيئا تتبدد الدهشة ونتحدث ونسأل كلنا ولا أحد يرد. وإذا كنا عرايا فى صالة للأدشاش، فإن هذا يعنى أننا سنستحم تحت الدش، وإذا كنا سنستحم تحت الدش، فهذا لأنهم لن يقتلونا الآن. إذن لماذا يوقفوننا، ولا يقدمون لنا ما نشربه، ولا أحد يشرح لنا أى شىء، وليس معنا أحذية ولا ملابس، ولكننا جميعا عرايا وأقدامنا فى الماء، والجو بارد ولم نسافر منذ خمسة أيام ولا نستطيع حتى الجلوس؟!

– ونساؤنا؟

المهندس ليفى يسألنى ما إذا كنت أعتقد أن نساءنا أيضًا مثلنا هكذا فى هذه اللحظة، وأين هن، وما إذا كنا سنتمكن من رؤيتهن. أنا أرد بنعم، لأنه متزوج وله طفلة، بالطبع سنراهن. ولكننى أعتقد أن كل هذا حيلة كبيرة للضحك علينا وإهانتنا، ثم

إنه من الواضح أنهم سيقتلوننا، ومن يعتقد أنه سيعيش فإنه مجنون، وهذا يعنى أنه وقع فى المصيدة، ولكننى لم أقع، لقد أدركت أن الأمر سينتهى سريعا، وربما فى هذه الغرفة نفسها، عندما يملون من رؤيتنا عرايا، ونحن نتراقص من قدم لأخرى، ونحاول القعود على الأرضية بين الحين والآخر، ولكن توجد ثلاثة قراريط من الماء البارد ولا نستطيع القعود.

ونصعد ونهبط بلا مضمون، ونتكلم، كل منا يتكلم مع الآخرين، وهذا يؤدى إلى صخب شديد. ويُفتح الباب ويدخل ألمانى، إنه المساعد الأول، يتحدث باقتضاب، والمترجم يترجم: "المساعد يقول إنكم يجب أن تلتزموا الصمت؛ لأن هذه ليست مدرسة حاخامات"، ونرى الكلمات التى ليست كلماته، الكلمات السيئة، تلوى فمه وهى تخرج، كما لو كان يلفظ لقمة غير مستساغة. ونرجوه أن يسأله ماذا ننتظر، وكم من الوقت سنظل هنا، وعن نسائنا وكل شىء. ولكنه يقول لا، إنه لا يريد سؤاله. و"فليس" هذا الذى يؤقلم نفسه على مضض لكى يترجم إلى الإيطالية عبارات ألمانية مليئة بالصقيع، ويرفض أن يترجم إلى الألمانية أسئلتنا لأنه يعلم أن هذا غير مُجْدٍ، هو يهودى ألمانى يبلغ الخمسين من العمر تقريبا، ويحمل فى وجهه ندبة كبيرة لجرح أصيب به وهو يقاتل ضد الإيطاليين على نهر بيافى، وهو

رجل منغلق وصامت، أشعر تجاهه باحترام غريزى لأننى أشعر أنه بدأ يتألم قبلنا.

الألمانى يرحل، ونبقى نحن الآن صامتين، مهما خجلنا قليلا من البقاء صامتين. كان الوقت لا يزال ليلا، وكنا نتساءل متى سيأتى النهار. وفُتح الباب من جديد ودخل شخص يرتدى ثيابا مخططة. كان مختلفا عن الآخرين، أكبر سنا، ويضع نظارة، ووجهه أكثر تحضرا، وكان أقل قوة بكثير. يتحدث إلينا ويتحدث الإيطالية.

لقد تعبنا الآن من الاندهاش، ويبدو لنا أننا نشهد مسرحية مجنونة، من تلك المسرحيات التى تظهر فيها الساحرات والروح القدس والشيطان. يتحدث بصورة سيئة، بنبرة أجنبية قوية. وقد قام بحديث طويل، وهو مهذب جدًّا، ويحاول الإجابة على كل أسئلتنا.

نحن فى مونوفيتز، بالقرب من أوشفيتز، فى (إقليم) ساليزيا العليا. وهذا معسكر للعمل، وبالألمانية يسمى «**Lager**». كل السجناء (ما يقرب من عشرة آلاف) يعملون فى مصنع للمطاط يسمى بونا، ولهذا فإن المعسكر نفسه يسمى "بونا".

سنتلقى أحذية وملابس، لا، ليست أحذيتنا وملابسنا، أحذية أخرى وملابس أخرى، مثل ملابسه. الآن نحن عرايا لأننا ننتظر

الدش والتعقيم، وهو ما سيتم فورا بعد الاستيقاظ؛ لأن أحـــدا لا يدخل المعسكر ولا يقوم بالتعقيم.

بالطبع سيكون هناك عمل، الجميع هنا يجب أن يعملـــوا، ولكن هناك عمل وعمل: هو على سبيل المثال يعمل طبيبا، فهو طبيب مَجَرِىٌّ درس فى إيطاليا، وهـــو طبيـــب الأســـنان فـــى المعسكر، وهو فى المعسكر منذ أربعة أعوام (ليس فـــى هـــذا المعسكر، فمعسكر بونا موجود منذ عام ونصف فقط)، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نراه، وهو فى حالة جيدة، وليس نحيفـــا جـــدًّا. لماذا هو فى معسكر اعتقال؟ هل هو يهودى مثلى؟ يقـــول هـــو ببساطة: لا، إننى مجرم.

نسأله أسئلة كثيرة، وهو يبتسم أحيانا، ويرد على بعـــض الأسئلة ولا يرد على أسئلة أخرى، ومن الواضح أنـــه يتجنـــب بعض الموضوعات. لا يتحدث عن النساء. يقول إنهن فى حالة جيدة، وإننا سنراهن قريبا، ولكنه لا يقول كيف ولا أين، ولكنـــه يروى لنا أمورا أخرى، أمورا غريبة ومجنونة، وربما يتلاعب أيضًا بنا، وربما يكون مجنونا؛ ففى معسكر الاعتقـــال يـــصبح الإنسان مجنونا. وهو يقول إن هناك حفلات موسيقية ومباريات لكرة القدم كل أيام الأحد. ويقول إن من يلعب الملاكمـــة جيـــدًا يمكن أن يصبح طباخا. ويقول إن من يعمل جيدًا يتلقى بونات –

جوائز يمكن أن يشترى بها التبغ والصابون. ويقول إن الماء حقًا غير صالح للشرب، ولكن يُوزَّع كل يوم بديل للقهوة، ولكن لا أحد يشربها عمومًا، لأن الحساء نفسه مائيٌ بما فيه الكفاية ليروى الظمأ. ونرجوه أن يحضر لنا شيئًا نشربه، ولكنه يقول إنه لا يستطيع، وإنه جاء لكى يرانا خفية، ضد خطر الشرطة السرية، لأننا لم نُعقَّم بعد، ويجب أن يرحل على الفور. لقد جاء لأنه يتعاطف مع الإيطاليين ولأنه، كما يقول، "عنده بعض الرأفة". ونسأله مرة أخرى ما إذا كان هناك إيطاليون آخرون فى المعسكر، وهو يقول إن هناك البعض منهم، قلة، لا يعرف عددهم، ويغيِّر الحديث على الفور. وفى تلك الأثناء رنَّ جرس، وهرب هو على الفور، وتركنا مذهولين وحائرين. البعض يشعر أنه تحرر، ولكننى لا أشعر بذلك ولا أزال أعتقد أن طبيب الأسنان هذا أيضًا، هذا الشخص غير المفهوم، أراد التسلِّى على حسابنا، ولا أريد تصديق كلمة واحدة مما قاله.

وعند الجرس، شعرنا بأن المعسكر المظلم يستيقظ من جديد. وفجأةً انبثق الماء المغلى من الأدشاش، خمس دقائق من النعيم... ولكن بعد ذلك على الفور يقتحم المكان أربعةً (ربما كانوا الحلاقين)، يطردوننا ونحن مبتلون، ويتصاعد منا البخار بصيحات ودفعات إلى الغرفة المجاورة، الباردة كالصقيع، وهنا

يلقى علينا أناس آخرون صائحون بعض الأثمال البالية، ويضعون بعنف فى أيدينا أزواجًا من الأحذية الرديئة ذات النعل الخشبى. ولم يكن لدينا وقت للفهم، ونجد أنفسنا بالفعل فى العراء، على الجليد الأزرق البارد عند الفجر، ونحن حفاة عراة وفى يدنا كل متعلقاتنا، وعلينا أن نجرى حتى كوخ آخر، على بعد مائة متر تقريبا. هنا سُمح لنا بارتداء ملابسنا.

وعندما انتهينا، بقى كل منا فى ركنه، ولم نجرؤ على رفع أعيننا لينظر كل منا إلى الآخر. لا يوجد ما ننظرٍ فيه كمرآة، ولكن مظهرنا أمامنا منعكس فى مائة وجه مزرق، فى مائة دمية بائسة وقذرة. ها نحن قد تحولنا؛ ها نحن قد تحولنا إلى الأشباح التى لمحناها مساء أمس.

عندئذ أدركنا للمرة الأولى أن لساننا يفتقد الكلمات التى تعبِّر عن هذه الإهانة، هدم إنسان. وفى لحظة واحدة، وبحدس تنبُّئِىٍّ تقريبا، انكشف الواقع أمامنا: لقد وصلنا إلى القاع؛ فلا يمكن النزول بعد ذلك. لا توجد حالة بشرية أكثر بؤسا، ولا يمكن تصورها. لم يعد هنا شىء يخصنا، لقد انتزعوا الملابس والأحذية، وأيضًا الشعر، وإذا تحدثنا لن يستمعوا لنا، وإن استمعوا لنا لن يفهمونا، وسينتزعون منا حتى اسمنا، إذا أردنا الاحتفاظ به سيتعين علينا أن نعثر فى أنفسنا على القوة لذلك، بحيث يبقى وراء الاسم، شىء منا، منا كما كنا.

نحن نعلم أن من الصعب أن يفهمونا فى هذا ويُستحسن أن يكون الأمر كذلك. ولكن لينظر كل منا، مدى القيمة ومدى المعنى الذى تضمه حتى أصغر عاداتنا اليومية وفى مائة شـىء عندنا ويمتلكها أبسط متسول: منديل وخطاب قديم، وصورة شخص عزيز... هذه الأشياء جزء منا، كأعضاء فى جسدنا، ولا يمكن أن نُحرم منها، فى عالمنا، لأننا على الفور قد نجد غيرها تحل محل القديمة، أشياء أخرى تخصنا لأنها تحفظ وتثير ذكرياتنا.

تخيل الآن إنسانا انتزعوا منه، إلى جانب الأشخاص الذين يحبهم، بيته وعاداته وملابسه وكل شىء فى النهاية، حرفيا كل ما يمتلك، سيكون رجلا خاويا، أصبح يعيش فى ألم وحاجة، ناسيا كرامته وقدرته على التمييز، لأن من السهل أن يحدث لمن فقد كل شىء أن يفقد نفسه، وهنا بالتالى يمكن بسهولة تقرير حياته أو موته خارج أى شعور بالتشابه الإنسانى، وفى أكثر الحالات حظا، على أساس مجرد حكم نفعى. عندئذ سنفهم المعنى المزدوج لكلمة "معسكر إبادة"، وسيكون واضحا ماذا نقصد بهذه العبارة: «النوم على القاع».

المعتقل: لقد تعلمت أننى معتقل. اسمى هو ١٧٤٥١٧؛ لقد أُطلقت علينا أسماء جديدة، وسنحمل طوال حياتنا العلامة المنقوشة على ذراعنا الأيسر.

كانت العملية مؤلمة شيئا ما، وسريعة بصورة فائقة؛ وضعونا جميعا فى صف واحد، ثم مررنا واحدا واحدا، طبقا للترتيب الأبجدى لأسمائنا أمام موظف ماهر يمسك بشىء يشبه المخراز وله سن قصير للغاية. ويبدو أن هذه هى البداية الحقيقية؛ فعندما "تُظهِر الرقم" فقط نتلقى الخبز والحساء. وقد تَطلَّب الأمر مرور أيام عديدة، وعددًا غير قليل من الصفعات واللكمات حتى نعتاد على إظهار الرقم بسرعة، بحيث لا نعرقل عمليات التموين اليومية فى التوزيع، وقد تطلب الأمر أسابيع وشهورا حتى نتعلم معناها باللغة الألمانية. ولأيام طويلة عندما كنت أندفع بحكم العادة فى أيام الحرية للنظر فى ساعة المعصم، كان يبدو لى وبصورة تدعو للسخرية اسمى الجديد، الرقم المنقوش بالإبرة على شكل علامات تميل إلى اللون الأزرق تحت الجلد.

وبعد ذلك بفترة طويلة، وبالتدريج، تعلم بعضنا شيئا من علم أرقام أوشفيتز الكئيبة، الذى تُختصر فيه مراحل تدمير اليهودية فى أوروبا. وبالنسبة إلى قدامى المعسكر يقول الرقم كل شىء: فترة دخول المعسكر، والقافلة التى كان بها الشخص، وبالتالى جنسيته. الجميع يعاملون باحترام الأرقام من ٣٠٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠، وهى ليست سوى بضع مئات، وتميز القلة التى

بقيت على قيد الحياة من أحياء اليهود البولندية. ولا بد أن نفتح أعيننا جيدًا عندما ندخل فى علامات تجارية مع شخص رقمه ١١٦٠٠٠٠١١٧٠٠٠. وقد انخفض عددهم الآن إلى ما يقرب من الأربعين، ولكنهم يونانيون من مدينة سالونيك، ويجب ألا يترك الإنسان نفسه ضحية للخداع. وفيما يتعلق بالأرقام الكبيرة فإنها تنطوى على نبرة أساسية من الكوميديا، كما يحدث لكلمتَى "سجِلّ" و"مجند" فى الحياة العادية. والرقم الكبير المميز هو شخص له كرش كبير، ووديع وأبله، يمكن أن توهمه بأنهم يوزعون فى العيادة أحذية من الجلد لأشخاص أقدامهم رقيقة، وإقناعه بالجرى إلى هناك وبأن يترك لك قصعة من الشوربة "فى حراستك"، ويمكن أن تبيعه ملعقة فى مقابل ثلاثة تعيينات من الخبز، ويمكنك أن ترسله إلى أشرس زعيم لكى يسأله (وقد حدث لى هذا!) ما إذا كانت القيادة التابع لها هى قيادة تقشير البطاطس، وما إذا كان يمكن التجنيد فيها.

ومن ناحية أخرى كانت عملية إدراجنا فى هذا النظام الجديد بالنسبة إلينا تجرى بصورة مضحكة وساخرة. وبعد عملية الوشم، احتجزونا فى كوخ لا يوجد فيه أحد، وقد أُعيدَ ترتيب الأسرَّة ولكنهم منعونا بقسوة من أن نمسَّها أو أن نجلس عليها، وهكذا نتجول بلا هدف حتى منتصف النهار فى المساحة

الصغيرة المتاحة لنا، ونحن لا نزال نعانى من الظمأ الشديد من الرحلة. ثم انفتح الباب، ودخل ولد يرتدى ثيابا مخططة، مظهره متحضر نوعا ما وصغير ونجيف وأشقر. كان يتحدث الفرنسية وقد التففنا حوله بأعداد كبيرة ونحن ننهال عليه بكل الأسئلة التى وجهها كل منا للآخر بلا جدوى.

ولكنه يتحدث من تلقاء نفسه. لا أحد هنا يتحدث من تلقاء نفسه. نحن مستجدون، لا نملك شيئا ولا نعرف شيئا، فما الهدف من إضاعة الوقت معنا؟ ويشرح لنا على مضض أن كل الآخرين يعملون فى الخارج وسيعودون هذا المساء.

وقد خرج هو هذا الصباح من المشفى، وهو اليوم معفى من العمل. وقد سألته (بسذاجة بدت لى رائعة بعد ذلك ببضعة أيام فقط) ما إذا كانوا سيعيدون لنا على الأقل فرش الأسنان. لم يضحك، ولكنه رد علىّ بوجهه الذى ارتسم عليه الاحتقار الشديد فقال: "أنتم لستم فى بيتكم"، وهذه هى العبارة المتكررة التى نسمعها من الجميع: "لم تعودوا فى بيوتكم، هذه ليست مصحَّة، لن يخرج أحد من هنا إلا إلى المدخنة" (ماذا يعنى هذا؟ سوف نتعلم هذا جيدًا فيما بعد).

وبالفعل، وبدافع من الظمأ، نظرت خارج النافذة إلى قطعة جميلة من الثلج فى متناول يدى. فتحت النافذة وفصلت الثلج،

ولكن شخصا كبيرا ضخما كان يتجول فى الخارج، تقدم على الفور وانتزعه منى بوحشية. وقد سألته بلغتى الألمانية الفقيرة: "لماذا؟" فرد علىَّ قائلاً: "هنا لا يوجد لماذا"، وهو يدفعنى إلى الداخل بدفعة قوية. وتفسير هذا مقزز ولكنه بسيط؛ كل شىء ممنوع فى هذا المكان، ليس لأسباب محددة، ولكن لأن المعسكر أُنشئ لهذا السبب. إذا كنا نريد العيش فيه، فلا بد أن نفهم ذلك بسرعة وجيدا:

...لا مكان هنا للوجه المقدس

هنا يعوم الإنسان بدلا من العوم فى نهر سيركيو!

وساعة بعد ساعة، يقترب هذا اليوم الأول الطويل للغاية من مقدمة الجحيم من نهايته. وبينما تغرب الشمس فى دوامة من السحب الدموية المتجهمة، يسمحون لنا فى النهاية بالخروج من الكوخ. هل سيقدمون لنا ما نشربه؟ لا، لقد أوقفونا مرة أخرى فى الطابور، وقادونا إلى ميدان واسع يحتل مركز المعسكر، وقاموا بترتيبنا بدقة فى تنظيمات محددة، ثم لا يحدث شىء بعد ساعة أخرى، ويبدو أننا ننتظر شخصا ما.

ويبدأ البوق فى العزف بجوار باب المعسكر، يعزف لحن روزاموندا، الأغنية العاطفية الجميلة الشهيرة، ويبدو لنا هذا

غريبا جدًّا حتى إن كلا منا نظر إلى الآخر مبتـــسما بـــسخرية؛ ويولَد فينا ظل من الراحة، وربما لا تمثل كل هذه الاحتفـــالات سوى خدعة هائلة ذات مذاق ألمانى. ولكن بعد الانتهاء من أغنية روزاموندا يستمر البوق فى عزف مارشات أخرى، الواحد بعد الآخر، وها هى تظهر مجموعات زملائنا العائدين من العمـــل. يسيرون فى طابور من خمسة أشـــخاص، ويـــسيرون بمـــشية غريبة، غير طبيعية، متصلبة، كدمى جامدة مصنوعة من العظام فقط، ولكنهم يسيرون بدقة على إيقاع البوق.

هم أيضًا يُرَتِّبون مثلنا طبقا لنظام دقيـــق فـــى الميـــدان الواسع، وعندما تصل آخـــر مجموعـــة يحـــصوننا، ويعيـــدون إحصاءنا لأكثر من ساعة، وتجرى عمليات تفتيش طويلة يبـــدو أنها ترجع كلها لشخص يرتدى ثيابا مخططة، يقدم عنها تقريرا لمجموعة صغيرة من الشرطة السرية فى ترتيب حربى كامل.

وأخيرًا (وقد حلَّ الظلام، ولكن المعـــسكر مـــضاء بقـــوة بالفنارات والكشافات) نسمع من يصيح قائلاً "انصراف!"، وعندئذ تنصرف كل الفرق فى حركة غير منتظمـــة ومـــضطربة مـــن الذهاب والمجىء. الآن لم يعودوا يسيرون متصلبين ويختـــالون فى مشيتهم كما كان من قبل، فكل شخص يجـــر نفـــسه بجهـــد واضح. ومعروف أن الجميع يحملون فى يدهم أو يعلقون فـــى حزامهم سلطانية من المعدن فى حجم طست تقريبا.

ونحن المستجدين أيضًا نتجول بين الزحـــام، بحثـــا عـــن صوت، عن وجه صديق، عن مرشد. وإلى جانب جـــدار مـــن الخشب فى أحد الأكواخ كان يجلس على الأرض غلامان؛ كان يبدو أنهما صغيران جدًّا، فى السادسة عشرة من العمـــر علـــى أكثر تقدير، وكان وجهاهما وأيديهما متسخة بالسناج. وقد نادانى أحدهما، ونحن نمر، وسألنى بالألمانية بضعة أسئلة لا أفهمها، ثم سألنا من أين جئنا، ورددت بقولى: "إيطاليون"، وكنـــت أود أن أسأله فى أشياء كثيرة، ولكن الجمل التـــى أمتلكهـــا بالألمانيـــة محدودة للغاية.

سألته: هل أنت يهودى؟

- نعم، يهودى بولندى.

- منذ متى وأنت فى معسكر الاعتقال؟

- ثلاث سنوات (ويرفع ثلاثة أصابع).

... لا بد أنه دخل طفلا، هكذا أفكر بشىء من الرعـــب، ومن ناحية أخرى، هذا يعنى أن هناك من يستطيع العيش هنـــا على الأقل.

- ما عملك؟

يرد قائلاً: حدّاد. (لا أفهم، "حديد، نار" هكذا يلـــح، وهـــو يقوم بإشارة بيديه كمن يطرق بالمطرقة على سندان. إنه حـــداد

إذن. وأصرح أنا بقولى: "إننى كيميائى"، وهو يــومئ برأســه بتثاقل ويقول: "كيميائى جيد". ولكن كل هذا يتعلــق بالمــستقبل البعيد، إن ما يعذبنى فى هذه اللحظة، هو العطش.

وأقول له: "شرب الماء، نحن ليس لدينا ماء". وهو ينظــر إلىّ بوجه جاد، قاسٍ تقريبا، ويوضح قائلاً: "لا تشرب الماء يــا رفيقى"، ثم كلمات أخرى لا أفهمها.

- لماذا؟

ويرد هو باقتضاب "Geschwollen"، وأنا أهز رأسى ، لم أفهم. ويشرح لى وهو ينفخ أوداجه وهو يمثل بيديه تورم الوجه والبطن.

- "انتظروا حتى هذا المساء"، وأترجم أنا كلمــة كلمــة: "الانتظار حتى مساء اليوم".

ثم يقول: أنا اسمى شلومى، وأنت؟

أقول له اسمى، وهو يسألنى: أين والدتك؟

- فى إيطاليا.

شلوم يندهش ويقول: يهودية فى إيطاليا!

وأشرح له ذلك بقدر المستطاع فأقول: "نعم، مختبئــة، لا أحد يعرف، الهروب، لا تتكلم، لا أحد يرى". لقد فهم ما قلتــه؛

وهو ينهض الآن ويقترب منى ويعانقنى فى خجل. لقد انتهــت المغامرة، وأشعر بأننى ملىء بحزن هادىء أشبه بالفرحة تقريبا. لم أرَ شلوم بعد ذلك، ولكننى لم أنس وجهه المتجهم الوديع الذى يشبه وجه الصبى الذى استقبلنى على عتبة بيت الموتى.

هناك أشياء كثيرة جدًا بقى أن نتعلمها، ولكن الكثير منهــا تعلمناه بالفعل. ولدينا بالفعل فكــرة عــن تــضاريس معــسكر الاعتقال، ومعسكرنا هذا مربع طول ضلعه يقرب من ســتمائة متر، وهو محاط بسياجين من الأسلاك الشائكة، الداخلى يمر فيه تيار كهربى بجهد مرتفع، وهو مؤلف من ســتين كوخــا مــن الخشب، تسمى هنا بلوكات، عشرة منها يجرى بناؤها، ويضاف إليها مبنى المطابخ المبنىُّ من الطوب، ومزرعة تجريبية تديرها مجموعة من المعتقلين المميزين، وأكواخ الأدشاش والمراحيض، بعدد واحد لكل مجموعة من ستة أو ثمانية بلوكات. وعلاوة على ذلك، تُستخدم بعض البلوكات لأغراض خاصة. هناك قبل كــل شيء، مجموعة من ثمانية عند الطرف الشرقى مــن المعــسكر تمثل المشفى والعيادة، ثم إن هناك بعد ذلك البلــوك ٢٤، وهــو بلوك العزل المخصص للــمصابين بالجرب، والبلوك ٧ الذى لم يدخله قط أى محتجز عادى، وهو مخــصص للـــــقيادات ، أى للأرستقراطية، للمحتجزين الذين يشغلون مناصب عليا، والبلوك

٤٧ المخصص للعاملين الألمان؛ (الآريين الألمان، السياسيين أو المجرمين)، والبلوك ٤٩ للرؤساء فقط، والبلوك ١٢ الذى يستخدم نصفه العاملون الألمان والرؤساء، يُستخدم كمقصف، أى كمركز لتوزيع التبغ ومسحوق المبيد الحشرى، ومن حين إلى آخر للسلع الأخرى، والبلوك ٣٧ الذى يتضمن الإدارة العسكرية المركزية ومكتب العمل، وأخيرًا البلوك ٢٩ الذى نوافذه دائمًا مغلقة لأنه بلوك النساء، ماخور المعسكر، الذى تستخدمه الفتيات المحتجزات البولنديات، والمخصص للعاملين الألمان.

وبلوكات السكن العادية مقسمة إلى غرفتين، يعيش فى إحداهما (غرفة النهار) قائد الثكنة مع أصدقائه، وهناك منضدة طويلة وكراسى ومقاعد طويلة، وهناك فى كل مكان كمية من الأشياء الغريبة ذات الألوان الفاقعة، والصور وقصاصات المجلات والرسومات والزهور الصناعية والتحف، وعلى الجدران كتابات كبيرة، وحكم وأمثال وأشعار قصيرة تهتف للنظام والانضباط والقواعد الصحية، وفى أحد الأركان هناك فترينة تضم أدوات بلوك الحلاقة (الحلاق المكلف بالحلاقة) ومغارف توزيع الحساء وسوطين من المطاط، أحدهما ممتلئ والآخر فارغ، للحفاظ على نفس الانضباط. والغرفة الأخرى عنبر للنوم؛ ولا يوجد هناك سوى مائة وثمانية وأربعين سريرا

من ثلاثة طوابق، مُرتَّبة بكثافة، مثل خلايا النحل، بحيث يستخدم المكان حتى السقف دون ترك أى مساحة خاوية، وتفصل بينها ثلاثة ممرات، وهنا يعيش المحتجزون العاديون ويبلغ عددهم مائتين أو مائتين وخمسين فى كل ثكنة، اثنان إذن فى جانب كبير من الأسرَّة، وهى من الألواح الخشبية المتحركة المزوَّد كل منها بكيس رقيق من القش وغطاءين. وقد كانت ممرات الدخول ضيقة جدًّا حتى إن الشخصين كانا يمران فيها بصعوبة، وكانت المساحة الكلية للأرضية قليلة جدًّا حتى إن سكان البلوك نفسه لا يستطيعون الإقامة فيه كلهم فى نفس الوقت إذا كان النصف على الأقل غير نائمين فى أسرَّتهم. ومن هنا جاء حظر دخول البلوك الذى لا ينتمى إليه الشخص.

وفى وسط معسكر الاعتقال هناك ميدان "النداء"، البالغ الاتساع، حيث يجتمع فيه الجميع فى الصباح لتكوين فرق العمل، وفى المساء لإحصاء الأشخاص. وأمام ميدان النداء هناك حوض من الأعشاب المقصوصة بعناية، حيث تقام المشانق إذا لزم الأمر.

وسرعان ما تعلمنا أن ضيوف معسكر الاعتقال ينقسمون إلى ثلاث طوائف: المجرمين، والساسة، واليهود؛ كلهم يرتدون ملابس مخططة، وكلهم محتجزون، ولكن المجرمين يضعون إلى

جانب الرقم، المثبت بالخياطة على الجاكتة، مثلثا أخضر، والساسة مثلثا أحمر، واليهود، الذين يمثلون الغالبية العظمى، يضعون النجمة اليهودية، الحمراء والصفراء. وكانت هناك قوات الشرطة السرية، ولكنها كانت قليلة، وخارج المعسكر، ونادرا ما نراها نسبيا. وسادتنا الفعليون هم المثلثات الخضراء، الذين أُطلقت أيديهم فى التعامل معنا، وعلاوة على ذلك كان هناك من بين الطائفتين الأخريين من يتقدمون لمساعدتهم، وهم كثيرون.

. ولقد تعلمنا أيضًا الكثير، وبسرعة تقريبا، تبعا لطبع كل منا، أن نرد بكلمة "نعم"، وعدم توجيه أية أسئلة، وأن نتظاهر دائمًا بأننا فهمنا. لقد تعلمنا قيمة الأغذية، ونحن الآن أيضًا نقوم بنشاط بكشط قاع القصعة بعد الوجبة، ونضعها تحت الذقن عندما نأكل الخبز حتى لا نبدد فتاته. ونحن أيضًا نعلم الآن أن استقبال مغرفة الحساء المأخوذة من السطح والمأخوذة من قاع الإناء الكبير (الأزان) لا تستويان، ويمكننا الآن تحديد المكان الأنسب الذى نطمح إليه عندما نقف فى الطابور، تبعا لسعة مختلف المغارف.

وقد تعلمنا أن كل شيء له فائدة: السلك لربط الأحذية، والخرق البالية لنأخذ منها قطعا لمسح الأقدام، والورق لنحشو به

(سرًا) السترة ضد البرد. وقد تعلمنا فى الوقت نفسه أن كل شىء يمكن سرقته، بل إنه يُسرق تلقائيا بمجرد أن يتراخى الانتباه، ولكى نتجنب ذلك اضطُررنا إلى تعلُّم فن النوم ورأسنا على لفافة من السترة تحوى كل ما نملك، من القصعة إلى الأحذية.

ونحن نعلم بالفعل تعليمات المعسكر فى معظمها، وهى معقدة بصورة عجيبة؛ فهناك عدد لا يحصى من المحظورات: الاقتراب لأقل من مترين من الأسلاك الشائكة، النوم بالسترة أو دون ملابس داخلية أو بالقبعة على الرأس، استخدام مغاسل أو مراحيض خاصة "للقادة فقط" أو "للعاملين الألمان فقط"، عدم الذهاب إلى الدش فى الأيام المقررة، والذهاب إلى هناك فى الأيام غير المقررة، الخروج من الثكنة بالسترة وهى غير مزرَّرة أو بياقة السترة مرفوعة، وضع ورق أو قش تحت السترة للوقاية من البرد، الاستحمام دون تعرية الجسم.

وهناك عدد لا يحصى ولا معنى له من الطقوس التى لا بد من القيام بها؛ ففى صباح كل يوم لا بد من ترتيب "السرير"، ليكون مستويا تمامًا وناعما، ودهان القباقيب الخشب الطينية والمنفرة بشحم السيارات المُعَدّ لذلك، وكشط بقع الطين من الملابس(أما بقع الطلاء والشحم والصدأ فمسموح بها)، وفى المساء لا بد من الخضوع للتفتيش عن القمل أو للتفتيش على

غسيل الأرجل، وفى يوم السبت لا بد من حلق الذقن والشعر، ورفى الخرق البالية أو العمل على رفيها، وفى يوم الأحد لا بد من التفتيش على الجرب، والتفتيش على أزرار السترة، التى يجب أن تكون خمسة.

وعلاوة على ذلك، هناك ظروف لا حصر لها، غير المهمة عادة، وتصبح هنا مشكلات: عندما تطول الأظافر، لا بد من تقصيرها، وهو ما لا يمكن القيام به سوى بالأسنان (بالنسبة إلى أظافر الأرجل يكفى احتكاك الأحذية)، وإذا فُقد أحد الأزرار لا بد من التمكن من إعادة تثبيته بأحد الأسلاك، وإذا ذهب الإنسان إلى الحمام أو إلى المرحاض، فلا بد أن يحمل معه كل شيء، دائمًا وفى كل مكان، وعندما تُغسل العيون توضع لفافة الملابس بين الركبتين، فهى فى تلك اللحظة يمكن أن تُسرق إذا وُضعت بأى طريقةٍ أخرى. وإذا كان الحذاء يؤلم القدم فلا بد من التقدم فى المساء لاحتفال تغيير الأحذية، وهنا تُختبر مهارة الفرد، ووسط الزحام غير المعقول لا بد من التمكن من أن يختار الإنسان فى لمح البصر فردة حذاء (وليس زوجين من الأحذية، فردة واحدة) من حذاء يكون مناسبا، لأنه بمجرد الاختيار لا يُسمح بتغيير ثانٍ.

ولا يمكن الاعتقاد بأن الأحذية فى حياة معسكر الاعتقـال تمثل عاملا له أهمية ثانوية؛ فالموت يبدأ من الأحذية، فقد اتضح بالنسبة إلى الغالبية العظمى منا أنها أدوات حقيقيـة للتعـذيب، تؤدى بعد بضع ساعات من السير إلى انثناءات مؤلمـة كانـت تلتهب حتما. ومن يُصَبْ بها يصبح مضطرا إلى السير كما لـو كانت عنده كرة فى قدمه (وهذا هو السبب فى المشية الغريبـة لجيش الدود الذى يعود للسير فى استعراض كل مساء)، وهـو يصل الأخير فى كل مكان، وفى كل مكان يتلقى الضربات، ولا يستطيع الهروب إذا ما تعقبوه، وتتـورم قـدماه، وكلمـا زادت انتفاخا أصبح الاحتكاك مع خشب وتيـل الأحذيـة لا يُحتمـل، وعندئذ لا يبقى هناك سوى المستشفى، ولكن دخول المستـشفى بتشخيص (أقدام منتفخة) خطير للغاية، لأن من المعروف تمامًا للجميع، وللشرطة السرية بصفة خاصة، أنه لا يمكن الشفاء هنا من هذا المرض.

وفى كل هذا، لم نشر حتى الآن إلى العمل، الـذى يُعَـدّ بدوره كومة متشابكة من القوانين، والمحرمات والمشكلات.

ونحن جميعا نعمل (وتعريف الآخـرين بأنـك مـريض ينطوى فى حد ذاته على حصيلة هائلة من المعارف والخبرات)، وفى كل صباح نخرج بنظام من المعسكر إلى مصنع بونا، وفى

كل مساء نعود فى نظام. وفيما يتعلق بالعمل، فإننا مقسمون إلى ما يقرب من مائتى قوة ، يتراوح عدد كل منها ما بين خمسة عشر إلى مائة وخمسين رجلا ويقودها قائد. وهناك قوات طبية وشريرة، وهى فى معظمها مخصصة للنقل، والعمل فيها شاق جدًا، وخصوصًا فى الشتاء، ليس إلا لأنه يتم فى العراء. وهناك أيضًا قوات من المتخصصين (عمال الكهرباء والحدادين والبنائين وعمال اللحام والميكانيكية وعمال الأسمنت، إلخ) وكل منهم ملحق بورشة أو قسم معين من مصنع بونا، وهم يتبعون بصورة مباشرة قائدا مدنيا، وهم غالبا من الألمان والبولنديين، وهذا يحدث بالطبع فقط فى ساعات العمل؛ ففى باقى النهار لا يلقى المتخصصون (الذين لا يزيد عددهم على ثلاثمائة أو أربعمائة فى مجموعهم) معاملة مختلفة عن العمال العاديين. وتشرف على توزيع الأفراد على مختلف الوحدات لجنة خاصة فى معسكر الاعتقال، تسمى إدارة المعسكر، وهى على اتصال مستمر مع الإدارة المدنية لمصنع بونا. وهذه اللجنة تقرر على أساس معايير غير معروفة، وغالبا على أساس حمايات ورشاوى، بحيث إذا استطاع أحدهم تدبير طعامه فإنه يكون أيضًا واثقا عمليا من الحصول على وظيفة جيدة فى مصنع بونا.

وتختلف مواعيد العمل باختلاف المواسم، فكل ساعات النهار ساعات عمل؛ ولذا فإنها تبدأ بجدول زمنى شتوى عند

الحد الأدنى (من الساعة ٨ – ١٢ ومن ١٢,٥– ١٦) إلى جدول زمنى صيفى عند الحد الأقصى (من الساعة ٦,٥ – ١٢ ومن ١٣ – ١٨). ولا يمكن للمحتجزين لأى سبب من الأسباب الوجود فى العمل فى ساعات الإظلام أو عندما يكون هناك ضباب كثيف، بينما يجرى العمل بانتظام حتى عند سقوط المطر أو الجليد أو عندما تهب الرياح العنيفة القادمة من جبال الكارباتسى (وهو ما يتكرر كثيرًا)، وهذا يتعلق بحقيقة أن الظلام أو الضباب يمكن أن يقدما الفرصة لمحاولات الهروب.

ويوم الأحد كل أسبوعين هو يوم عمل عادى، وفى أيام الآحاد التى تسمى بالعطلات الأسبوعية يعملون عادة فى صيانة معسكر الاعتقال بدلا من العمل فى مصنع بونا، بحيث تصبح أيام الراحة الفعلية نادرة للغاية.

هكذا ستكون حياتنا: كل يوم، طبقا للإيقاع المقرر، الخروج والدخول، الخروج والدخول، والعمل والنوم والأكل، والمرض، والشفاء أو الموت.

... وإلى متى؟ ولكن المسنين يضحكون على هذا السؤال؛ فهذا السؤال يتعلق بالمستجدين. يضحكون ولا يردون؛ فمشكلة الماضى البعيد قد توارت بالنسبة إليهم من شهور وسنين، وفقدت أى حدة فى المواجهة أمام مشكلات المستقبل القريب الأكثر

إلحاحا وواقعية: ماذا سيؤكل اليوم، ما إذا كان الجليد سيتساقط، وما إذا كان لا بد من تفريغ الفحم...

وإن كنا عقلانيين، فإننا يجب أن نستسلم لهذه الحقيقة، أن مصيرنا غير معروف تمامًا وأن أى تخمين يكون اعتباطيا ولا أساس له فعلا فى الواقع. ولكن البشر نادرا جدًّا ما يكونون عقلانيين، عندما يتعرض مصيرهم للخطر؛ فهم يفضلون على أى حال المواقف المتطرفة؛ ولهذا فإن البعض منا تبعا لطبعهم، اقتنعوا على الفور بأن كل شىء قد ضاع، وأنهم لا يستطيعون العيش هنا، وأن النهاية أكيدة وقريبة. وهناك الآخرون الذين يرون أن النجاة محتملة وليست بعيدة، على الرغم من قسوة الحياة التى تنتظرنا، وأننا إذا تحلينا بالإيمان والقوة، فإننا سنرى من جديد منازلنا وأحباءنا. وهاتان الفئتان من المتشائمين والمتفائلين لا يمكن التمييز بينهما بسهولة، ليس لأن "اللاأدريين" كثيرون، ولكن لأن الغالبية بلا ذاكرة ولا صدق مع أنفسهم، يتأرجحون بين هذين الموقفين المتطرفين، تبعا للمتحدث معهم واللحظة التى يتحدثون فيها.

ها أنا إذن على القاع، وسرعان ما يتعلم الإنسان كيف يمحو الماضى والحاضر، إذا اضطرته الحاجة إلى ذلك. وبعد خمسة عشر يوما، أشعر بالجوع بانتظام، الجوع المزمن الذى لا

يعرفه الرجال الأحرار، الذى يجعل الإنسان يحلم ليلا ويكمن فى جميع أعضاء أجسادنا. لقد تعلمت بالفعل ألا أعرّض نفسى للسرقة، وإن وجدت حتى ملعقة أو خيطا أو زرًّا يمكن أن أستولى عليه دون خطر العقاب، فإننى أضعه فى جيبى وأعتبره من حقى تمامًا. وقد ظهرت بالفعل على ظهر قدمَىَّ الثنيات الخدرة التى لن تشفى، فأنا أقوم بدفع العربات والعمل بالمجرفة وأتعب عند المطر وأرتجف عند هبوب الرياح، ولم يعد جسدى نفسه كما هو، فقد أصبح بطنى منتفخًا وأطرافى متخشبة، وأصبح وجهى منتفخا فى الصباح وغائرا فى المساء، وأصبح جلد البعض منا أصفر والبعض الآخر رماديًا، وعندما لا يرى كل منا الآخر لثلاثة أو أيام أربعة يصعب على كل منا التعرف على الآخر.

كنا قد قررنا أن نتقابل – نحن الإيطاليين – مساء كل أحد فى أحد أركان معسكر الاعتقال، ولكننا توقفنا على الفور، لأنه كان من المحزن جدًّا أن نعدَّ أنفسنا وأن نجد أنفسنا فى كل مرة أقل عددًا وأكثر تشوُّهًا وأكثر بؤسا. وكان من الصعب جدًّا القيام بهذه الخطوات القليلة، ثم إننا بعد ذلك عندما نلتقى، كان يحدث أن نتذكر ونفكر، وكان من الأفضل ألا نفعل ذلك.

فترة المستجَدين

بعد الأيام الأولى من التنقلات العشوائية من بلوك إلى آخر ومن قيادة إلى أخرى سُلمتُ فى ساعة متأخرة من المساء للبلوك ٣٠، ويشيرون علىَّ بالنوم فى سرير صغير ينام عليه "ديينا" بالفعل. ويستيقظ "ديينا"، وعلى الرغم من أنه كان منهكًا فإنه يفسح لى المكان ويستقبلنى بمودة.

أنا لا أشعر بالنعاس، أو بمعنى أصح كان نعاسى مقنَّعًا بحالة من التوتر والقلق لم أستطع حتى الآن التحرر منها، ولذا فإننى أتكلم وأتكلم.

إن لدى أمورا كثيرة أود أن أسأل عنها، فأنا أشعر بالجوع، ومتى سيقومون بتوزيع الحساء غدا؟ وكيف سأتمكن من تناوله دون ملعقة؟ وكيف يمكن الحصول على ملعقة؟ وأين سيرسلوننى إلى العمل؟ لم يكن ديينا يعلم أكثر منى بالطبع، وكان يرد علىَّ بأسئلة أخرى. وكانت هناك أصوات ناعسة وغاضبة من جميع أركان الكوخ المظلم، من أعلى ومن أسفل ومن قريب ومن بعيد، تصرخ فىَّ قائلة: هدوءًا! هدوءًا!

إننى أفهم أن الصمت مفروض علىّ، ولكن هذه الكلمة جديدة بالنسبة إلىَّ، وبما أننى لا أدرك معناها وتبعاتها، فإن قلقى

تزايد. وكانت فوضى اللغات عنصرا أساسيا فى طريقة الحياة هناك، وقد أحاط بنا خليط دائم من اللغات، يصرخ فيها الجميع بالأوامر والتهديدات بلغات لم نسمع بها قط من قبل، والويل لمن لا يفهم المعنى مباشرة. ولا أحد لديه وقت هنا، لا أحد يتحلى بالصبر، ولا أحد ينصت لك، ونحن - آخر الذين وصلوا - نجتمع تلقائيا فى الأركان، إلى جوار الحوائط، كما تفعل الأغنام، لكى نشعر بأن ظهورنا محمية فعليًا.

وأتخلى إذن عن توجيه الأسئلة، وفى فترة وجيزة أغوص فى سبات مرير ومتوتر. ولكنها لم تكن راحة؛ فأنا أشعر بأننى مهدد، وفى خطر، وفى كل لحظة أكون مستعدا للانكماش فى تقلص دفاعى. وأحلم، ويبدو لى أننى أنام فى شارع، على جسر، أمام باب يجىء ويذهب منه أناس كثيرون. وها هى اليقظة تأتى سريعا للأسف، وتهتز الثكنة بأسرها من جميع أركانها، وتضاء الأضواء ويضطرب الجميع حولى فى نشاط محموم مفاجئ؛ يقومون بتنفيض الأغطية فيثيرون سُحبًا من الغبار كريه الرائحة، ويرتدون ثيابهم بسرعة محمومة ويركضون إلى الخارج فى صقيع الهواء الخارجى وهم يرتدون نصف ملابسهم، ويهرولون نحو المراحيض وحوض الغسيل، وكثيرون منهم يبولون على أنفسهم بصورة حيوانية وهم يركضون لتوفير

الوقت، لأنه بعد خمس دقائق يبدأ توزيع الخبز، والخبز منطوق بكل اللغات، الكتلة الرمادية الصغيرة المقدسة التى تبدو عملاقة فى يد جارك وصغيرة فى يدك أنت مما يجعلك تبكى. إنه هذيان يومى، ينتهى الإنسان بالتعود عليه. ولكن الأمر فى الأيام الأولى كان لا يقاوَم، حتى إن كثيرين منا، بعد نقاش طويل بين كل اثنين منا حول سوء حظنا العاثر الواضح والدائم، والحظ المتبجح للآخرين، كانوا يتبادلون حصص الطعام، حتى أن الوهم عاد مقلوبًا ليترك الجميع غاضبين محبَطين.

والخبز أيضًا هو عملتنا الوحيدة، ففى الدقائق القليلة التى تمر بين التوزيع والاستهلاك، يضج البلوك بالنداءات والمشاجرات والهروب. إنهم مقرضو الأمس الذين يطالبون بالدفع، فى اللحظات القصيرة التى يكون فيها المَدين قادرًا على الوفاء بالدين. وبعد ذلك يسود هدوء نسبى، ويستغله الكثيرون فى الذهاب إلى المراحيض من جديد لتدخين نصف سيجارة، أو إلى المغسلة للاغتسال حقًا.

والمغسلة مكان غير جذاب؛ فهو سيِّئ الإضاءة، وملىء بتيارات الهواء، والأرضية المبنية من الطوب مغطاة بطبقة من الطين، والماء غير صالح للشرب، وله رائحة كريهة وغالبا ما يغيب لساعات طويلة. والجدران مزدانة برسوم جدارية غريبة،

فنرى على سبيل المثال السجين الطيب، مرسوما عاريـا حتـى خصره، وهو يغسل رأسه الحليقة والوردية بالصابون بنـشاط، والسجين الشرير، بأنفه المعقوف بشدة ولونه المائل للاخضرار، والذى يغمس بحذر إصبعه فى ماء الحوض وهو ملفـوف فـى ملابسه الملطخة بالبقع بصورة واضحة، والبيريه على رأسـه. وقد كُتب تحت الأول: (هكذا تكون نظيفا)، وتحت الثانى: (هكذا مصيرك الضياع)، وأسفل هذه الصور، وبلغة فرنـسية ركيكـة ولكن بأحرف قوطية: "النظافة هى القدسية".

وعلى الحائط المقابل تقبع قملة هائلـة بـاللون الأبـيض والأحمر والأسود، مع عبارة (القملة هـى موتـك) والمقطـع الشعرى المستلهم من ذلك:

Nach dem Abort, vor dem Essen
waschen, nicht vergessen Hände

(بعد المرحاض، وقبل الأكل، اغسل يديك، ولا تنسَ).

ولأسابيع طويلة، اعتُبرت هذه التحذيرات الصحية مجـرد سمات للروح الألمانية، فى أسلوب الحوار المتعلق بحزام الفتـق الذى استُقبلنا به عند دخولنا معسكر الاعتقال. ولكننى أدركـت بعد ذلك أن مؤلفيها المجهولين، وربما عن غير قصد، لم يكونوا بعيدين عن بعض الحقائق المهمَّة. والاغتسال كل يوم فى ميـاه

الحوض القذر العكرة بهدف النظافة والصحة لا جـدوى منـه للنظافة والصحة، ولكنه فى غاية الأهمية كعلامة على الحيويـة الباقية وضرورى للبقاء المعنوى.

ويجب أن أعترف بذلك: بعد أسبوع واحد مـن الـسجن اختفت عندى غريزة النظافة، وأتجول هائمًا فى المغسلة، وهـا هو شتاينلاوف، صديقى البالغ من العمر خمسين عامًا تقريبًـا، عارى الصدر، وهو يدعك رقبته وأكتافه دون نتيجة تُذكر (فليس معه صابون) ولكن بأقصى طاقته. شتاينلاوف يرانى ويحيينى، ودون مواربة يسألنى بقسوة لماذا لا أغتسل. ولماذا يتعين علـىّ أن أغتسل؟ هل سأكون فى حالة أفضل ممّا أنا فيه؟ هل سأعجب البعض أكثر؟ هل سأعيش يوما أو ساعة أكثر؟ ربما أعيش أقل، لأن الاغتسال عمل وتبديد للطاقة والحرارة. ألا يعلم شتاينلاوف أن كل اختلاف بينى وبينه سيختفى بعد نـصف سـاعة عنـد جوالات الكربون؟ وكلما فكرت فى ذلك، بدا لى أن غسل الوجه فى ظروفنا يُعَدّ عملا أخرق، بل تافها، عادة ميكانيكية، أو ما هو أسوأ من ذلك، تكرارا كئيبا لعادة مندثرة. إننا سنموت جميعًـا، ونحن نوشك على الموت، وإذا بقيت عندى عشر دقـائق بـين الاستيقاظ والعمل فإننى أريد أن أخصصها لـشىء آخـر، وأن أنغلق على نفسى، وأستخلص النتائج، أو ربما للنظر إلى السماء

والتفكير فى أننى ربما أراها للمرة الأخيرة، أو حتى لكى أدع نفسى أعيش، وأمنح نفسى ترف الكسل لفترة وجيزة.

ولكن شتاينلاوف يقاطعنى باستمرار. لقد انتهى من الاغتسال، والآن يقوم بتجفيف نفسه بالسترة التيل التى كان يحتفظ بها من قبل ملفوفة بين ركبتيه والتى سيلبسها بعد ذلك، ودون أن يتوقف عن العمل يلقننى درسا بمعنى الكلمة.

لقد نسيت الآن، وأتألم لذلك، كلماته المباشرة والواضحة، كلمات شتاينلاوف الذى كان رقيبا فى الجيش النمساوى الهنغارى، الصليب الحديدى فى حرب ١٤-١٨. أتألم لذلك، لأنه سيتعين علىّ أن أترجم لغته الإيطالية غير الواثقة وحديثه المسطح كجندى جيد إلى لغتى كإنسان غير مصدق. ولكن هذا هو معنى ما حدث، وهو ما لم أنسه آنذاك ولا بعد ذلك: بما أن معسكر الاعتقال هو بالفعل آلة كبيرة لتحويلنا إلى حيوانات، لا يجب أن نصبح حيوانات، وأننا يمكننا أيضًا فى هذا المكان أن نبقى على قيد الحياة، لكى نروى ونحمل شهادتنا، وأننا لكى نعيش فإن من المهم أن نجتهد لكى ننقذ هيكلنا العظمى، وهيكل وشكل الحضارة، وأننا محرومون من كل حق ومعرضون لكل إهانة، ومكتوب علينا موت محقق تقريبا، ولكن قدرة واحدة بقيت لنا ويجب أن ندافع عنها بكل قوة لأنها الأخيرة: القدرة على

إنكار موافقتنا. ولهذا فإننا يجب بالطبع أن نغسل وجهنا بلا صابون، فى الماء القذر، ونجفف أنفسنا فى سترتنا، ويجب أن ندهن أحذيتنا باللون الأسود، ليس لأن التعليمات تقضى بهذا ولكن من أجل الكرامة والنظافة. ويجب أن نسير فى خط مستقيم، دون الترحيف بكعوب الأحذية، ليس تقديرا للنظام البروسىّ (الألمانى)، ولكن لكى نظل أحياء، لكى لا نبدأ فى الموت.

هذه الأشياء قالها لى شتاينلاوف، وهو رجل ذو إرادة قوية، أشياء غريبة على سمعى الذى لم يعتد ذلك، وقد فهمتها وقبلتها جزئيا فقط. وقد خفف من وطأتها مذهب أكثر سهولة ومرونة ووداعة، وهو المذهب الذى يتنفسه الناس منذ قرون فى ظل جبال الألب، والذى يرى فى الوقت نفسه أنه لا توجد خيلاء أكبر من الاجتهاد لازدراد أنظمة أخلاقية بأسرها، أعدَّها آخرون، تحت سماء أخرى. لا، إن حكمة شتاينلاوف وفضيلته، اللتين تناسبانه هو بالطبع، لا تكفياننى أنا. وأمام هذا العالم السفلى المعقد كانت أفكارى مضطربة؛ هل سيكون من الضرورى فعلا إعداد نظام وتطبيقه؟ ألن يكون من الأصح أن ندرك أننا لا نمتلك نظامًا؟

العيادة

إن الأيام تتشابه كلها، وليس من السهل إحصاؤها. منذ أيام عديدة ونحن نقوم بحركة مكوكية، اثنين اثنين، من السكة الحديدية إلى المخزن: ما يقرب من مائة من الأمتار من التربة التي يذوب جليدها. إلى الأمام تحت وطأة الحمولة، وإلى الخلف وأذرعنا مسدلة بطول جنبينا، دون أن نتكلم.

وكان كل شيء حولنا معاديا لنا؛ فوقنا تسير السحب اللعينة لتحجب عنا الشمس، ومن كل جانب تضغطنا كآبة الحديد في العمل. إن حدوده لم نرها قط، ولكننا نشعر في كل ما حولنا بالوجود الشرير للأسلاك الشائكة التي تفصلنا عن العالم، وعلى السقالات، على القطارات المتحركة في الشوارع، في المحاجر، في المكاتب، رجال ورجال، عبيد وسادة، والسادة عبيد هم أنفسهم، الخوف يحرك هؤلاء والكراهية تحرك أولئك، وتصمت أي قوة أخرى. الكل أعداء لنا أو منافسون.

لا، إنني لا أشعر في الحقيقة، في رفيق اليوم هذا، الذي يرزح اليوم معي تحت الحمل نفسه، بأنه عدو أو خصم.

إنه صفر ثمانية عشر، ولا يمكن أن يُسمَّى إلاَّ هكذا، صفر ثمانية عشر، الأرقام الثلاثة الأخيرة من رقم قيده، كما لو أن كل

إنسان قد أدرك أن الإنسان وحده هو الجدير بأن يكون له اسم، وأن صفر ثمانية عشر لم يعد بعد إنسانا. أعتقد لأنه هو نفسه قد نسى اسمه، ومن المؤكد أنه يتصرف كما لو كان الأمر كذلك. عندما يتحدث وعندما ينظر، يعطى الانطباع بأنه خاوٍ داخليا، ولا يعدو أن يكون قشرة خارجية، مثل جلود بعض الحشرات الموجودة على شاطئ المستنقعات، والملتصقة بخيط بالحصى، وتهزها الرياح.

وصفر ثمانية عشر شاب جدًا، وهو ما يمثل خطرًا جسيمًا، ليس فقط لأن الشباب يتحملون بصورة أسوأ من الكبار المشاق والصيام، ولكن لا بد هنا بصفة خاصة، للبقاء على قيد الحياة، من تدريب طويل على صراع كل واحد ضد الجميع، وهو ما لا يمثله الشباب فى معظم الأحيان. وصفر ثمانية عشر ليس ضعيفا بصورة خاصة، ولكن الجميع يهربون من العمل معه. وعلى هذا فإن كل شيء يستوى عنده حتى أنه لم يعد يأبه بتجنب التعب والضربات والبحث عن الطعام. إنه ينفذ جميع الأوامر التى يتلقاها، ومن المتوقع أنهم عندما يرسلونه إلى الموت، سيذهب إليه بهذه اللامبالاة التامة نفسها.

وهو لا يمتلك الخبث البدائي عند الخيل التى تجر العربات، والتى تتوقف عن الجر قُبيل أن تخور قواها تمامًا،

ولكنه يجر أو يحمل أو يدفع ما دامت قواه تسمح له بــذلك، ثــم يستسلم فجأة، دون كلمة تحذير واحــدة، ودون أن يرفــع عــن الأرض عينيه الحزينتين والمعتمتــين. إنــه يــذكرنى بكــلاب الزحافات فى كتب لندن، الذين يتعبون حتى آخر نفس ويموتون على الممر.

والآن، بما أننا جميعا نحاول بكل وسيلة أن نبتعــد عــن التعب، فإن صفر ثمانية عشر هو الذى يعمل أكثر من الجميــع، ولهذا، ولأنه زميل خطير فلا يوجد أحد يريد العمل معه، وبمــا أنه لا أحد يريد العمل معى فى الوقت نفــسه، لأننــى ضــعيف وأخرق، فإننا غالبا ما نجد أنفسنا متلازمين.

وبينما كنا عائدين من المخزن مرة أخرى، وأيدينا خاوية، ونحن نجر أقدامنا، صفرت قاطرة صفارة قصيرة وقطعت علينا الطريق. وقد سُررنا للتوقف الإجبارى، ولذا فإن صفر ثمانيــة عشر وأنا توقفنا، وانتظرنا بظهورنا المنحنية وملابسنا الممزقة أن تنتهى العربات من المرور أمامنا ببطء.

السكك الحديدية الألمانية. الــسكك الحديديــة الألمانيــة.. SNCF عربتان روسيتان عملاقتان، وقد مُسحت عنهما صــورة المنجل والمطرقة بصورة سيئة. السكك الحديدة الألمانية. ثم بعد ذلك الخيول ٨، الرجال ٤٠، وزن العربة وهى فارغة، القــوة،

عربة إيطالية... الصعود إلى داخلها فى ركن من الأركان، مختبئا جيدًا تحت الكربون، والبقاء ساكنا وصامتا فى الظلام، والاستماع دون توقف لإيقاع القضبان، الأقوى من الجوع والتعب... حتى يتوقف القطار فى لحظة معينة وأشعر بالهواء الدافئ ورائحة التبن، ويمكننى أن أخرج إلى الخارج، إلى الشمس، وعندئذ قد أنام على الأرض، وأقبّل الأرض، كما نقرأ فى الكتب، ووجهنا فى العشب. وربما تمر امرأة، وقد تسألنى "من أنت؟" باللغة الإيطالية، وربما أروى لها باللغة الإيطالية، وقد تفهمنى، وقد تقدم لى بعض الطعام ومكانا للنوم، وقد لا تصدق الأشياء التى أقولها، وقد أكشف لها عن الرقم الذى أحمله على ذراعى، وعندئذ قد تعتقد...

... لقد انتهى الأمر ومرت العربة الأخيرة، وكما يحدث عند ارتفاع ستارة، نجد أمام أعيننا كومة من دعامات الحجر الزهر، والرئيس واقفا على كومة ومعه قطعة من الحديد فى يده، والزملاء القليلين الذين يأتون ويذهبون، اثنين اثنين.

الويل لك إن حلمت؛ إن لحظة الوعى التى تصاحب اليقظة هى المعاناة الأشد، ولكن هذا لا يحدث لنا غالبا، وهى ليست أحلاما طويلة، نحن لسنا سوى حيوانات متعَبة.

ومرة أخرى نكون عند أسفل الكومة، ويرفع ميشا وجليتسيانو دعامة ويضعانها بلا ذوق على أكتافنا. ووظيفتهما هى الأقل عناء، ولذا فإنهما يتظاهران بالنشاط للاحتفاظ بها؛ يناديان الزملاء الذين يتباطئون، يحثون ويشجعون ويفرضون على العمل إيقاعا لا يمكن احتماله، وهذا يملؤنى بالاستياء، كما أننى أعلم الآن أن من طبيعة الأشياء أن يُقمع المتميزون غير المتميزين، وعلى هذا القانون الإنسانى يقوم البناء الاجتماعى للمعسكر.

فى هذه المرة يتعين علىَّ السير قدما، والدعامة ثقيلة ولكنها قصيرة جدًّا، ولذا فإننى أشعر عند كل خطوة، ورائى، بأقدام صفر ثمانية عشر التى تصطدم بأقدامى، لأنه غير قادر، أو لا يُعنَى باتباع خطوتى.

وبعد عشرين خطوة، وصلنا إلى رصيف القطار، وهناك كابل لا بد من تجاوزه. ولم تكن الحمولة موضوعة جيدًا، كان هناك أمر ما خطأ، فقد كانت تميل إلى الانزلاق عن الكتف. خمسون خطوة، ستون، باب المخزن، ولا تزال أمامنا مسيرة مماثلة وسوف نضعها بعد ذلك. كفى، من المستحيل الذهاب إلى أبعد من ذلك، فالحمولة تضغط الآن بالكامل على ذراعى؛ لا يمكننى أن أتحمل طويلا الألم والتعب، وأصرخ وأحاول

الالتفاف، بالكاد فى الوقت المناسب لكى أرى صفر ثمانية عشر يتعثر ويلقى بكل شىء.

لو كنت لا أزال أتمتع برشاقتى القديمة، لاستطعت القفز إلى الوراء، ولكن ها أنا على الأرض، وكل عضلاتى متقلصة، والقدم المصابة أضغط عليها بيدى، وأنا لا أرى من الألم. فقد أصابتنى حافة الحديد الزهر إصابة قطعية فى ظهر قدمى اليسرى.

وللحظة واحدة يتلاشى كل شىء وسط دوار الألم. وعندما أتمكن من النظر حولى، أجد أن صفر ثمانية عشر لا يزال هناك واقفا، ولم يتحرك، ويداه داخلتان فى أكمامه، دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وهو ينظر إلىّ دون أى تعبير على وجهه. ويصل ميشا وجاليتسيانو، ويتحدثان فيما بينهما بالعبرية، ويقدمان لى بعض النصائح. ويصل تيمبلر وديفيد وكل الآخرين، ويستغلون الارتباك للتوقف عن العمل. ويصل الرئيس، ويقوم بتوزيع بعض الركلات واللكمات والشتائم، ويتفرق الزملاء مثل قشر قمح تذروه الرياح، ويرفع صفر ثمانية عشر يده نحو أنفه وينظر إليها فى خمول وهى ملطخة بالدماء. ولم يكن من نصيبى أنا سوى صفعتين على الرأس، من تلك الصفعات التى لا تؤلم لأنها تصيب الإنسان بالصمم.

انتهت هذه الحادثة، وأستنتج على أى حال أننى أستطيع الوقوف على قدمى، ولا بد أن العظام لم تُكسر. ولا أجرؤ على خلع الحذاء خشية إيقاظ الألم من جديد، ولأننى أعلم أيضًا أن القدم ستنتفخ بعد ذلك ولن أتمكن من إدخالها فى الحذاء مرة أخرى.

ويرسل الرئيس إلىّ لكى أحل محل جاليتسيانو فى الكومة، ويذهب ليأخذ مكانه إلى جانب صفر ثمانية عشر، وهو ينظر إلىّ شزرا، ولكن السجناء الإنجليز يمرون الآن، وسرعان ما ستجىء ساعة العودة إلى المعسكر.

وفى أثناء السير أحاول جاهدا السير مسرعا، ولكننى لا أتمكن من ضبط الخطوة؛ ويقوم الرئيس بتعيين صفر ثمانية عشر وفيندر ليقوما بمساندتى حتى المرور أمام الشرطة السرية، وأخيرا أصل إلى الكوخ وأتمكن من إلقاء نفسى على السرير والتنفس (ولحسن الحظ لا يوجد نداء فى هذا المساء).

ربما كانت الحرارة، وربما تعب المسير، ولكن الألم استيقظ مرة أخرى، مع شعور غريب بالرطوبة فى القدم الجريحة. أقوم بخلع الحذاء. كان مليئا بالدماء، وقد تجلط الآن واختلط بالطين وبقصاصات الخرقة التى عثرت عليها منذ شهر

مضى والتى أستخدمها كخرقة للأرجل، يوما على اليمين ويوما على الشمال.

هذا المساء، عقب الحساء مباشرة سأذهب إلى كا – بى.

وكا – بى هو اختصار كلمة Krankenbau، حجرة التمريض، وهى ثمانية أكواخ، تشبه فى كل شىء الأكواخ الأخرى فى المعسكر، ولكن تفصلها عنها شبكة معدنية. وهى تضم بصورة دائمة عُشر سكان المعسكر، ولكن قليلا من الأشخاص يقيمون فيها لأكثر من أسبوعين، ولا أحد أكثر من شهرين. وخلال هذه الحدود لا بد لنا أن نموت أو أن نشفى، ومن يَمِلْ إلى الشفاء، يُعالج فى حجرة التمريض. ومن يَمِلْ إلى تدهور حالته، يرسل من حجرة التمريض إلى غرف الغاز.

كل هذا لأننا، لحسن حظنا، ننتمى إلى فئة "اليهود المفيدين اقتصاديا".

وأنا لم أذهب قط إلى حجرة التمريض، ولا حتى إلى العيادة، وكل شىء هنا جديد بالنسبة إلىَّ.

وهناك عيادتان: طبية وجراحية. وأمام الباب، فى الليل وفى الرياح، هناك طابوران طويلان من الظلال. البعض يحتاج فقط إلى ضمادة أو إلى بعض الأقراص، وهناك آخرون يطلبون زيارة طبية، وهناك من يرتسم الموت على وجهه. الواقفون فى

الصفين الأولين حفاة ومستعدون للدخول، والآخرون كلما اقترب دورهم فى الدخول بالتدريج، يجتهدون، وسط الزحام، لفك الأربطة المؤقتة وأسلاك الأحذية وفك الشاش الثمين عن الأقدام، دون تمزيقه، وليس بسرعة كبيرة، لكى لا يظلوا فى الوحل حفاة الأقدام، وليس متأخرا جدًا لكى لا يضيع عليهم الدور فى الدخول، لأن دخول حجرة التمريض بالأحذية ممنوع بصورة صارمة. والقائم على الالتزام بالحظر معتقل فرنسى عملاق، يقيم فى الكوخ الواقع بين بابَى العيادتين، وهو واحد من الموظفين الفرنسيين القليلين فى المعسكر. ولا يمكن أن نفكر فى أن قضاء النهار بين الأحذية الموحلة والممزقة يمثل ميزة صغيرة، ويكفى أن نفكر فى من يدخلون حجرة التمريض بالأحذية، ويخرجون منها دون الحاجة إليها بعد ذلك...

وعندما يجيء دورى، أتمكن بأعجوبة من خلع الحذاء والخرق البالية دون أن أفقد هذه أو تلك، ودون أن تُسرق منى القصعة ولا القفازات، ودون أن أفقد التوازن وأنا أقبض بيدى دائمًا على البيريه، الذى لا يمكن لأى سبب الاحتفاظ به على الرأس عندما ندخل الأكواخ.

أترك الأحذية فى المخزن وأسحب الإيصال المتعلق بها، وبعد ذلك يُسمح لى بالدخول، حافيا وأنا أعرج، ويداى مكبلتان

بكل حوائجى المسكينة التى لا أستطيع تركها فـــى أى مكـــان، وأقف فى طابور جديد يبدأ عند صالة الكشف.

وفى هذا الطابور يخلع الناس ملابسهم بالتدريج، وعنـــدما يصلون نحو الرأس، لا بد أن يكون الشخص عاريا لأن ممرضا يدس ترمومترا تحت الإبط، وإذا كان الشخص مرتديا ملابـــسه يفقد دوره ويعود للوقوف فى الطابور مرة أخرى. والجميع يجب أن يأخذوا الترمومتر، حتى ولو كانوا يعانون فقط من الجرب أو ألم الأسنان.

وبهذه الطريقة نتأكد من أن الذى ليس مريـــضا بـــصورة خطيرة لن يتحمل من تلقاء نفسه هذه الطقوس المعقدة.

ويصل دورى فى النهاية: يُسمح لى بالوقوف أمام الطبيب، ويقوم الممـــرض بنـــزع الترمـــومتر وهـــو يخبرنـــى: رقـــم «١٧٤٥١٧، لا توجد حمى». وبالنسبة إلىَّ لا حاجة إلى زيارة طبية متعمقة، وعلى الفور يعلنون أننـــى Arztvormelder، ولا أدرى ماذا يعنى هذا، وليس هذا بالطبع المكان المناسب لطلـــب تفسيرات، وأجد نفسى مستبعَدا، وآخذ حذائى وأعود إلى الكوخ.

ويقوم حاييم بتهنئتى؛ فعندى جرح خفيف ولا يبدو خطيرا؛ وهو يضمن لى فترة معقولة من الراحة. وسأمضى الليـــل فـــى الكوخ مع الآخرين، ولكن صباح الغد، بدلا من الـــذهاب إلـــى

العمل، لا بد أن أعرض نفسى مرة أخرى على الأطباء لإجراء الكشف النهائى، وهذا معنى كلمة Arztvormelder. وحاييم خبير بهذه الأمور، ويعتقد أننى يُحتمل أن أُقبل غدا فى العيادة. وحاييم هو زميلى فى السرير، وأنا أثق فيه ثقة عمياء، وهو بولندى، ويهودى متدين، ودارس للقانون، ونقريبًا فى سنى، وحرفته ساعاتى، وهنا فى "بونا" يعمل ميكانيكيا للأجهزة الدقيقة؛ ولذا فإنه من القليلين الذين يحتفظون بالكرامة والثقة بالنفس التى تتولد من ممارسة فن يتقنه الإنسان.

وهكذا كان، وبعد الاستيقاظ والخبز استدعونى فى الخارج مع ثلاثة آخرين معى فى الكوخ، وقد نقلونا إلى ركن فى ميدان "النداء"، حيث كان هناك طابور طويل، كلهم "كشف نهائى" اليوم، وجاء شخص أخذ منى القصعة والملعقة والبيريه والقفاز. وقد ضحك الآخرون، ولم أكن أعلم أنه كان يجب علىّ إخفاؤها أو تركها مع شخص ما أو بيعها، وهذا أفضل من كل شىء، وأنه لا يمكن حملها فى حجرة التمريض. ثم ينظرون إلى رأسى ويهزون رؤوسهم؛ فشخص يحمل هذا الرقم الكبير يمكن أن نتوقع منه أى بلاهة.

ثم أحصونا، وجعلونا نخلع ملابسنا فى الخارج فى البرد، ونزعوا أحذيتنا، وأحصونا مرة أخرى، وحلقوا لحانا وشعرنا

والشعر الخفيف، وأحصونا مرة أخرى، وجعلونا نستحم تحت الدش، ثم جاء أحد رجال الشرطة السرية، ونظر إلينا دون اكتراث، وتوقف أمام واحد كان عنده تجمع مائى كبير حول الخصية، فنحّاه جانبا. وبعد ذلك أحصونا مرة أخرى وجعلونا نستحم مرة أخرى تحت الدش، على الرغم من أننا كنا لا نزال مبتلين من الدش الأول وكان البعض يرتعش من الحمى.

والآن نحن مستعدون للكشف النهائى. وخارج النافذة كنا نرى السماء البيضاء، والشمس فى بعض الأحيان، وفى هذه البلاد يمكن أن نحدق النظر إليها، من خلال السحاب، وكذلك من خلال زجاج فيميه. ويبدو من موقعها، أن الساعة لا بد أن تكون قد جاوزتِ الثانية بعد الظهر؛ وداعا للحساء إذن ونحن واقفون منذ عشر ساعات وعراة منذ ست ساعات.

كانت هذه الزيارة الطبية الثانية أيضًا سريعة بصورة فائقة؛ كان الطبيب يرتدى ثوبا مخططا مثلنا، ولكنه كان يرتدى فوقه معطفا أبيض، ويحمل رقما مثبتا بالخياطة على المعطف، وهو أكثر بدانة منا بكثير، وقد نظر إلى قدمى المنتفخة والدامية وتحسسها، وعندها صرخت من الألم، ثم قال بعد ذلك: «Aufgenommen، بلوك ٢٣». وقد بقيت هناك فاغرًا فمى، انتظارا لتعليمات أخرى، ولكن بعضهم جذبنى بوحشية إلى

الخلف، وألقى على أكتافى العارية معطفا، وقــدم لـــى صـــندلا وطردنى إلى العراء.

على بعد مائة متر تقريبًا كان هناك البلــوك ٢٣، وكـــان مكتوبا عليه من أعلى "Schonungsblock"! من يدرى ماذا يعنى هذا؟! وفى الداخل ينزعون منى المعطف والصندل، وأجد نفسى مرة أخرى عاريا والأخير فى طابور مـــن الهياكـــل العظميـــة العارية الذين دخلوا اليوم.

منذ وقت طويل توقفت عن محاولة الفهم، وبالنسبة إلـــىَّ، أصبحت الآن متعَبًا جدًّا ولا أستطيع الوقوف على قدمى الجريحة التى لم تعالَج بعد، وأنا جائع جدًّا والبرد يملؤنى، ولم يعد يهمنى شىء. وهذا يمكن أن يكون بالفعل آخر أيامى، وهـــذه الغرفـــة، غرفة الغاز التى يتحدث عنها الجميع، ماذا يمكن أن أفعل فيها؟ يجدر بى أن أستند إلى الحائط وأغمض عينَىَّ وأنتظر.

إن جارى لا يمكن أن يكون يهوديا؛ فهو لم يخضع لعملية الطهور، ثم إن بشرة شقراء على هذا النحـــو ووجهـــا وبنيـــة جسمانية بهذه القوة هى من خصائص البولنديين من غير اليهود (وهذا من الأشياء القليلة التى تعلمتها حتى الآن)، فهـــو أطـــول منى بكل رأسه، ولكن له ملامح ودية إلى حد ما، كما هو الحال فقط مع أولئك الذين لا يعانون من الجوع.

وقد حاولت أن أسأله ما إذا كان يعلم متى سيسمحون لنا بالدخول، وقد توجه هو إلى الممرض، الذى يشبهه كتوأمه ويجلس فى أحد الأركان وهو يدخن، وقد تحدثا وضحكا معًا دون أن يجيبا، كما لو كنت أنا غير موجود، ثم أمسك أحدهما بذراعى ونظر إلى الرقم، وعندئذٍ ضحكا بصوت أعلى. الجميع يعلمون أن المائة والأربعة والسبعين ألفا هم اليهود الإيطاليون؛ فاليهود الإيطاليون، الذين وصلوا منذ شهرين، هم جميعا من المحامين والدكاترة، وكانوا أكثر من مائة، والآن لم يبق منهم سوى أربعين، أولئك الذين لا يستطيعون العمل ويتركون الآخرين يسرقون الخبز منهم ويتعرضون للصفعات من الصباح إلى المساء، والألمان يطلقون عليهم اسم (اليدان اليسريان)، وحتى اليهود البولنديون يحتقرونهم لأنهم لا يستطيعون التحدث باللهجة اليبدية.

ويشير الممرض إلى ضلوعى وهو يتحدث مع الآخر، كما لو كنت جثة فى غرفة التشريح، ويشير إلى الجفون والوجنات المنتفخة وإلى العنق الرفيع، وينحنى ويضغط بسبابته على مؤخرة قدمى ويوضح للآخر التجويف العميق الذى يتركه الإصبع فى اللحم، كما فى الشمع.

كنت أود لو أننى لم أوجه الكلام للبولندى، يبدو لى أننى لم أتعرض قط فى حياتى كلها لإهانة أشد قسوة من ذلك، وفى

الوقت نفسه يبدو أن الممرض قد انتهى من بيانه، بلغته التـــى لا أفهمها وتبدو رهيبة لى، ويتوجه إلىّ، بشىء من الإحسان، ويقدم لى خلاصة ذلك: أنت يهودى ميت، أنت قريبا فـــى المحرقـــة، انتهى.

وقد مرت بضع ساعات أخرى قبل أن يؤخذ كل المقيمين بالقوة، ويتلقوا القميص وتُملأ بطاقتهم، وأنا، كما هـــى العـــادة، كنت الأخير، وقد سألنى شخص يرتدى لباســـا جديـــدا تمامًـــا مخططا بخطوط عريضة، أين ولدت، وماذا كانت حرفتى "وأنا مدنى"، وما إذا كان عندى أبناء، وما الأمراض التـــى عانيـــت منها... كمية من الأسئلة، فيم يمكن أن تفيد؟! هـــذه مـــسرحية معقدة للسخرية منا. هل هذه هى المستشفى؟ يوقفوننـــا عرايـــا ويوجهون لنا الأسئلة.

وأخيرا فُتح الباب لى أنا أيضًا، واستطعت دخول عنبـــر النوم.

وهنا أيضًا كما فى كل مكان، أسرّة من ثلاثة طوابق، فى ثلاثة صفوف فى كل الثكنة، يفصل بينها ممـــران فـــى غايـــة الضيق. الأسرّة مائة وخمسون، والمرضى مائتـــان وخمـــسون، وبالتالى فإن هناك اثنين تقريبًا فى كل سرير. ومرضى الأســـرّة

العليا، مسحوقون تحت السقف، ولا يستطيعون الجلوس تقريبا، ويبرزون في فضول ليروا الواصلين الجدد اليوم، وهذه أهم لحظة في اليوم، ودائمًا ما تجد بعض المعارف. وقد خُصِّص لي السرير رقم ١٠، معجزة! إنه خالٍ. أتمدد في لذة؛ فهذه هي المرة الأولى، منذ أن جئت إلى المعسكر، التي أحصل فيها على سرير كله لي. وعلى الرغم من الجوع لا تمر عشر دقائق إلا وكنت مستغرقًا في النوم.

إن حياة العيادة هي حياة النسيان، والمتاعب المادية قليلة نسبيا، باستثناء الجوع والآلام المرتبطة بالأمراض، فالجو غير بارد، ولا نعمل ولا نتعرض للضرب، إلا إذا ارتكبنا بعض المخالفات الجسيمة.

المنبه على الساعة الرابعة، حتى بالنسبة إلى المرضى، ولا بد من ترتيب السرير والاغتسال، ولكن هناك عجلة شديدة وصخبًا كثيرًا. وفي الخامسة والنصف يقومون بتوزيع الخبز، ويمكن تقطيعه بسهولة لقطع رقيقة، والأكل ونحن متكئون بكل هدوء، ثم يمكن أن ننام من جديد، حتى توزيع حساء منتصف النهار، حتى الساعة الرابعة راحة بعد العصر، وفي هذه الساعة غالبا ما تكون هناك الزيارة الطبية والعلاج، ولا بد من النزول من الأسرَّة، وخلع القميص والوقوف في طابور أمام الطبيب.

والوجبة المسائية أيضًا تُوَزَّع فى الأسرَّة، وبعدها، فى التاسعة مساء، تطفأ كل الأنوار باستثناء المصباح الصغير الغائم للحارس الليلى، ويسود الصمت.

...وللمرة الأولى منذ أن دخلت المعسكر، يفاجئنى المنبه فى عز النوم، واليقظة هى عودة من اللاشىء. وعند توزيع الخبز نسمع بعيدا، خارج النوافذ، فى الجو المظلم، الفرقة التى تبدأ فى العزف: إنهم الزملاء الأصحاء الذين يخرجون منظمين من العمل.

ومن العيادة لا تُسمع الموسيقى جيدًا، وتصل بانتظام وبصورة رتيبة أصوات الطبل والأطباق النحاسية، ولكن الجمل الموسيقية على هذا المنوال ترتسم فقط على فترات متقطعة، مع مداعبة الرياح. ولا ينظر أى منا إلى الآخر من أسرّتنا، لأننا جميعا نشعر بأن هذه الموسيقى جهنمية.

والنغمات قليلة، ما يقرب من اثنتى عشرة، وكل يوم الجلسات نفسها، صباحا ومساء؛ مارشات وأغانى شعبية عزيزة على كل ألمانى. وهى محفورة فى أذهاننا، وستكون الشىء الأخير فى معسكر الاعتقال الذى سننساه والتعبير الملموس لجنونه الهندسى وعزم الآخرين على القضاء علينا أولاً كبشر ثم قتلنا بعد ذلك ببطء.

وعندما تُعزف هذه الموسيقى، نعرف أن زملاءنا، في الخارج في الضباب يبدءون السير مثل الإنسان الآلى؛ فأرواحهم ماتت، وتدفعهم الموسيقى كما تدفع الرياح الأوراق الجافة، وتحل محل إرادتهم. لم تعد هناك إرادة؛ فكل نبضة تصبح خطوة وتقلصا منعكسا للعضلات المنهكة. لقد نجح الألمان في ذلك. إنهم عشرة آلاف، وهم آلة واحدة رمادية، وهم حازمون تماما؛ لا يفكرون ولا يريدون، ويسيرون.

وفى مسيرة الخروج والدخول لا يغيب أبدا رجال الشرطة السرية. من يمكن أن ينكر عليهم الحق فى حضور هذا التلحين الإيقاعى الذى أرادوه، على رقص الرجال المنطفئين، فرقة بعد فرقة، خروجا من الضباب نحو الضباب، كدليل ملموس على انتصارهم؟

وأولئك الذين يعيشون فى العيادة أيضًا يعرفون هذا الخروج والعودة من العمل، والتنويم المغنطيسى للإيقاع الذى لا ينتهى، والذى يقتل الفكر ويخفف الألم. لقد جربوا ذلك، وسيجربونه مرة أخرى. ولكن كان لا بد من الخروج من السحر وسماع الموسيقى من الخارج، كما كان يحدث فى العيادة وكما نعيد التفكير فيه الآن، بعد التحرير والنهضة، دون أن نستجيب لذلك، ودون أن نتعرض له، لكى نفهم ماذا كان؛ لكى نفهم لأى

سبب غير مباشر خلق الألمان هذه الطقوس الرهيبة، ولماذا حتى اليوم عندما تعيد الذاكرة إلينا بعض تلك الأغنيات البريئة، تتوقف الدماء فى عروقنا، وندرك أن العودة من أوشفيتز لم تكن فرصة صغيرة.

هناك جاران لى فى الأسرَّة، ينامان طوال النهار وطوال الليل جنبا إلى جنب وبشرتاهما متقابلتان، ومتقاطعين مثل أسماك برج الحظ، بحيث تقع قدما كل منهما بجوار رأس الآخر.

أحدهما هو فالتر بون، وهو هولندى مدنى ومثقف إلى حد ما، ويرى أننى لا أملك شيئا لقطع الخبز، ويسلفنى سكينه، ثم يعرض علىّ بيعه بنصف وجبة من الخبز، وأناقشه على السعر، بعد ذلك أصرف النظر عن الموضوع، وأفكر فى أننى هنا فى العيادة سأجد دائمًا سكينا أستعيرها، وهى فى الخارج تساوى ثلث الوجبة. وليس لهذا السبب يقلل فالتر من ترحيبه، وعند الظهر بعد تناول الحساء يلعق الملعقة بشفتيه (وهى قاعدة جيدة قبل إقراضها، لتنظيفها ولكى لا يبدد آثار الحساء التى تلتصق بها) ويقدمها لى بتلقائية.

«ما المرض الذى تشكو منه يا فالتر؟»، وهن عضوى، أسوأ مرض؛ فلا يمكن علاجه، ومن الخطر جدًا دخول العيادة بهذا التشخيص. ولو لم يكن بسبب الاستسقاء فى كاحليه (وقد

أراهما لى) الذى يمنعه من الخروج إلى العمل، لتجنب إدخالـــه المستشفى تمامًا.

وحول هذا النوع من الأخطار لا تزال لدى أفكار مختلطة جدًّا، فالجميع يتحدثون عـــن ذلـــك بـــصورة غيـــر مباشـــرة، بالتلميحات، وعندما أوجه أنا بعـــض الأســـئلة ينظـــرون إلـــىّ ويلتزمون الصمت.

فهل هو حقيقى إذن ما نسمعه، عن عمليات الانتقاء والغاز والمحرقة؟

المحرقة. يستيقظ الآخر، جار فـــالتر، فجـــأة، وينتـــصب قاعدا: «من يتحدث عن المحرقة؟ ماذا يحـــدث؟ ألا يمكـــن أن نترك من ينام فى سلام؟» إنه يهودى ألمانى، ناصـــع البـــشرة، وجهه هزيل وطيب، ولم يعد شابا. اسمه شموليك، ويعمل حدادا. ويخبره فالتر باختصار.

أهكذا لا يؤمن الإيطالى بعمليات الانتقاء؟ شـــموليك يـــود التحدث بالألمانية ولكنه يتحدث باليدية؛ وأفهمه بصعوبة لأنـــه فقط يريد توضيح ما يقول. ويُسكت فالتر بإشارة منه وســـيتولى هو إقناعى:

- «أرِنى رقمك، أنت ١٧٤٥١٧. إن هذا الترقيم بدأ منـــذ ثمانية عشر شهرا، ويسرى على أوشفيتز والمعسكرات المستقلة،

ونحن هنا الآن عشرة آلاف فى بونا – مونوفيتز، وربما ثلاثون ألفا بين أوشفيتز وبيركيناو. أين الآخرون؟» وأقترح أنا فأقول:

«ربما انتقلوا إلى معسكرات أخرى...»، ويومئ شموليك برأسه، ويتوجه إلى فالتر قائلاً:

- «إنه لا يريد أن يفهم».

ولكن شاء القدر أن أفهم سريعا، وأن يدفع شموليك نفسه ثمن ذلك. وفى المساء فُتح باب الثكنة وصاح صوت قائلاً: «انتبه!» – وانطفأ كل صوت وسمعنا صمتا مُطبِقًا.

ودخل اثنان من الشرطة السرية (وكان واحد من الاثنين يحمل رتبة كبيرة، ربما يكون ضابطا)، وقد كنا نسمع وقع أقدامهما فى الثكنة كما لو كانت خاوية! وقد تحدثا مع رئيس الأطباء، وقد أخرج لهما هذا الأخير سجلا وهو يشير لهما هنا وهناك. وأخذ الضابط ملحوظة علىْ كتيب صغير. ويلمس شمولاى ركبتَىَّ وهو يقول: انتبه.

ويدور الضابط، يتبعه الطبيب، فى صمت وعدم اكتراث بين الأسرَّة، وكان يمسك فى يده بسوط، ويضرب طرفا من الغطاء الذى يتدلى من سرير عالٍ، ويهرول المريض لإعادة ترتيبه، ويمر الضابط بعد ذلك.

وهناك آخر وجهه أصفر، ينزع الضابط عنه الأغطيـة، فيشهق منزعجا، ويجس الطبيب بطنه ويقول: حسنا، حسنا، ثـم يتجاوزه.

وها هو يضع نظره على شموليك، يُخرِج الكتيب، ويراجع رقم السرير ورقم الوشم. وأرى أنا كل شيء من أعلى، فقد رسم صليبا صغيرا بجوار شموليك، ثم تجاوزه.

وأنظر الآن إلى شموليك، وقد رأيت وراءه عينَى فـالتر، وعندئذٍ لم أوجّه أسئلة.

وفى اليوم التالى، سُمح بالخروج لمجموعتَين متميـزتَين، بدلا من المجموعة المعتادة من الذينْ تم شـفاؤهم. المجموعـة الأولى حُلقت وجُزّت شعورها واستحمت تحت الدش. وخرجت المجموعة الثانية هكذا بلحى طويلة وأدوية غير مجـددة، وبـلا دش. ولم يقم أحد بتحية هذا الفريقْ الأخير، ولم يكلفهـم أحـد برسائل للزملاء الأصحاء، وقد كان شموليك واحدا من هؤلاء.

بهذه الطريقة المتحفظة والرزينة، دون أبّهة ودون غضب خلال تكنات العيادة كنا نلتف كل يوم حول المذبحـة ويجـيء الدور على هذا أو ذاك. وعندما رحل شموليك، ترك لى الملعقة والسكين، وقد تجنبنا أنا وفالتر النظر كل منا إلى الآخر وبقينـا طويلا صامتين. ثم سألنى فالتر كيف أحتفظ لفترة طويـة جـدًا

بوجبتى من الخبز، وشرح لى أنه عادة ما يقطع وجبته بالطول، بحيث يحصل على شرائح أطول يصبح من الأسهل توزيع الزبد عليها.

ويشرح لى فالتر العديد من الأشياء: Schonungsblock تعنى ثكنة للراحة، وهنا يوجد فقط مرضى بدرجة خفيفة، أو فى مرحلة نقاهة، أو لا يحتاجون إلى العلاج. ومن بين هؤلاء، يوجد على الأقل ما يقرب من خمسين من المصابين بالدوسنتاريا فى حالة خطيرة نوعا ما، وأولئك يتم الكشف عليهم فى اليوم الثالث. يقفون فى طابور بطول الممر، وفى نهاية الممر يوجد طستان من المعدن، والممرض، مع السجل والساعة والقلم الرصاص. وفى كل مرة يتقدم اثنان من المرضى، ويجب أن يُثبتوا فى مكانهم وعلى الفور أن إسهالهم مستمر؛ ولهذا الغرض يُمنحون دقيقة بالضبط. وبعد ذلك يقدِّمون النتيجة للممرض، الذى يلاحظ ويحكم. ويقومان بسرعة بغسل الطستين فى حوض أُعدّ خصيصا لذلك، ويدخل الاثنان التاليان.

ومن بين أولئك الذين ينتظرون، يلوى البعض أنفسهم من التقلص للاحتفاظ بالدليل الثمين لمدة عشرين، أو عشر دقائق، وآخرون ليست لديهم موارد فى تلك اللحظة يشدون عروقهم وعضلاتهم فى الجهد المقابل. ويشاهد الممرض ذلك دون تأثر

وهو يقرض القلم الرصاص وعينه على الساعة والعين الأخرى على العيِّنات التى تقدَّم له شيئا فشيئا. وفى الحـــالات المـــشكوك فيها يذهب بالطست ويقوم بعرضه على الطبيب.

... تلقيت زيارة: إنه بييرو سونينو، الرومانى. «أرأيـــت كيف خدعته؟»، لقد كان بييرو يشكو من التهاب خفيف جدًّا فى الأمعاء، وهو هنا منذ عشرين يوما، وهو فـــى صـــحة جيـــدة، يستريح ويزداد وزنا، ولا يعبأ بالعمليات الانتقائيـــة، وقـــرر أن يبقى فى العيادة حتى نهاية الشتاء، بأى ثمن. وطريقته تكمن فى الوقوف فى الصف وراء بعض المصابين حقـــا بالدوســـنتاريا، والذين يقدمون ضمانا للنجاح؛ وعندما يجىء دوره يطلب منـــه تعاونه (الذى يكافأ عليه بالحساء والخبز)، وإذا وافق هذا علـــى ذلك، ومر الممرض بلحظة عدم انتباه، يبـــدل الطـــست وســـط الزحام ويحقق هدفه. وبييرو يعلم ما يتعرض له من مخـــاطرة، ولكن الأمور سارت معه حتى الآن على ما يرام.

ولكن حياة العيادة ليست هذه، ليست هذه اللحظات الحاسمة لعمليات الانتقاء، وليست القصص المضحكة لعمليات التفتـــيش عن الإسهال والبراغيث، وليست حتى الأمراض.

والعيادة هى معسكر الاعتقال باستثناء المعاناة البدنية، ولذا فإن من لا تزال لديه بذرة من الوعى، فإنه يستعيد فيه وعيـــه؛

ولهذا فإنه فى الأيام الفارغة والطويلة للغاية نتحدث عن أشياء أخرى غير الجوع والعمل، ويحدث لنا أن نفكر فيما آل إليه حالنا على أيديهم، وما انتزع منا، وما هذه الحياة. فى هذه العيادة، استراحة من السلام النسبى، ولقد تعلمنا أن شخصيتنا هشة، وهى أكثر عرضة للخطر من حياتنا، والحكماء القدامى، بدلا من تحذيرنا بقولهم "تذكر أنك يجب أن تموت"، كان الأولى بهم أن يذكروننا بهذا الخطر الأكبر الذى يهددنا، ولو كان من الممكن أن تتسرب من داخل معسكر الاعتقال رسالة للرجال الأحرار لكانت هذه: تجنبوا أن تعانوا فى بيوتكم ما يُوقَّع عليكم هنا.

وعندما يعمل الإنسان، يعانى ولا يكون لديه الوقت للتفكير؛ بيوتنا أقل من ذكرى، ولكن الوقت هنا معنا: من سرير إلى سرير، على الرغم من الحظر نتبادل الزيارات، ونتحدث ونتحدث، والتكنة الخشبية، المكتظة بالإنسانية المتألمة مليئة بالكلمات والذكريات وبألم آخر، وهذا الألم يسمى بالألمانية "Heimweh"، وهى كلمة جميلة، وهى تعنى "ألم البيت".

نحن نعلم من أين جئنا؛ فذكريات العالم فى الخارج تزحم أحلامنا ويقظتنا ونتنبه فى دهشة إلى أننا لم ننسَ شيئا، وكل ذاكرة تثار تبزغ واضحة أمامنا بصورة مؤلمة.

ولكن إلى أين نذهب؟ لا نعرف. ربما نستطيع النجاة من الأمراض والهروب من الخيارات، وربما نتحمل أيضًا العمل والجوع اللذين يستهلكاننا... وماذا بعد ذلك؟ هنا، ونحن بعيدون مؤقتا عن الشتائم والضربات، نستطيع العودة إلى أنفسنا ونفكر، وعندئذٍ يصبح من الواضح أننا لن نعود. لقد سافرنا حتى الآن فى العربات المغلقة بالرصاص، ولقد رأينا سفر نسائنا وأطفالنا نحو اللاشىء، وبعد أن تحولنا عبيدا سرنا مائة مرة إلى الأمام وإلى الخلف فى التعب الصامت، وقد انطفأت روحنا قبل أن تنطفئ من الموت المجهول. نحن لن نعود، ولا ينبغى أن يخرج من هنا أحد يمكن أن ينقل إلى العالم، مع العلامة المطبوعة فى لحمه، القصة السيئة لما وسعته نفس الإنسان أن يفعله بأخيه الإنسان، فى أوشفيتز.

ليالينا

بعد عشرين يوما فى العيادة، سُمِح لى بالخروج مع أسفى الشديد، حيث إن جرحى قد التأم عمليا.

والاحتفال بسيط، ولكنه يحمل معه فترة مؤلمة وخطيـــرة من إعادة الترتيب. ومن لا يمتلك مساندات خاصة عند خروجه من العيادة لا يُعَدْ إلى بلوكه وقيادته الأولى، ولكنه يجنَّد، علـــى أساس معايير مجهولة بالنسبة إلىَّ فى أى ثكنة أخرى ويوجَّه إلى أى عمل آخر. وعلاوة على ذلك فإننا نخرج من العيادة عــراة، ونتلقى ملابس وأحذية "جديدة" (وأقصد أنها ليـــست تلـــك التـــى تركناها عند الدخول)، ويجب أن يجتهد الإنسان بسرعة ونشاط لتكييفها على مقاسه، وهو ما ينطوى على جهد ونفقات. ولا بـــد من الحصول من جديد على ملعقة وسكين، وأخيرا، وهذا هـــو الظرف الأخطر، نجد أنفسنا دخلاء فى بيئة مجهولة، بين زملاء لم نرَهم قط من قبل ومعادين لنا، مع رؤساء لا نعرف طـــبعهم وبالتالى يصعب اتقاء شرهم.

إن قدرة الإنسان على أن يحفر لنفسه مكانة لائقـــة، وأن يخلق لنفسه قوقعة، وأن يشيد حول نفسه حاجزا دفاعيا ضـــعيفا،

حتى فى ظروف يائسة فى الظاهر، هائلة وتستحق دراسة متعمقة، وهو عمل ثمين للتكيف، سلبى وغير واعٍ فى جزء منه، ونشط فى جزء آخر: دق مسمار فوق السرير لتعلق الأحذية عليه ليلا، وإبرام معاهدات ضمنية مع الجيران بعدم الاعتداء، وفهم وقبول عادات وقوانين القيادة الواحدة والبلوك الواحد. وبفضل هذا العمل يمكن بعد بضعة أسابيع الوصول إلى نوع من التوازن، ودرجة معينة من الأمن فى مواجهة الأمور غير المتوقعة؛ لقد صُنع لنا عُشٌ وتجاوزنا صدمة النقل إلى مكان آخر.

والإنسان الذى يخرج من العيادة، عاريا ودائمًا تقريبًا لم يستعد عافيته بصورة كافية، يشعر أنه منطلق فى الظلام وفى صقيع الفضاء الكونى، بنطاله يسقط عنه والحذاء يؤلمه والقميص بلا أزرار. وهو يبحث عن اتصال إنسانى، ولا يجد سوى ظهور استدارت للناحية الأخرى. هو أعزل وعرضة للخطر مثل وليد صغير، ومع ذلك فإنه فى الصباح عليه السير للعمل.

فى هذه الظروف وجدت نفسى عندما عَهد إلىَّ الممرض بعلاجات قائد الثكنة فى البلوك ٤٥. ولكن فكرا ملأنى فورا بالفرح؛ لقد حالفنى الحظ، فهذا هو بلوك ألبرتو!

ألبرتو هو أفضل أصدقائى، ولا يبلغ من العمر سوى اثنين وعشرين عاما، وهو يصغرنى بعامين، ولكن أحدا منا نحن الإيطاليين لم يُظهر قدرات على التكيف مماثلة لقدراته. لقد دخل ألبرتو معسكر الاعتقال مرفوع الهامة ويعيش فى معسكر اعتقال لم يلحقه ضرر أو فساد. لقد فهم قبل الجميع أن هذه الحياة هى حرب؛ ولا يُسمح فيها بالمهادنات؛ فلم يُضِعْ وقتا فى الأسى وتجريم نفسه والآخرين، ولكنه نزل الميدان منذ اليوم الأول يدعمه الذكاء والفطرة، وهو يفكر جيدًا، وغالبا لا يفكر، وهو على حق على حد سواء. ويفهم كل شىء بسرعة، ولا يعلم سوى قليل من الفرنسية، ويفهم ما يقوله له الألمان والبولنديون، ويرد باللغة الإيطالية وبالحركات، ويستطيع التعبير عن نفسه، ويبدو خفيف الظل على الفور. وهو يكافح من أجل حياته، ومع ذلك فهو صديق الجميع، وهو "يعلم" من يتعين رشوته، ومن يتعين تجنبه، ومن يمكن أن نستدرّ شفقته، ومن يتعين مقاومته.

ومع ذلك لم يصبح شريرا (وبسبب ميزته هذه لا تزال ذكراه اليوم عزيزة وقريبة منى). لقد رأيت دائما، ولا أزال أرى، فيه الشخصية النادرة للرجل القوى والوديع، الذى تتكسر عليه أسلحة الليل.

ولكننى لم أنجح فى الحصول على النوم فى سرير معه، ولم ينجح ألبرتو أيضًا فى ذلك، على الرغم من أنه يتمتع الآن

فى البلوك ٤٥ بشعبية معينة. وهذه خسارة، لأن الحصول على زميل سرير تثق فيه أو يمكن على الأقل التفاهم معه، يُعَدّ ميزة لا تقدر بثمن، وعلاوة على ذلك فإن الوقت شتاء الآن، والليالى طويلة، وبما أننا مضطرون إلى تبادل العرق والرائحة والحرارة مع شخص ما، تحت الغطاء نفسه وفى مساحة عرضها سبعون سنتيمترا، فإننا نرغب جدًّا فى أن يكون صديقا.

الليالى طويلة فى الشتاء، ويُسمح لنا بفترة زمنية طويلة للنوم.

وتنطفئ بالتدريج الجلبة فى البلوك، ومنذ أكثر من ساعة انتهى تَوزيع الوجبة المسائية، وهناك فقط بعض المعاندين الذين يصرون على كحت قاع القصعة الذى أضحى لامعا، وهو يديره بدقة تحت المصباح، وجبهته مقطبة من الاهتمام. ويدور المهندس كاردوس بين الأسرَّة لعلاج الأقدام الجريحة وحالات الكاللو المتقيحة، وهذه هى صنعته، ولا يوجد من لا يتنازل طواعية عن قطعة من الخبز، شريطة أن يخفف عنه عذاب الجراح المخدرة، التى تنزف فى كل خطوة طوال النهار، وبهذه الطريقة حل المهندس كاردوس مشكلة العيش.

ومن الباب الخلفى دخل المغنى الشعبى خفية وهو ينظر حوله فى حذر، وجلس على سرير فاكسمان، وعلى الفور تجمع

حوله جمع صغير فى انتباه وصمت، وهو يغنى قصيدة ملحمية بالعبرية، هى نفسها دائما، فى رباعيات مقفاة، فى كآبة مستسلمة ونافذة (أو ربما أذكرها هكذا لأننى سمعتها آنــذاك وفــى ذلــك المكان)؛ فمن الكلمات القليلة التى أفهمها لا بد أن تكون أغنيــة ألّفها هو نفسه، حيث تناول كل حياة معسكر الاعتقال، فــى أدق التفصيلات. البعض يكون كريما ويكافئ المغنى الشعبى بقطعــة صغيرة من التبغ أو قطعة مــن الخــيط، وآخــرون ينــصتون منهمكين، ولكنهم لا يعطون شيئا.

ويتردد مرة أخرى فجأة النداء لآخر وظيفة فى النهــار: «من لديه حذاء مقطوع؟»، وينطلق على الفور ضجيج أربعــين أو خمسين من المطالبين بالتغيير يهرولون نحو غرفــة النهــار بحماس مستميت، وهم يعلمون جيدًا أن أول عشرة يصلون، فى أحسن الاحتمالات، ستلبَّى مطالبهم.

ثم يحل الهدوء، ويُطفأ النور فى البداية، لبــضع ثــوان، لتنبيه الترزية لوضع الإبرة الثمينة للغاية والخــيط، ثــم يــدق الجرس من بعيد، وعندئذ يتسلم الحارس الليلى موقعــه وتطفــأ جميع الأضواء بصورة نهائية، ولا يبقى سوى أن نخلع ملابسنا وننام.

أنا لا أعرف جارى، ولست واثقا حتى من أنه هو الشخص نفسه، لأننى لم أرَ وجهه قط سوى لبضع لحظات فى جلبة اليقظة بحيث أعرف ظهره وأقدامه أفضل بكثير من وجهه. وهو لا يعمل فى قيادتى، ويأتى إلى الفراش فقط لحظة الصمت، ويلتف فى الغطاء ويدفعنى جانبا بضربة من جانبه العظمىّ، ويعطينى ظهره ويبدأ على الفور فى الشخير، ظهر فى مقابل ظهر، وأجتهد فى الحصول على مساحة معقولة من المرتبة، وأمارس بكُلْيتَىَّ ضغطا متزايدا ضد كُلْيَتَيْه، ثم أستدير وأحاول دفعه بالركبتين، وآخذ كاحليه وأحاول وضعها بعيدا قليلا بحيث لا تكون قدماه بجوار وجهى، ولكن كل هذا لا يجدى، فهو أثقل منى بكثير ويبدو متحجرا من النعاس.

وعندئذٍ أتكيف للنوم هكذا مجبَرا على السكون، ونصفى على حافة الخشب. ومع ذلك فإننى متعب وخائر القوى حتى أننى أغوص أنا أيضًا فى النعاس بعد فترة وجيزة، ويبدو لى أننى أنام على قضبان القطار.

القطار يوشك على الوصول؛ نسمع القاطرة تنفث بخارها، وهى جارى، ولم أنم بعد لدرجة عدم التنبه للطبيعة المزدوجة للقاطرة. إنها بالتحديد تلك القاطرة التى كانت تقطر اليوم فى بونا العربات التى نقلتنا، فأنا أعرفها من أننا الآن أيضًا نشعر

بالحرارة التى تنبعث من جانبها الأسود، كما مرت بالقرب منـــا وهى تصفر وتزداد قربا، وهى دائمًا توشك أن تجتاحنى، ولكنها لا تصل أبدا. ونعاسى خفيف جدًّا، إنه غلالة، إن أردت مزقتها، وسأفعل ذلك، أريد تمزيقها، وهكذا سأستطيع انتزاع نفسى عــن القضبان. وهكذا أردت هذا، وأنا الآن مستيقظ، ولكننـــى لــست مستيقظا تمامًا، مجرد شيء أكثر من ذلك، عند الدرجة الصغيرة الأعلى بين الوعى واللاوعى. عيناى مقفولتـــان، ولا أريـــد أن أفتحهما لكى لا أترك النعاس يفلت منى، ولكننى أستطيع إدراك الأصوات؛ هذه الصفارة البعيدة أنا واثق من أنهـــا حقيقيـــة، ولا تأتى من القاطرة التى فى الحلم، لقد صفرت بالفعل، إنها صفارة ديكوفيل الآتى من الترسانة التى تعمل أيضًا ليلا. نغمة طويلـــة ثابتة، ثم نغمة أخرى أدنى من نصف نغمة، ثم الأولى من جديد، ولكنها قصيرة ومقطوعة. وهذه الصفارة شيء مهم، وأساســـى بصورة ما، هكذا استمعنا إليه غالبا، مرتبطـــا بمعانـــاة العمـــل والحقل التى أصبح رمزا لها ويعيـــد إلـــى الـــذاكرة صـــورتها مباشرة، كما يحدث بالنسبة إلـــى بعـــض الموســـيقى وبعـــض الروائح.

هنا توجد أختى وبعض أصدقائى غير المحددين، وكثيـــر من الناس الآخرين. كلهم ينصتون إلىّ وأنا أروى هذا بالتحديد:

الصفارة على ثلاث نغمات، والسرير الصلب، وزميلى الذى أود زحزحته من مكانه، ولكننى أخشى إيقاظه لأنه أقوى منى. وأحكى أيضًا بإسهاب عن جوعنا، وعن التفتيش عن القمل، والرئيس الذى ضربنى على أنفى ثم أرسلنى لكى أستحم لأننى كنت أنزف. إنه استمتاع بدنى مكثف، لا يمكن التعبير عنه، أن أكون فى بيتى، بين أشخاص أصدقاء وأن تكون لدىَّ أشياء عديدة أرويها، ولكننى لا يمكن ألا ألحظ أن مستمعىَّ لا يتابعوننى، بل إنهم غير مكترثين تمامًا، فهم يتحدثون فى فوضى عن أشياء أخرى فيما بينهم، كما لو كنت أنا غير موجود. وتنظر إلىَّ أختى، وتنهض وترحل دون أن تنطق بكلمة واحدة.

وعندئذٍ يولد لدىَّ ألم حزين، مثل تلك الآلام التى أذكرها لتوىّ عن طفولتى الأولى، إنه ألم مجرد، لا يخفف منه الإحساس بالواقع وتداخل الظروف الخارجية، وهو يشبه تلك الآلام التى يبكى منها الأطفال، ومن الأفضل بالنسبة إلىَّ أن أصعد من جديد إلى السطح، ولكننى فى هذه المرة أفتح عينىَّ عن عمد لكى يكون أمامى أنا نفسى ضمان بأننى مستيقظ بالفعل.

الحلم أمامى، لا يزال ساخنا، وعلى الرغم من أننى مستيقظ، فإننى لا أزال مليئا بألمى، وعندئذ أتذكر أن هذا ليس حلما عاديا، ولكننى منذ أن أتيت إلى هنا وأنا أحلم به، ليس مرة

واحدة ولكن مرات عديدة، مع بعـض التغييـرات فـي البيئـة والتفصيلات. والآن أنا فى يقظة كاملة، وأتذكر أننى حكيته أيضًا لألبرتو، وقد أسرَّ إلىَّ، مع استغرابى، أن هذا أيضًا هو حلمـه، وحلم آخرين كثيرين، وربما الجميع. لماذا يحدث هـذا؟ لمـاذا يترجَم ألم كل يوم فى أحلامنا هكذا باستمرار للمشهد المتكـرر دائمًا لرواية تمت ولم ينصت لها أحد؟

وبينما أفكر هكذا، أحاول الاستفادة من اليقظة لكى أزيـح عن كاهلى أثمال الألم ذات المذاق السابق، بحيـث لا أعـرّض للخطر نوعية الحلم التالى. وأنكمش للجلوس فى الظلام، وأنظر حولى وأصيخ السمع.

نسمع النائمين يتنفـسون ويـشخرون، والـبعض يتـأوه ويتحدث. كثيرون يمصمصون شـفاههم ويحركـون فكـوكهم، يحلمون بالأكل، فهذا أيضًا حلم جماعى. إنه حلم قاسٍ، ومن خلق أسطورة تنتالوس كان لا بد أن يعرفه. لا نرى الأطعمة فقـط، ولكننا نشعر بها فى الأيدى مميزة وملموسة، ونـدرك رائحتهـا الثرية والعنيفة، والبعض يقرّبها حتى تمسَّ الشفاة، ثم تأتى بعض الظروف، المختلفة فى كل مرة، والتى تؤدى إلى عدم اكتمـال العمل. وعندئذ يتبدد الحلم ويتحلل إلى عناصره، ولكنه يتألف من جديد على الفور بعد ذلك، ويبدأ من جديد ممـاثلا ومختلفـا... وهذا بلا هوادة، لكل واحد منا، فى كل ليلة وطوال فترة النوم.

لا بد أن تكون قد مرت الساعة الحادية عشرة مساء؛ لأن هناك بالفعل حركة ذهاب ومجيء مكثفة للجرادل، بالقرب من الحارس الليلى. إنه عذاب مشين وخزى لا يُمحى: كل ساعتين، كل ثلاث ساعات، يتعين علينا أن ننهض لإزالة الجرعة الكبيرة من الماء التى نُضطر إلى امتصاصها نهارا تحت شكل حساء، لمواجهة الجوع، وهو الماء نفسه الذى ينفخ فى المساء كواحلنا ومآقينا، مع إعطاء كل الملامح تشابها مشوَّها، وتفرض إزالتها على الكليتين عملا مضنيا.

والأمر لا يتعلق فقط بموكب الجرادل؛ فالقانون يقضى بأن يقوم آخر مستخدم للدلو نفسه بالذهاب لتفريغه فى المرحاض، والقانون يقضى أيضًا بألا يخرج أحد من الثكنة إلا بالزى الليلى (القميص والملابس الداخلية)، وتسليم رقم الشخص إلى الحارس. ويتبع ذلك، كما هو متوقع، أن يحاول الحارس الليلى أن يعفى من الخدمة أصدقاءه ومواطنيه والبارزين، ويضاف إلى ذلك أن القدامى فى المعسكر قد زادوا من حدة حواسهم حتى أنهم، مع بقائهم فى أسرّتهم، يستطيعون بأعجوبة أن يميزوا، على أساس صوت جدران الدلو، ما إذا كان المستوى عند حد الخطر أم لا، ولهذا يستطيعون دائمًا الإفلات من عملية التفريغ. ولهذا فإن المرشحين لخدمة الجردل هم فى كل ثكنة عدد محدود جدًا، فى

حين أن اللترات الإجمالية المطلوب إزالتها هـــى علـــى الأقـــل مائتان، وبالتالى فإن الجردل يجب أن يفرَّغ مـــا يقـــرب مـــن عشرين مرة.

وخلاصة القول، أن الخطر المحدق بنا خطير جدًّا، كـــل ليلة، لعدم خبرتنا وعدم تميزنا، عندما تدفعنا الحاجة للدلو. وفجأة يقفز الحارس الليلى من ركنه ويمسك بنا، يكتب رقمنا بـــسرعة، ويسلمنا قبقابا والدلو، ويطردنا إلى الخارج وسط الجليد، ونحـــن نرتعد وقد جافانا النوم. ويتعين علينا أن نجـــر أنفـــسنا حتـــى المرحاض، مع الدلو الذى يصطدم بعضلات ســـيقاننا العاريـــة، وهو ساخن بصورة منفرة، وهو ممتلىء بما يزيد عن أى حـــد معقول، وحتما مع الخبطات يفيض بعض منه على أقدامنا، حتى أنه، على الرغم من أن هذه الوظيفة مقززة، فإن من المفـــضل دائمًا أن نتولاها بأنفسنا بدلا من جارنا فى السرير.

وهكذا تتوالى ليالينا. حلم تنتالوس وحلم الرواية يندرجان فى نسيج من الصور غير المميزة: معاناة اليوم المؤلفـــة مـــن الجوع، والضربات، والبرد، والتعب، والخـــوف، والاخـــتلاط، تتحول ليلا إلى كوابيس مشوهة من العنف الذى لم نسمع به من قبل، وهى التى تحدث فقط فى الحياة الحرة فى ليـــالى الحمـــى. نستيقظ فى كل لحظة وقد تجمدنا من الرعب، مع رجفة فى كل

أطرافنا، تحت الانطباع بأمر يصيح به صوت ملىء بالغضب، بلغة غير مفهومة. ويتحول موكب الدلو وغوص الكواحل العارية على خشب الأرضية إلى موكب آخر رمزى، فنحن رماديون ومتطابقون، وصغار مثل النمل وكبار حتى السحاب، وقد انضم كل منا إلى الآخر، ولا يُحصَى عددنا فى كل السهل حتى الأفق، وأحيانا نكون منصهرين فى مادة واحدة، خليط مؤلم نشعر فيه بأننا متورطون ومخنوقون، وأحيانا فى مسيرة على شكل دائرة، بلا بداية ولا نهاية، مع دوار يغشى البصر وسيل من الغثيان يصعد من الصدر حتى الحلق؛ حتى يجمع الجوع أو البرد أو امتلاء المثانة الأحلام داخل الحدود المعتادة. ونحاول عبثا، عندما يوقظنا الكابوس نفسه أو المعاناة، أن نتبين عناصره، ونطردها بصورة منفصلة خارج مجال الاهتمام الحالى، بحيث ندافع عن النوم من اقتحامها، فبمجرد أن تغلق عيوننا من جديد، مرة أخرى نحس بأن مخّنا قد بدأ فى الحركة خارج إرادتنا؛ فهو يضرب ويطنّ، وهو غير قادر على الراحة، ويصنع أشباحا وعلامات رهيبة، ودون توقف يرسمها ويثيرها فى ضباب رمادى على شاشة الأحلام.

ولكن طوال فترة الليل، خلال كل الفترات المتعاقبة من النوم والسهر والكابوس، يظل هناك الانتظار ورعب لحظة

اليقظة، فعن طريق القدرة الغامضة التـــى يعرفهـــا الكثيـــرون، نستطيع، حتى بلا ساعات، أن نتنبأ بدقاتها بتقريب كبير. وفـــى ساعة اليقظة، التى تختلف من موسم إلى موسم ولكنها تقع دائمًا قبل الفجر بكثير، يرن جرس المعسكر، وعندئذ يقوم الحـــارس الليلى فى كل ثكنة بترك مكانه؛ يـــشعل الأضـــواء، ويـــنهض، يتمطع، ويصيح قائلاً كل يـــوم: «انهـــض» أو فـــى الأغلـــب بالبولندية: «Wstawać» أو النهوض.

وقليلون جدًّا هم الذين ينتظرون النهوض وهم نائمون، إنها لحظة ألم حادة جدًّا حتى لا يتبدد النعاس الشديد عند اقترابهـــا. والحارس الليلى يعرف ذلك، ولهذا لا ينطقها بنبرة الأمر، ولكن بصوت هادئ وهامس كمن يعرف أن الإعلان سيجد كل الآذان مصغية، وسوف يُسمع ويطاع.

وتقع الكلمة الأجنبية كحجر علـــى قـــاع كـــل النفـــوس، "النهوض"، الحاجز الوهمى للأغطية الـــساخنة، ودرع النعـــاس الهزيل، والهروب الليلى المؤلم، كل هذه الأشياء تتفتت حولنـــا ونجد أنفسنا من جديد مستيقظين بلا رجعة، ومعرَّضين للإهانة، ونحن عراة وعرضة للخطر بصورة وحشية. ويبدأ يوم مثل كل يوم، طويل حتى أننا لا نستطيع أن نتخيل نهايته بصورة معقولة، وكثير من البرد والجوع والتعب يفصل بيننا؛ ولـــذا فـــإن مـــن

الأفضل تركيز الانتباه والرغبة علـــى كتلـــة الخبـــز الرماديـــة الصغيرة، التى هى صغيرة ولكنها خلال ساعة ستكون بـــالطبع ملكا لنا، ولمدة خمس دقائق، ستمثل كل ما يسمح لنا به قـــانون المكان بامتلاكه، حتى نلتهمها.

وعند النهوض تبدأ من جديد حركة العاصـــفة، وتـــدخل الثكنة كلها مباشرة فى نشاط محموم؛ الكل يتسلق إلى أعلى وإلى أسفل، ويعيد ترتيب السرير ويحاول فى نفس الوقت أن يرتـــدى ملابسه، بحيث لا يترك شيئا مـــن حوائجـــه دون أن يحفظـــه، ويمتلئ الجو بالغبار حتى يصبح معتما، والأشـــخاص الأســـرع يشقون بكيعانهم الزحام للذهاب إلى المغسلة وإلى المرحاض قبل أن يتكون الطابور هناك، وعلى الفور يدخل المشهد الكناســـون، ويطردون الجميع إلى الخارج وهم يضربون ويصيحون.

وعندما قمت أنا بترتيب السرير وارتديت ملابسى، أنـــزل على الأرضية وألبس الحذاء، وعندئذ تفتح مـــن جديـــد جـــراح قدمَىَّ، ويبدأ يوم جديد.

العمل

قبل ريزنيك كان ينام معى بولندى كان الجميع يجهلون اسمه، كان وديعا وصامتا، وكان عنده جرحان قديمان فى مؤخرة القدم، وفى الليل كانت تصدر عنه رائحة مرض كئيبة، وكان أيضًا ضعيف المثانة، ولهذا كان يستيقظ وكان يوقظنى ثمانى أو عشر مرات فى الليلة.

وذات مساء ترك لى قفازه فى عهدتى ودخل المستشفى، وقد راودنى الأمل لنصف ساعة أن يكون أمين الإمداد والتموين قد نسى أننى بقيت وحدى شاغلا لسريرى، ولكن عندما رنّ الصمت، اهتزّ السرير وتسلق شخص طويل وأحمر يحمل رقم الفرنسيين من "درانسى" إلى جوارى.

أن يكون لك زميل سرير طويل القامة فهذه مصيبة؛ فهذا يعنى ضياع ساعات من النوم، وأنا دائمًا ما يكون من نصيبى زملاء طوال القامة، لأننى قصير، ولا يمكن لاثنين من طوال القامة أن يناما معا. ولكننا رأينا فورا أن ريزنيك، على الرغم من هذا، لم يكن زميلا شريرا؛ فقد كان يتحدث قليلا، وبصورة مهذَّبة، وكان نظيفا ولم يكن يشخر ولم يكن ينهض سوى مرتين

أو ثلاثًا فى الليل، ودائمًا برقة شديدة. وفى الصباح عــرض أن يقوم هو بترتيب السرير (وهذه عملية معقدة ومؤلمة، وتنطــوى علاوة على ذلك على مسئولية هائلة لأن أولئك الــذين يرتبــون أسرَّتهم بصورة سيئة، وهم الذين لا يرتبــون أســرتهم جيــدًا، يُعاقَبون بسرعة)، وقد قام بذلك بسرعة وجيدا؛ حتى أننى شعرت بنوع من السرور اللحظى عندما رأيته بعد ذلك فى ميدان النداء، وقد ضُمّ إلى قيادتى.

وفى المسيرة نحو العمل، ونحن نتــرنح فــى القباقيــب الخشبية على الجليد المتجمد، تبادلنا بعض الكلمات، وعرفت أن ريزنيك بولندى؛ وقد عاش عشرين عاما فى بــاريس، ولكنــه يتحدث فرنسية لا تُعقل. وهو يبلغ من العمر ثلاثين عاما، ولكن كما هو الحال بالنسبة إلينا جميعا يمكنك أن تعطيه مــن ســبعة عشر إلى خمسين عاما. وقد حكى قصته، واليوم نسيتها، ولكنها بالطبع كانت قصة مؤلمة وقاسية ومؤثرة؛ حيث إن هــذه كلهــا قصصنا، مئات الآلاف من القصص، كلها مختلفة وكلها مليئــة بحاجة مأساوية ومدهشة. ونحن نتبادل روايتها بيننا فى المساء، وقد حدثت فى النرويج وإيطاليا والجزائــر وأوكرانيــا، وهــى بسيطة وغير مفهومة مثل قصص التوراة. ولكن أليــست هــى أيضًا قصص توراة جديدة؟

عندما وصلنا إلى الترسانة، اقتادونا إلى مخزن الخـــردة، وهو مساحة تفرغ فيها مواسير الحديد، ثم بدأت تحدث الأشـــياء المعتادة؛ قام الرئيس بالنداء من جديد، وقـــد ســـجل باختــصار المشتريات الجديدة، واتفق مع الرئيس المدنى على عمل اليـــوم. ثم عهد بنا إلى رئيس العمل وذهب للنوم فى كـــشك المعـــدَّات، بالقرب من المدفأة، وهذا ليس رئيسا يبعث على الضيق، لأنـــه ليس يهوديا ولا يخاف على ضياع وظيفته. وقد قام رئيس العمل بتوزيع الروافع الحديدية علينا والقطع المعدنية على أصـــدقائه، وقد حدث الصراع الصغير المعتاد للحـــصول علـــى الروافـــع الأخف وزنا، واليوم سارت الأمور بالنسبة إلـــىَّ ســـيرا ســـيئا، فرافعتى معوجَّة، وربما تزن خمسة عشر كيلوجراما، وأنا أعلم أننى حتى لو اضطررت إلى استخدامها فى الفراغ فإننى سأموت من التعب بعد نصف ساعة.

ثم ذهب كل منا؛ كل مع رافعته، وهو يعرج فـــى الجليـــد الذائب، وفى كل خطوة يلتصق شيء من الجليد والطين بقباقيبنا الخشبية، ما دمنا نسير غير ثابتين على كتلتـــين ثقيلتـــين غيـــر منتظمتين لا نستطيع التحرر منهما، وعند لحظة معينة تنفـــصل إحداهما، وعندئذٍ يحدث كما لو أن ســـاقا أقـــصر شـــبرا مـــن الأخرى.

اليوم لا بد من إنزال أسطوانة هائلة من الحجر الزهر من العربة، أعتقد أنها أسطوانة لحام، وربما تــزن عــدة أطنــان. بالنسبة إلينا من الأفضل هكذا، لأن من المعــروف أن الإنــسان يتعب أقل مع الأحمال الكبيرة عن الصغيرة. وبالفعل يقسَّم العمل وتُمنح لنا أدوات مناسبة، ولكننا فى خطر، ولا يجــب الــشرود إطلاقا، ويكفى خطأ واحد للحظة واحدة لكى تُسحق.

وقد قام الرئيس نوجاللا شخصيا، وهــو رئــيس العمــال البولندى، وهو شخص متشدد وجادّ وصامت، بالإشراف علــى عملية التفريغ، والآن ترقد الأسطوانة علــى الأرض، ويقــول مايستر نوجاللا: Bohlen holen.

ونحن يقعُ قلبنا؛ إن هذا يعنى "حمــل الفلنكــات"، بنــاء الطريق الذى ستُدفع عليه الماسورة فى الطين الطرى حتّى داخل المصنع. ولكن الفلنكات محشورة فى الأرض، وتــزن ثمــانين كيلوجراما، إنها تقريبًا عند حدود قوانا. الأشخاص الأشــد قــوة بيننا يستطيعون، بالعمل كل اثنين معا، حمل الفلنكــات لبــضع ساعات، بالنسبة إلىَّ هذا عذاب؛ فالتعب يخلع عظمة كتفى، وبعد الرحلة الأولى أصبحت أصم وأعمى تقريبًا من الجهد، ويمكن أن أرتكب أى عمل دنىء لأفلت من الرحلة الثانية.

سأحاول أن أعمل مع ريزنيك، الذى يبدو أنه عامل جيد، وعلاوة على ذلك، بما أنه طويل القامة فإنه سيتحمل الجانب الأكبر من الحِمل. وأنا أعرف أن من طبيعة الأشياء أن يرفضنى ريزنيك باحتقار، وأن يضع نفسه مع شخص آخر قوى، وعندئذ سأطلب الذهاب إلى المرحاض، وسأبقى هناك لأطول فترة ممكنة، ثم سأحاول الاختباء وأنا على يقين من أنهم سيعثرون علىّ، وسيسخرون منى ويضربوننى، ولكن كل شىء أفضل من هذا العمل.

ولكن لا، ريزنيك يقبل! ليس هذا فحسب، ولكنه يرفع بمفرده الفلنكة ويسندها على كتفى الأيمن بحذر، ثم يرفع الطرف الآخر ويضعه تحت كتفى الأيسر ونرحل.

الفلنكة عليها آثار من الجليد والطين، وفى كل خطوة تصطدم بأذنى وينزلق الجليد فى رقبتى. وبعد ما يقرب من خمسين خطوة أصبحت عند حافة ما يسمى عادة بالتحمل الطبيعى: الركبتان تنثنيان، والكتف يؤلمنى كما لو كان مضغوطا فى منجلة، والتوازن فى خطر، وفى كل خطوة أشعر بالحذاء وقد امتصه الطين النهم، هذا الطين البولندى الموجود فى كل مكان والذى تملأ بشاعته الرتيبة أيامنا.

أعضّ على شفتىَّ بعمق؛ فمن المعروف لنا أن الشعور بألم صغير خارجى يفيد كمحفز لتعبئة الاحتياطيات القصوى

للطاقة. والرؤساء يعرفون ذلك أيضًا؛ البعض يضربوننا لمجرد الوحشية والعنف، ولكن هناك آخرين يضربوننا عندما نكون تحت الحِمل، بحب تقريبا، ومصاحبين الضربات بعبارات الحث والتشجيع، كما يفعل سائقو الكارو مع الخيول الراغبة فى العمل.

وعند الوصول إلى الأسطوانة، نقوم بإنزال الفلنكة على الأرض، وأبقى أنا ساكنا وعيونى خاوية وفمى مفتوح وذراعاى متدليتان، وأنا غارق فى النشوة العابرة والسلبية لتوقف الألم. وعندما خارت قواى عند الغروب، أنتظر الدفعة التى ستجبرنى على استئناف العمل، وأحاول الاستفادة من كل ثانية من الانتظار لاستعادة بعض الطاقة.

ولكن الدفعة لا تجىء، ويلمس ريزنيك كوعى، ونعود بأبطأ ما يمكن إلى الفلنكات. هناك يتجول الآخرون، اثنين اثنين، محاولين جميعا التباطؤ قدر المستطاع قبل الخضوع للحِمل.

- «هيا، يا صغيرى، أمسك. هذه الفلنكة جافة وأخف قليلا»، ولكننى فى الرحلة الثانية سأتقدم لرئيس العمل وسأطلب الذهاب إلى المرحاض.

والميزة بالنسبة إلينا أن مرحاضنا بعيد إلى حد ما، وهذا يسمح لنا، مرة فى اليوم، بغياب أطول قليلا من المعتاد، وعلاوة

على ذلك، فإنه نظرًا إلى أنه يُحظر الذهاب إلى هناك بمفردنا، فقد ترتب على ذلك أن فاكسمان، الأضعف والأقل خبرة في القيادة، عُيّن في منصب "المرافق إلى المراحيض"؛ وبموجب هذا التعيين، فإن فاكسمان هو المسئول عن محاولتنا للهروب (وهو افتراض مضحك!)، وعن كل تأخُّر لنا، في الواقع.

وبما أن طلبى قد قُبل، فإننى سأرحل فى الطين، وفى الجليد الرمادى وبين الحديد الخردة، يصحبنى فاكسمان الصغير. وبهذا لا أستطيع التفاهم لأننا لا نمتلك أية لغة مشتركة، ولكن زملائى قالوا لى إنه حاخام، بل إنه من علماء التوراة، وعلاوة على ذلك فإنه فى بلاده، فى جاليتسيا، كان صيته ذائعا كمعالج وصانع معجزات، ولا أستبعد تصديق ذلك، عندما أفكر كيف أنه، وهو هزيل وهش ووديع هكذا، تمكن منذ عامين من العمل دون أن يمرض ودون أن يموت، وهو مشتعل على العكس من ذلك بحيوية مدهشة فى النظر والكلمة، ولذا فإنه يقضى أمسيات طويلة فى مناقشة قضايا تلمودية، بصورة غير مفهومة باليديّة وبالعبرية، مع مندى، وهو حاخام من المُحْدَثِين.

المرحاض واحة من السلام، وهو مرحاض مؤقت، لم يقم الألمان بعد بتزويده بالفواصل الخشبية التى تفصل مختلف الأقسام و"فقط للإنجليز"، و"فقط للبولنديين"، و "فقط للنساء

الأوكرانيات"، وهكذا، وفى جانب ما "فقط للمعتقلين". وبالداخل يجلس أربعة من المعتقلين الجوعى متجاورين: عامل روسى عجوز ملتحٍ ويحمل شريطا أزرق يحمل الأحرف OST على ذراعه الأيسر، وصبى بولندى، مع حرف P أبيض كبير على الظهر والصدر، وسجين عسكرى إنجليزى وجهه محلوق ووردى بصورة رائعة ويرتدى الزى الكاكى الناصع والمكوى والنظيف، باستثناء العلامة الكبيرة (أسير حرب) KG على الظهر. وهناك معتقل آخر واقف عند الباب، وكلما دخل مدنى ليفك حزامه سأله بصبر ورتابة: هل أنت فرنسى؟

وعندما أعود إلى العمل، نرى مرور سيارات النقل التى تنقل الطعام، وهو ما يعنى أن الساعة العاشرة، وهذه بالفعل ساعة محترمة، حتى أن راحة منتصف النهار ترتسم بالفعل فى ضباب المستقبل البعيد، ونحن نستطيع أن نبدأ فى اكتساب الطاقة من الانتظار.

وأقوم مع ريزنيك برحلتين أو ثلاث بعد ذلك، ونحن نحاول بكل عناية، بالذهاب أيضًا إلى أكوام بعيدة، أن نجد فلنكات أخف وزنا، ولكن أفضلها تم نقلها الآن، ولا يبقى سوى الأخرى، الفظيعة، ذات الأحرف القاطعة، وقد أثقلها الطين والجليد، وقد سُمِّرَتْ فيها اللوحات المعدنية لتركيب القضبان عليها.

وعندما يأتى فرانتس لينادى فاكسمان حتى يــذهب معــه لسحب الطعام، فإن هذا يعنى أن الساعة بلغت الحادية عــشرة، وقد مر الصباح بالفعل، ولا أحد يفكر فى العصر. ثم هناك عودة السخرة، من الحادية عشرة والنصف، والاستجواب النمطى: كم من الحساء اليوم؟ وما نوعيته؟ وما إذا كان نصيبنا مــن بدايــة الحساء أم من قاع الإناء الكبير. وأجتهد أنا فى عدم توجيه هــذه الأسئلة، ولكننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من مدّ أذنَــىَّ بــنهم للأجوبة، وأنفى للدخان الذى يأتى مع الرياح من المطبخ.

وأخيرا، كشهاب سماوى فوق البشر والأشخاص كعلامــة سماوية، تنفجر سارينة منتصف النهار لتلبى نداء تعبنا وجوعنا المجهول الذى يجمعنا جميعا. ومن جديد تحدث الأشياء المعتادة: كلنا نُهرع إلى التكنة، ونقف فى الطــابور بــالأوانى المعدنيــة الممدودة، ولدينا جميعا سرعة حيوانية لنذيب أحشاءنا بــالمزيج الساخن، ولكن أحدا لا يريد أن يكون الأول، لأن الأول يكــون من نصيبه الطعام الأكثر سيولة. وكالعادة يستهزئ الرئيس بنــا ويشتمنا على شراهتنا، ويحترس جيدًا من عدم تقليب الإناء، لأن القاع - كما هو معروف - يكون من نصيبه. ثم تــأتى ســعادة الاسترخاء والحرارة فى البطن وفــى الكــوخ حــول المــدفأة المزمجرة (وهى سعادة إيجابية وعميقة).

والمدخنون، بحركات بخيلة ومتدينة، يقومون بلف سيجارة نحيلة، ويتصاعد من ملابس الجميع، وقد تبللت بالطين والجليد، دخان كثيف أمام وهج المدفأة، برائحة بيت الكلاب والقطيع.

وهناك اتفاق ضمنى يقضى بألا يتحدث أحد، وفى لحظة واحدة ينام الجميع، وقد انضموا جنبا إلى جنب، ليسقطوا فجأة إلى الأمام ويستعيدوا توازنهم بتصليب الظهر. ووراء الجفون التى أُغلقت لتوها تتدفق الأحلام بعنف، وهذه أيضًا هى الأحلام المعتادة: أن نكون فى بيتنا، فى حمام ساخن رائع، أن نكون فى بيتنا جالسين على المائدة، أن نكون فى البيت لنحكى قصة عملنا بلا أمل، وجوعنا الدائم، ونومنا كالعبيد.

وفى قلب أبخرة الهضم الخاملة تتكثف بعد ذلك نواة مؤلمة، وتَخزِنُنا، وتنمو حتى تتجاوز عتبات الوعى، وتنزع منا متعة النوم. إنها الساعة الواحدة تقريبا، وكسرطان سريع وشره، تميت نومنا وتضغطنا فى ألم مبكر. ونمد أذننا للرياح التى تصفر فى الخارج والحفيف الخفيف للجليد على الزجاج. بعد قليل ستحين الساعة الواحدة. وبينما يتشبث كل واحد بالنوم حتى لا يتركنا، تتوتر كل الحواس من رعب الإشارة التى توشك على المجىء، خارج الباب، هنا...

ها هى، ضربة فى الزجاج، لقد قام (الــرئيس) نوجــاللا بإلقاء كرة من الجليد على الزجاج، والآن يقــف منتــصبا فـــى الخارج، ويمسك بالساعة وعقاربهـــا متجهـــة إلينـــا. ويـــنهض (الرئيس) واقفا، يتمطع ويقول، بصوت خفيض كمن لا يشك فى أنه سيطاع: الجميع فى الخارج.

آه لو كنت أستطيع البكاء! آه لو كنت أســتطيع مواجهـــة الرياح كما كنا نفعل فى وقت من الأوقات، فى نِدِّيَّة، ليس كمـــا يحدث هنا، مثل ديدان بلا روح!

نحن فى الخارج وكل منا يستعيد رافعته. ريزنيك يغوص برأسه بين كتفيه، ويدفس البيريه على أذنيه، ويرفع وجهه للسماء المنخفضة والرمادية التى يدور فيها الجليد بلا رحمة وهو يقول: لو كان عندى كلب لما ألقيته فى الخارج.

يوم طيب

إن الاقتناع بأن الحياة لها هدف أمر متأصل لدى كل أنواع البشر، وهو خاصية لجوهر الإنسان. والرجال الأحرار يعطون لهذا الهدف الكثير من الأسماء، وحول طبيعته يفكرون كثيرا ويناقشون قائلين: ولكن المسألة بالنسبة إلينا أكثر بساطة.

اليوم وهنا، هدفنا هو الوصول إلى الربيع، ولا نهتم بشيء آخر الآن. ووراء هذه الغاية لا يوجد الآن غاية أخرى. وفى الصباح، عندما ننتظر بلا نهاية ساعة الرحيل للعمل، فى طابور فى ميدان النداء، وكل نفحة من الرياح تتسلل تحت ملابسنا وتجرى فى رجفات عنيفة عبر أجسادنا الضعيفة، وكل شيء رمادى حولنا، ونحن رماديون، فى الصباح، عندما لا تزال الدنيا مظلمة، كلنا نحدق إلى السماء تجاه الشرق لتحسس البشائر الأولى للموسم المعتدل، وبزوغ الشمس يجرى التعليق عليه كل يوم: اليوم مبكرا قليلا عن أمس، اليوم أكثر حرا قُليلا من أمس، وبعد شهر، سيمنحنا البرد هدنة، وسينقص أعداؤنا واحدا.

اليوم للمرة الأولى بزغت الشمس حية وواضحة خارجٍ أفق الطين؛ إنها شمس بولندية باردة بيضاء وبعيدة ولا تسخن

سوى الجلد، ولكن عندما انفصلت عن الضباب الأخير، سرى همس حول جمعنا الذى لا لون له، وعندما أحسست أنا أيضًا بالدفء تحت ملابسى، أدركت كيف يمكن عبادة الشمس.

قال زيجلر وهو يمد كتفيه المدببتين فى الشمس: لقد مر الأسوأ. وكانت بجوارنا جماعة من اليونانيين من سالونيك، من أولئك اليهود الرائعين الأفذاذ، المعاندين، اللصوص، الحكماء، المتوحشين والمتضامنين، والعازمين على العيش هكذا، خصوما لا يرحمون فى الكفاح من أجل الحياة، من أولئك اليهود الذين تفوقوا فى المطابخ وفى موقع العمل، والذين يحترمهم حتى الألمان ويخشاهم البولنديون. إنهم فى عامهم الثالث فى المعسكر ولا أحد أفضل منهم يعرف ما المعسكر؛ والآن يقفون وقد انضموا فى دائرة، جنبا إلى جنب، ويغنون واحدة من أغانيهم التى لا تنتهى.

فليتشو اليونانى يعرفنى، ويصيح قائلاً لى: «العام القادم فى البيت... فى البيت بجوار المدفأة!" فليتشو كان فى بيركناو. ويستمرون فى الغناء، ويضربون الأرض بأقدامهم فى إيقاع معين، ويسكرون من الغناء.

وعندما خرجنا نهائيا من بوابة المعسكر الكبيرة، كانت الشمس مرتفعة إلى حد ما وكانت السماء صافية. ونرى الجبال

عند منتصف النهار، وناحية الغرب بـــرج أجـــراس أوشـــفيتز، المألوف وغير المناسب (هنا برج أجراس!) وحولنا فى كل مكان المناطيد المقيدة فى الخط الدفاعى. أدخنة بونا تركد فى الهـــواء البارد، وكان يُرى أيضًا صف من التلال المنخفضة الخـــضراء بالغابات، وقد شعرنا بغصّة فى قلوبنا، لأننا نعلم جميعـــا أنهـــا بيركناو، وهناك انتهى المآل بزوجاتنا، وسرعان ما سينتهى بنا الحال نحن أيضًا إلى هناك، ولكننا لم نعتد رؤيته.

وللمرة الأولى تنبهنا إلى أن البساتين خضراء هنا أيـــضًا، على جانبَى الطريق، لأنه لو لم تكن هناك شمس لما كان هنـــاك بستان أخضر.

بونا لا، إن بونا معتمـــة ورماديـــة بـــصورة مـــستميتة وأساسية، فهذا التشابك الذى لا ينتهى من الحديـــد والأســـمنت والطين والدخان هو إنكار للجمال، وشوارعها ومبانيها تـــسمى مثلنا، بأرقام أو حروف، أو بأسماء غيـــر إنـــسانية ومـــشئومة. وداخل سياجها لا ينمو خيط مـــن العـــشب، والأرض مـــشبعة بالعصائر السامة للكربون والبترول، ولا شىء حى سوى الآلات والعبيد، والآلات أكثر من العبيد.

وبونا كبيرة كالمدينة، ويعمل فيها علاوة علـــى المـــديرين والفنيين الألمان أربعون ألفا من الأجانب، ويتحدث النـــاس فيهـــا

خمس عشرة أو عشرين لغة. وكل الأجانب يسكنون فى معسكرات اعتقال مختلفة تشكل دائرة حول بونا: معسكر اعتقال أسرى الحرب الإنجليز، معسكر اعتقال النساء الأوكرانيات، معسكر اعتقال المتطوعين الفرنسيين، وآخرين لا نعرفهم، ومعسكر اعتقالنا (معسكر اليهود، معسكر الهاربين، Kazett) يقدم وحده عشرة آلاف من العاملين القادمين من جميع الدول الأوروبية، ونحن عبيد العبيد، الذين يستطيع الجميع قيادتهم، واسمنا هو الرقم الذى نحمله منقوشا بالوشم على الذراع ومحيكًا على الصدر.

وبرج الكربيد، الذى يبرز وسط مصنع بونا والذى نادرا ما نَرى قمته وسط الضباب، نحن الذين شيدناه، وقد سُمِّىَ طوبُهُ بكل اللغات، وكسته الكراهية بالأسمنت، الكراهية والخلاف مثل برج بابل، وهكذا نحن نسميه: Babelturm, Babelturm، ونكره فيه حلم العظمة المعتوه لدى ساداتنا، واحتقارهم لله وللبشر، نحن البشر.

واليوم أيضًا، كما فى الأسطورة القديمة، نشعر جميعا، والألمان أنفسهم يشعرون بأن لعنة ليست غامضة وسماوية، ولكنها واقعية وتاريخية، تجثم فوق العالم المتعجرف، القائم على فوضى اللغات والمشيد، فى تحدٍّ للسماء، كتجديف على الله، مصنوع من الحجر.

كما سنقول إن مصنع بونا، الذى اجتهد الألمان حوله لأربع سنوات، وعانينا نحن فيه ومتنا بأعداد لا تحصى، لم يخرج منه كيلوجرام واحد من المطاط الصناعى.

ولكن برك الماء الأبدية اليوم، التى ترتعش فوقها طبقة رقيقة من البترول ملونة بألوان قوس قزح، تعكس السماء الصافية. مواسير وكمرات وغلايات، لا تزال باردة من صقيع الليل، يتساقط منها الندى، وتعكس الأرض المقلوبة بسبب الحفائر وأكوام الكربون، وكتل الأسمنت، وتتصاعد رطوبة الشتاء على شكل ضباب خفيف.

اليوم يوم طيب. ننظر حولنا، كعميان يستعيدون البصر، وينظر كل منا إلى الآخر. لم ير أحد منا الآخر فى الشمس. البعض يبتسم. لو لم يكن الجوع...!

لأن هذه هى الطبيعة البشرية، فإن الآلام والمواجع التى نعانى منها فى الوقت نفسه لا تتجمع بالكامل فى شعورنا، ولكنها تختبئ، الصغرى وراء الكبرى، طبقا لقانون متوقَّعٍ محدد، وهذا من العناية الإلهية، التى تسمح لنا بالعيش فى المعسكر، وهذا أيضًا هو السبب فى أنه غالبا ما يحدث، فى الحياة الحرة، أن نسمع من يقول إن الإنسان لا يمكن إرضاؤه؛ ففى حين لا يتعلق الأمر بعجز إنسانى بسبب حالة من الرخاء المطلق، ولكن

بمعرفة غير كافية دائمًا بالطبيعة المعقدة للتعاسة التى نطلق على أسبابها، المتعددة والمرتبة هرميا، اسما واحدا، هو اسم السبب الأكبر، حتى يضعف هذا السبب الأكبر فى النهاية، وعندئذ نندهش فى ألم عندما نرى أن وراءه سببًا آخر، وسلسلة من الأسباب الأخرى فى واقع الأمر.

ولهذا فإنه بمجرد أن توقف البرد الذى بدا لنا العدو الوحيد طوال الشتاء، تنبهنا إلى أن لدينا الجوع، وبتكرار الخطأ نفسه، نقول اليوم هكذا: "لو لم يكن الجوع...!"

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يفكر فى ألا يجوع؟ إن معسكر الاعتقال هو الجوع بعينه، ونحن أنفسنا الجوع، جوع حىّ.

ووراء الطريق تعمل رافعة، ويفتح الخُطَّاف المعلق بالكابلات فكيَّه المسننين، ويحوم لحظة كما لو كان مترددا فى الاختيار، ثم يندفع نحو الأرض الصلصالية والناعمة، ويعض بنهم، بينما تصعد من مقصورة القيادة نفخة راضية من الدخان الأبيض والكثيف، ثم ترتفع من جديد وتقوم بنصف دورة، وتتقيَّأ للخلف القضمة التى أثقلتها، وتبدأ من جديد.

ونقف نحن للفرجة مسحورين، مستندين إلى مجارفنا، وعند كل قضمة للخطاف، تُفتح الأفواه قليلا، وتتراقص تفاحات

آدم إلى أعلى ثم إلى أسفل، وهى واضحة فى بؤس تحت الجلد الرخو. ولا نستطيع أن ننتزع أنفسنا من مشهد وجبة الرافعة.

"سيجى" يبلغ من العمر سبعة عشر عاما، ويشعر بجوع أكثر من الجميع مهما تلقى كل مساء قليلا من الحساء من حاميه، الذى يُحتمل أن تكون له مصلحة فى ذلك. كان قد بدأ بالحديث عن بيته فى فيينا وعن والدته، ولكنه تطرَّق بعد ذلك لموضوع المطبخ، والآن يحكى دون توقف عن غذاء ليلة الزفاف، ويذكر بأسى حقيقى أنه لم يفرغ من الطبق الثالث من حساء الفاصوليا. والجميع يجعلونه يصمت، ولا تمر عشر دقائق، حتى يقوم "بيلا" بوصف ريفه المجرى وحقول الذرة، ووصفة لعمل العصيدة الحلوة، بالذرة المحمصة ودهن الخنزير والتوابل، و... ويلعن ويشتم. ويبدأ ثالث فى الحكى...

كم هو ضعيف لحمنا! إننى أدرك تمامًا مدى عدم جدوى خيالات الجوع هذه، ولكننى لا أستطيع انتزاع نفسى من القانون المشترك، وتتراقص أمام عينَىَّ المكرونة التى طبخناها للتو، فاندا ولوتشانا وفرانكو وأنا، فى إيطاليا فى معسكر التوزيع عندما جاءنا فجأة الخبر بأننا فى اليوم التالى سنرحل لكى نأتى إلى هنا، وكنا نأكلها (وكانت طيبة وصفراء وصلبة)، وقد توقفنا، نحن البُلْه، نحن الحمقى، لو كنا نعلم ذلك! ولو حدث هذا مرة

أخرى... أمر سخيف. إذا كان هناك شيء مؤكد فى العالم، فمن الأفضل أن يكون هذا: أن هذا لن يحدث لنا مرة أخرى.

فيشر، آخر من وصلوا، يُخرِج من جيبه صرّة معبأة بدقة المجريين، وبداخلها نصف وجبة خبز، نصف خبز هذا الصباح. ومن المعروف أن الأرقام الكبيرة فقط تحتفظ فى جيبها بخبزها، ولا أحد منا نحن المسنين يستطيع الاحتفاظ بالخبز لمدة ساعة. وهناك العديد من النظريات المطروحة لتبرير عجزنا هذا، فالخبز الذى يؤكل قليلا فى كل مرة لا يُهضم كاملا، والتوتر العصبى اللازم للاحتفاظ بالخبز، مع الشعور بالجوع، دون أن تأكل منه، ضارٌ وموهن إلى حدّ كبير، والخبز الذى يصبح غير طازج يفقد بسرعة قيمته الغذائية، ولهذا فكلما أسرعنا بالتهامه، أصبح مغذيا، ويقول ألبرتو إن الجوع والخبز فى الجيب هما قيمتان مضافتان ذواتا علامة معاكسة، ويلغى كل منهما الآخر آليا بالتبادل، ولا يمكنهما الوجود معًا فى الوقت نفسه عند الشخص نفسه، وأكثر الناس يؤكد فى النهاية بحق أن المعدة هى الخزانة الأكثر أمانا ضد السرقات وعمليات الابتزاز. وقد زمجر ديفيد وهو يضرب معدته المقعرة: «أنا لم يسرق أحد قط خبزى»! ولكنه لا يستطيع أن يصرف عينيه عن فيشر الذى يمضغ ببطء وانتظام، "المحظوظ " الذى لا يزال يمتلك نصف وجبة فى العاشرة صباحا وهو يقول: ... sacré veinard, va!

اليوم يوم فرحة، ولكن ليس فقط بسبب الشمس، ففى منتصف النهار هناك مفاجأة تنتظرنا، فعلاوة على وجبة الصباح العادية، نجد فى الثكنة إناء رائعا سعة خمسين لترا، من نوع أوانى مطبخ المصنع، ممتلئا تقريبا. وينظر تمبلر إلينا منتصرا؛ فهذا "التنظيم" من عمله.

تمبلر هو المنظم الرسمى لقيادتنا ويتمتع بحساسية مميزة بالنسبة إلى حساء المدنيين، مثل النحل بالنسبة إلى الأزهار. ورئيسنا الذى لا يعد رئيسا سيئا، يترك له حرية الحركة، وبالعقل، يبدأ تمبلر باتباع مسارات تدريجية، مثل الكلب البوليسى، ويعود بالخبر الثمين بأن العمال البولنديين فى الميثانول، على بعد كيلومترين من هنا، قدموا أربعين لترا من الحساء لأن طعمه كان زَنِخًا، أو أن عربة من البنجر تقف بلا حراسة على الرصيف الميت لمطبخ المصنع.

اليوم اللترات خمسون، ونحن خمسة عشر، بما فى ذلك الرئيس ورئيس العمال. إنها ثلاثة لترات لكل فرد؛ واحد سنحصل عليه فى منتصف النهار، علاوة على الوجبة العادية، وبالنسبة إلى الاثنين الآخرين، فإننا سنذهب بالدور بعد العصر إلى الثكنة، وسوف نُمنح بصورة استثنائية خمس دقائق من التوقف عن العمل من أجل الشبع الكامل.

ماذا يمكن أن نريد أكثر من ذلك؟ العمل أيضًا يبدو لنا خفيفا، مع توقع الحصول على لترين مركزين وساخنين ينتظراننا فى الثكنة. وبصورة دورية يجىء الرئيس عندنا، وينادى:

- من لم يأكل بعد؟

وهذا ليس على سبيل الاحتقار أو السخرية ولكن تناولنا الطعام فى الواقع ونحن واقفون، وفى غضب، ونحن نلسع فمنا وحلقنا، دون أن يكون لدينا الوقت للتنفس، إنه "fressen"، أكل حيوانات، وليس بالطبع "essen"، أكل بشر، جالسين أمام مائدة، كما يقضى بذلك الدين. "fressen" هو اللفظ المناسب، وهو المستخدم بصورة شائعة بيننا.

الرئيس نوجاللا يشهد الموقف، ويغض الطرف عن تغيبنا عن العمل. والرئيس نوجاللا أيضًا يبدو عليه أنه جوعان ولو لم تكن هناك ضرورات اجتماعية، لما رفض ربما لترا واحدا من حسائنا الساخن.

ويجىء الدور على تمبلر الذى خصصت له بوفاق استفتائى خمس لترات أخذت من قاع الإناء؛ لأن تمبلر، علاوة على أنه منظم جيد، فإنه آكل استثنائى للحساء، والشىء الفريد هو أنه يستطيع أن يفرغ معدته، بصورة إرادية ووقائية، ترقبا لوجبة ضخمة، وهو ما يسهم فى قدرته المعدية المذهلة.

وهو فخور بحق بموهبته هذه، والجميع، وأيضًا الـرئيس نوجاللا، على علم بذلك. ويغلق تمبلر الخيّر الباب علـى نفـسه لبضع لحظات فى المرحاض، مصحوبا بعرفان الجميع، ويخرج مشعا وجاهزا ويتجه بين التعاطف العام، للتمتع بثمرة عمله:

- هل أفسحت، يا تمبلر، مكانا للحساء؟

وعند الغروب ترن سارينة نهاية العمل، وبما أننا جميعا، على الأقل لبضع ساعات، ممتلئون، فإنه لا تظهر مـشاجرات، ونشعر بأننا طيبون، ولا يندفع الرئيس لضربنا، ونصبح قادرين على التفكير فى أمهاتنا وزوجاتنا، وهو مـا لا يحـدث عـادة. ولبضع ساعات، يمكن أن نكون تعساء على طريقـة الرجـال الأحرار.

ما قبل الخير والشر

كان عندنا ميل لا يقوَّم لرؤية رمز وعلامة فى كل حدث، فمنذ سبعين يوما ونحن ننتظر الـــــ Wäschetauschen، وهـــو احتفال تغيير البياضات، وكانت هناك شائعة تدور بإلحاح أنه لا توجد بياضات للتغيير، بسبب تقـــدم الجبهـــة، وكـــان الألمـــان ممنوعين من إمكانية العمل على تدفق شحنات نقل جديدة إلـــى أوشفيتز، و"لهذا" فإن التحرير كان قريبا. وفى خط موازٍ، كـــان هناك التفسير المضاد بأن التأخير فى التغيير علامة مؤكدة على تصفية كاملة قريبة للمعسكر. ولكن التغيير جـــاء، وكمـــا هـــى العادة، وضعت إدارة معسكر الاعتقال كل عناية حتى يتم فجأة، وفى الوقت نفسه فى كل الثكنات.

ولا بد أن نعرف فى الواقع أن القماش غير موجود وهـــو شىء ثمين، وأن الطريقة الوحيدة أمامنا للحصول علـــى خرقـــة لننظف الأنف بها أو خرقة لمسح الأرجل، هى أن نقطع طرفـــا من قميص لحظة التغيير. وإذا كان بأكمام طويلة، تقطع الأكمام، وإذا لم يحدث ذلك فإننا سنرضى بقطعة مستطيلة من القـــاع، أو سنفكُّ واحدة من الرقع العديدة. وعلى أى حال، لا بد من بعض الوقت للحصول على إبرة وفتلة لإتمام العملية بـــبعض الفـــن،

بحيث لا يكون العطب واضحا جدًا عند عملية التسليم. والبياضات القذرة والممزقة تنتقل عشوائيا إلى ترزى المعسكر، حيث ترفى بالجملة، ثم تنتقل إلى التعقيم بالبخار (وليس الغسيل!)، ثم يعاد توزيعها بعد ذلك، ومن هنا تظهر ضرورة العمل على إجراء عمليات التبديل بصورة مفاجئة، للحفاظ على البياضات المستخدمة من عمليات البتر المشار إليها.

ولكن كما هى العادة دائمًا، لم نستطع تجنب اختراق بعض النظرات الثاقبة تحت مشمع العربة التى كانت تخرج من التعقيم، بحيث استطاع المعسكر أن يعرف فى بضع دقائق الموعد الوشيك لتغيير البياضات، وأن الأمر، علاوة على ذلك، كان يتعلق هذه المرة بقمصان جديدة، قادمة من شحنة من المجريين وصلت منذ ثلاثة أيام.

كان للخبر دوى فورى، وكل من يملكون دون وجه حق قمصانا ثانية، مسروقة أو مرتبة، أو ربما مشتراة بأمانة بالخبز للاحتماء من البرد أو لاستثمار رأسمال فى لحظة رخاء، هرولوا إلى البورصة، على أمل الوصول فى الوقت المناسب لإعادة استبدال سلع استهلاكية بقميصهم قبل أن تؤدى موجة القمصان الجديدة، أو اليقين بوصولها، إلى خفض فى سعر السلعة يتعذر علاجه.

والبورصة فى غاية النشاط دائمًا، وعلى الرغم من أن أى استبدال (بل أى شكل من أشكال الامتلاك) محظـور صـراحة، وعلى الرغم من أن عمليات تمشيط متكررة لرؤساء أو قـدامى الثكنة تجتاح فى عملية هروب واحدة تجارا وزبائن وفـضوليين، فإنه بمجرد أن تعود الفرق من العمل وخـصوصًا فـى الـركن الشمالى الشرقى من معسكر الاعتقال (وخصوصًا فـى الـركن الأبعد عن ثكنات الشرطة السرية النازية)، يجلس بـصفة دائمـة تجمع صاخب، فى الهواء الطلق فى الصيف، داخل مغسلة شتوية.

وهنا يتجول بالعشرات، بشفاة مواربة وعيـون لامعـة، يائسو الجوع، الذين تدفعهم غريزة خاطئة إلى هناك حيث تجعل البضائع المعروضة ألم المعدة أشد حدة واللعاب أكثر غـزارة. وهم مزوَّدون، فى أحسن الحالات بنصف وجبة الخبز البائـسة التى ادخروها من الصباح بجهد متعمَّد، على أمل أبله بأن تسنح الفرصة بمقايضة مربحة مع بعض السذج، غير العارفين بأسعار اللحظة. وبعض هؤلاء، بصبر وحشيّ، يشترون بنصف الوجبة لترا من الحساء الذى يقومون، فى خفيـة، بإخـضاعه لعمليـة منظمة لاستخراج قطع البطاطس القليلة الجاثمة على القاع، وبعد أن يقوموا بذلك يستبدلون به الخبز وبالخبز لترًا جديدًا لتغييـره، وهذا حتى انهيار الأعصاب، أو حتى يلقنهم بعض المتضررين،

عند الإمساك بهم متلبسين، درسا قاسيا، بتعريضهم للاحتقار العام. وينتمى إلى النوعية نفسها أولئك الذين يأتون إلى البورصة لبيع قميصهم الوحيد، وهم يعلمون جيدًا ما سيحدث، فى المناسبة القادمة، عندما سيكتشف الرئيس أنهم عرايا تحت السترة، وسيسألهم الرئيس ماذا فعلوا بالقميص، وهو مجرد سؤال نمطى وإجراء شكلى يُستخدم فقط للدخول فى الموضوع. وهم سيردون بأن القميص سُرق فى المغسلة، وهذا الرد أيضًا رد نمطى، ولا يُفترض أن أحدا سيصدقه، وبالفعل فإن أحجار معسكر الاعتقال أيضًا تعلم أن من لا يملك قميصا فإنه يكون قد باعه بسبب الجوع بنسبة تسعة وتسعين فى المائة، وأنهم مسئولون عن قميصهم لأنه يخص معسكر الاعتقال. وعندئذ يقوم الرئيس بضربهم، ويسلِّمون قميصا آخر، وعاجلا أم آجلا سيعيدون الكرّة.

ويستقر التجار المحترفون فى البورصة، كل فى ركنه المعتاد، وأول هؤلاء هم اليونانيون، الساكنون والصامتون مثل أبى الهول، جاثمين على الأرض وراء أطباق الحساء الكثيف، ثمرة عملهم، وصفقاتهم وتضامنهم القومى. وقد أصبح عدد اليونانيين الآن قليلا للغاية ولكنهم شاركوا بإسهام بارز فى ملامح المعسكر، وفى اللغة العامية الدولية التى تدور فيه. فالكل

يعرف أن "caravana" هى القصعة، وأن عبـــارة "la comedera es buena" تعنى الحساء جيد، والكلمة التى تعبر عـــن الفكـــرة العامة للسرقة هى "klepsi-klepsi"، وهى من أصـــل يونـــانى واضح. وهؤلاء القلة من الباقين على قيد الحياة مـــن الجاليـــة اليهودية فى سالونيك، ذات اللغة المزدوجة، الإسبانية والهيلينية، والأنشطة المتعددة، يمتلكون حكمة واقعيـــة ودنيويـــة واســـعة تتضافر فيها تقاليد كل حضارات البحر المتوسط. وظهور هـــذه الحكمة فى المعسكر من خلال الممارســـة المنتظمـــة والعلميـــة للسرقة والهجوم على المناصب، واحتقار بورصة المقايضات، لا يجب أن ينسينا أن نفورهم من الوحشية التـــى لا مبـــرر لهـــا، ووعيهم المدهش باستمرار بعض الكرامة الإنسانية المحتملة على الأقل، كان يجعل من اليونانيين فى معـــسكر الاعتقـــال النـــواة القومية الأكثر تلاحما والأكثر تحضرا، من هذه النواحى.

ويمكنك أن تجد فى البورصة المتخصصين فى ســـرقات المطبخ، مع السترات المرفوعة من انتفاخات غامـــضة. بينمـــا يوجد للحساء ثمن ثابت تقريبًا (نصف وجبة خبز للتر)، وتسعير البنجر والجزر والبطاطس يخضع للأهواء إلـــى أقـــصى حـــد، ويتوقف بشدة، إلى جانب عوامل أخرى، أيضًا على همَّة حراس الوردية فى المخازن وقابليتهم للرشوة.

ويباع هنا الماهوركا؛ والماهوركا تبغ ردىء، على شكل شظايا خشبية، وهو يباع رسميا فى الكانتين، فى علب صغيرة زنة خمسين جراما، فى مقابل دفع "بونات-جوائز" يتعين على بونا توزيعها على أفضل العاملين. وهذا التوزيع يتم بصورة غير منتظمة، بتقتير شديد وظلم بيّن، بحيث تنتهى معظم البونات، مباشرة أو لسوء استخدام السلطة، لأيدى الرؤساء والبارزين، ومع ذلك فإن البونات الجوائز الخاصة ببونا يجرى تداولها فى سوق معسكر الاعتقال على أنها عملة وقيمتها متغيرة وتخضع تمامًا لقوانين الاقتصاد الكلاسيكى.

وقد كانت هناك فترات دُفع فيها للبون الجائزة جراية واحدة، ثم جراية وربع، وأيضًا جراية وثلث، وفى يوم من الأيام كان سعره جراية ونصف، ثم تناقص إمداد الكانتين بالماهوركا، وبالتالى فإنه مع نقص الغطاء هوت العملة فجأة إلى ربع جراية. وقد مرت فترة أخرى من الارتفاع الراجع لسبب فريد من نوعه: تغيير الحراسة فى بلوك النساء مع وصول مجموعة من الفتيات البولنديات القويات. وبالفعل، بما أن البون - الجائزة يصلح (بالنسبة إلى المجرمين والساسة، وليس إلى اليهود الذين لا يعانون من ناحية أخرى من التحديد) لدخول بلوك النساء، فإن المعنيين بالأمر قاموا بنشاط وسرعة باختزانها، ومن هنا جاءت إعادة التقييم، التى لم تدم طويلا فى الوقت نفسه.

ومن بين المعتقلين العاديين هناك عدد غير كبير من الذين يبحثون عن الماهوركا لتدخينها شخصيا؛ وغالبًا ما تخرج من المعسكر وتنتهى عند العاملين المدنيين فى بونا. وهذا نظام للتكيف شائع جدًا: المعتقل، يوفر بصورة ما جراية من الخبز، ويستثمرها فى الماهوركا، ويتصل بحذر بأحد "الهواة" المدنيين، الذى يشترى الماهوركا بالقيام بالدفع نقدا، بجرعة من الخبز أكبر من الجرعة المرصودة مبدئيا. ويأكل المعتقل هامش الربح ويعيد إلى الدورة الجراية المتبقية. مضاربات من هذا النوع تقيم رابطة بين الاقتصاد الداخلى للمعسكر والحياة الاقتصادية للعالم الخارجى، فعندما نقص فجأة توزيع التبغ على السكان المدنيين فى كراكوفيا، كان للحدث، بعد تجاوزه حاجز الأسلاك الشائكة الذى يفصلنا عن المجتمع الإنسانى، انعكاس فورى فى المعسكر، مما أثار ارتفاعًا واضحًا فى تسعير الماهوركا، وبالتالى فى البون - الجائزة.

والحالة الموضحة عاليه ليست سوى صورة مبسطة؛ فهناك صورة أكثر تعقيدا هى التالية: المعتقل يشترى عن طريق الماهوركا أو الخبز، أو ربما يحصل كهدية، من أحد المدنيين، على أى قميص كريه وممزق وقذر ومهلهل، ولكنه لا يزال مزوّدا بثلاث فتحات مناسبة ليُدخل فيها بأى طريقة ذراعيه ورأسه. ومثل هذا الشيء، عند تغيير البياضات، يصلح كقميص،

ويعطى الحق فى التغيير، بشرط ألا يحمل سوى علامات استهلاك، وليس عمليات بتر تمت بصورة مصطنعة، ومن يعرضه سيتمكن على الأكثر من الحصول على جرعة مناسبة من الضربات لأنه لم يعتنِ كثيرا بالحفاظ على الملابس العهدة.

ولهذا فإنه فى داخل معسكر الاعتقال، لا يوجد فارق كبير فى القيمة بين قميص جدير بهذا الاسم وخرقة مليئة بالرقع، والمعتقل المذكور عاليه لن يجد صعوبة فى العثور على زميل يمتلك قميصا فى حالة تجارية، ولا يستطيع تقدير قيمته لأنه لا علاقة له بالعاملين المدنيين، لأسباب تتعلق بموقع العمل أو اللغة أو العجز الدفين. وهذا الأخير سيقنع بكمية متواضعة من الخبز لقبول التغيير، وبالفعل فإن تغيير البياضات القادم سيعيد التوازن بصورة ما بتوزيع بياضات جيدة أو سيئة بصورة عرَضية تمامًا. ولكن المعتقل الأول سيستطيع تهريب القميص الجيد إلى بونا وبيعه للمدنى الأول (أو لأى شخص آخر) فى مقابل أربع أو ست أو حتى عشر جرايات من الخبز. وهذا الهامش المرتفع جدًّا من الربح يعكس جسامة خطر الخروج من المعسكر بأكثر من قميص ملبوس، أو العودة إليه دون قميص.

هناك تغييرات كثيرة حول هذا الموضوع، هناك من لا يتردد فى خلع الطرابيش الذهبية لأسنانه لكى يبيعها فى بونا فى

مقابل الخبز أو التبغ، ولكن الحالة الأكثر شيوعا هى أن تتم هذه التجارة عن طريق وسيط. و"الرقم الكبير"، أى الشخص الجديد الذى وصل منذ قليل ولكن مظهره كان وحشيا جدًّا من الجوع والتوتر البالغ من حياة المعسكر، يلاحظه "رقم صغير" من أجل بعض تركيبات الأسنان الغالية، ويقدم "الصغير" لـ "الكبير" ثلاث أو أربع جرايات من الخبز عدًّا ونقدا لكى يخضع للخلع. وإذا قبل الكبير فإن الصغير يدفع، ويأخذ الذهب معه إلى بونا، وإذا كان على اتصال بمدنى موضع ثقة لا يخشى منه الوشاية أو الخداع، فإنه يمكنه بلا شك تحقيق ربح يتراوح من عشر حتى عشرين أو أكثر من الجرايات التى تُعطى له بالتدريج، واحدة أو اثنتان فى اليوم. ونلاحظ فى هذا الصدد، على خلاف ما يحدث فى بونا، أن أربع جرايات من الخبز تمثل أقصى سعر للصفقات التى تُبرم داخل المعسكر، لأنه قد يكون من المستحيل عمليا هنا إبرام عقود للدفع آجلا، أو الاحتفاظ بكمية أكبر من الخبز من جشع الآخرين ومن جوع الشخص نفسه.

والاتجار مع المدنيين عنصر مميز لمعسكر العمل، وكما رأينا فإن الحياة الاقتصادية تتأثر به، وهى فى الوقت نفسه جريمة منصوص عليها صراحة فى لائحة المعسكر وتُشبَّه بالجرائم "السياسية"؛ ولذا فإنه يعاقَب عليه بقسوة خاصة. والمعتقل المقتنع بأنها "تجارة مع مدنيين"، إذا كان لا يملك

مساندات مؤثرة، فإنه ينتهى إلى جلايفيتز ٣، أو إلى جانينا، أو إلى هايديبريك فى مناجم الفحم، وهو ما يعنى الموت من الانهيار فى بحر بضعة أسابيع. وعلاوة على ذلك، فإن نفس العامل المدنى شريكه يمكن أن يدان من قِبَل السلطة الألمانية المختصة، ويحكم عليه بأن يمضى فى السجن المشدد، فى ظروفنا نفسها فترة تتراوح، حسب علمى، من خمسة عشر يوما إلى ثمانية أشهر. والعمال الذين يُطبَّق عليهم هذا النوع من الانتقام يضطرون مثلنا إلى خلع ملابسهم عند المدخل، ولكن حوائجهم الشخصية يُحتفظ بها فى مخزن خاص. ولا يجرى نقشهم بالوشم ويحتفظون بشعورهم، وهو ما يجعل التعرف عليهم سهلا، ولكنهم يكونون خاضعين طوال فترة العقوبة لنفس عملنا ولنفس نظامنا، باستثناء العمليات الانتقائية بالطبع.

وهم يعملون فى قيادات خاصة، وليست لهم اتصالات من أى نوع مع المعتقلين العاديين. وبالفعل فإن معسكر الاعتقال بالنسبة إليهم يمثل عقابا، وهم إذا لم يموتوا من التعب أو المرض، فإن أمامهم إمكانيات كبيرة للعودة بين البشر، وإن استطاعوا التواصل معنا فإن هذا قد يمثل ثغرة فى الجدار الذى يجعلنا موتى فى العالم وانفراجة حول اللغز الذى يسود بين الرجال الأحرار حول حالتنا. ولكن معسكر الاعتقال بالنسبة إلينا ليس عقابا، وبالنسبة إلينا لا يوجد حد متوقع، ومعسكر الاعتقال

ليس سوى نوع من الوجود خُصِّص لنا، دون حدود زمنية، داخل الكيان الاجتماعى الألمانى.

وهناك قطاع من معسكرنا نفسه مخصَّص بالضبط للعاملين المدنيين، من كل الجنسيات، الذين يتعين عليهم أن يقيموا فيه لوقت طويل نسبيا كتكفير عن علاقاتهم غير المشروعة مع المعتقلين. وهذا القسم مفصول عن باقى المعسكر، عن طريق سلك شائك، ويسمى معسكر الاعتقال «إى» ويسمى نزلاؤه النزلاء «إى»، و"إى" هو الحرف الأول من كلمة "Erziehung"، التى تعنى "التربية".

وكل المصادفات التى ارتسمت حتى الآن تقوم على تهريب المواد الخاصة بمعسكر الاعتقال، ولهذا فإن أفراد الشرطة السرية صارمون جدًّا فى قمعه، فالذهب نفسه المركَّب فى أسناننا ملكهم، لأنه منتزع من فكوك الأحياء أو الأموات، وسرعان ما ينتهى كل شىء إلى أيديهم. ومن الطبيعى إذن أن يجتهدوا حتى لا يخرج الذهب من المعسكر.

ولكن إدارة المعسكر لا تقوم بأية وقاية ضد السرقة فى حد ذاتها، وهذا ما يبرهن عليه موقف التواطؤ التام الذى أظهرته قوات الشرطة السرية فيما يتعلق بالتهريب المعاكس.

والأمور هنا أكثر بساطة بصورة عامة؛ فالأمر يتعلق بسرقة أو استلام إحدى المعدات المختلفة والأدوات والمواد والمنتجات... إلخ، التى نتصل بها يوميا فى بونا لأسباب تتعلق بالعمل، وإدخالها للمعسكر مساء، وإيجاد الزبون، وتنفيذ المقايضة فى مقابل الخبز أو الحساء. وهذا الاتجار فى غاية الكثافة بالنسبة إلى بعض السلع، التى هى أيضًا ضرورية للحياة الطبيعية لمعسكر الاعتقال، وأسلوب السرقة فى بونا، هو الأسلوب الوحيد والمنتظم للتزود بالإمدادات. وتبرز هنا سرقات المقشات والطلاء والسلك الكهربى وشحم الأحذية، ويكفى كمثال الاتجار فى هذه البضاعة الأخيرة.

وكما أشرنا فى مواضع أخرى، فإن القاعدة فى المعسكر تنص على أن الأحذية يجب أن تُدهن وتُلَمَّع كل صباح، وكل قائد ثكنة مسئول أمام أفراد الشرطة السرية عن الالتزام بالتعليمات من قبل كل الرجال فى ثكنته. وبالتالى يمكن أن نعتقد أن كل ثكنة تتمتع بتخصيص دورى من شحم الأحذية، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فالآلية مختلفة. لا بد أن نقول مقدما إن كل ثكنة تتلقى مساء، مخصصا من الحساء أعلى إلى حد ما من مجموع الجرايات الاعتيادية، والزيادة توزَّع تبعا لتحكُّم قائد الثكنة، الذى يأخذ منها، بالدرجة الأولى، الهدايا لأصدقائه ومن

يحميهم، وفى المرتبة الثانية، المكافآت الواجبة للكناسين والحراس الليليين والمفتشين عن القمل وكل الموظفين الآخرين البارزين فى الثكنة، وما يتبقى بعد ذلك (وكل قائد ثكنة حريص يتصرف بحيث يتبقى منها شيء دائما) يُستخدم بالتحديد للمشتريات.

والباقى مفهوم، فأولئك المعتقلون الذين يتصادف أن تتاح لهم الفرصة لملء أطباقهم بالشحم أو زيت السيارات (أو شيء آخر أيضًا: أىّ مادة مسودَّة ومشحَّمة تُعدُّ مناسبة للغرض)، بمجرد الوصول مساء إلى المعسكر، يقومون بانتظام بجولة فى الثكنات، حتى يجدوا قائد الثكنة الذى لا توجد عنده السلعة أو ينوى تخزين كمية منها. وكل ثكنة لها فى الوقت نفسه مُورِّدها المعتاد، الذى اتفق معه على مكافأة ثابتة يومية، بشرط أن يورِّد له الشحم فى كل مرة يوشك فيها المخزون على النفاد.

وفى كل مساء، تقف فى صبر بجوار أبواب حجرة النهار مجموعات المورِّدين الواقفين على أقدامهم لساعات وساعات تحت المطر أو الجليد، ويتحدثون بحماس بصوت خفيض عن مسائل متعلقة بتغيرات الأسعار وقيمة البون - الجائزة. وبين الحين والحين ينفصل أحدهم عن المجموعة، ويقوم بزيارة قصيرة للبورصة، ويعود بآخر الأخبار.

وعلاوة على السلع المذكورة من قبل، هناك سلع لا تُحصَى يمكن العثور عليها في بونا ويمكن أن تكون مفيدة للبلوك، أو مقبولة لدى قائد الثكنة، أو تثير اهتمام الرؤساء أو فضولهم. مصابيح صغيرة، فرش، صابون عادى وللحلاقة، مبارد، بنسات، أكياس، مسامير... ويُباع الكحول المثيلى الذى يصلح لصنع المشروبات، والبنزين الذى يصلح للولاعات البدائية، وهى معجزات الصناعة السرية للحرفيين فى معسكر الاعتقال.

وفى هذه الشبكة المعقدة من السرقات والسرقات المضادة، التى يغذيها العداء الدفين بين قيادات الشرطة السرية والسلطات المدنية فى بونا، هناك وظيفة بارزة تقوم بها العيادة. والعيادة هى المكان الذى يتميز بمقاومة أقل، وهو الصمام الذى يمكن منه الهروب بسهولة من اللوائح والإفلات من مراقبة الرؤساء، والجميع يعلمون أن الممرضين أنفسهم هم الذين يطرحون فى السوق من جديد، وبسعر منخفض، ملابس وأحذية الموتى، والمختارين الذين يسافرون عرايا إلى بيركناو. الممرضون والأطباء هم الذين يصدّرون إلى بونا مركّبات السلفا التى فى عهدتهم، ببيعها للمدنيين فى مقابل سلع غذائية.

ويحصل الممرضون بعد ذلك على أرباح طائلة من تجارة الملاعق، فمعسكر الاعتقال لا يقدم الملعقة للواصلين الجدد، على الرغم من أن الحساء شبه السائل لا يمكن تناوله بغير ذلك. والملاعق تُصنع فى بونا، خفية وفى الأوقات المستقطعة، بأيدى المعتقلين الذين يعملون كمتخصصين فى قيادات الحدادين والسمكرية، وهى أدوات بدائية وقوية، مصنوعة من الصفائح المعدنية المشغولة بالمطرقة، وغالبًا بيد مسنونة بحيث تُستخدم فى الوقت نفسه كسكين لتقطيع الخبز. والصانعون أنفسهم يبيعونها مباشرة للواصلين الجدد: ملعقة بسيطة تساوى نصف جراية، وملعقة - سكينة تساوى ثلاثة أرباع جراية من الخبز. والآن أصبح قانونا أن تدخل العيادة بالملعقة، ولكن لا تخرج منها. والذين تماثلوا للشفاء، عند لحظة الخروج وقبل لبس الملابس المدنية يصادر الممرضون الملعقة منهم، ويعرضونها للبيع من جديد فى البورصة. وبإضافة ملاعق الذين تماثلوا للشفاء والموتى والمختارين يحصل الممرضون كل يوم على حصيلة بيع ما يقرب من خمسين ملعقة. ومن ناحية أخرى فإن المرضى الذين يُسمح لهم بالخروج مجبَرون على العودة إلى العمل مع خسارة أولية؛ هى نصف جراية من الخبز يخصصونها لشراء ملعقة جديدة.

وفى النهاية فإن العيادة هى العميل والمتلقى الرئيسى للسرقات التى تتم فى بونا، فمن الحساء المخصص للعيادة هناك ما يقارب عشرين لترًا مرصودة مسبقا كرصيد سرقات لشراء مختلف السلع من المتخصصين، وهناك من يسرق خرطوما رفيعا من المطاط يُستخدم فى العيادة للحقن الشرجية وأنابيب المعدة، ومن يأتى لتقديم أقلام من الرصاص وأحبار ملونة مطلوبة للحسابات المعقدة فى إدارة العيادة وترمومترات وأدوات زجاجية ومواد كيميائية، تخرج من مخازن بونا إلى جيوب المعتقلين وتجد استخداما فى العيادة كمواد صحية.

ولا أود أن أُتهَم بعدم التواضع مضيفا أن الفكرة كانت فكرتنا أنا وألبرتو فى سرقة ورق الرسم البيانى الخاص بترمومترات التسجيل فى قسم التجفيف، وتقديمها لرئيس الأطباء فى العيادة، بعد أن اقترحنا عليه استخدامها على شكل نماذج للرسوم البيانية الخاصة بقياس النبض والحرارة.

وخلاصة القول، إن السرقة فى بونا، والتى تعاقب عليها الإدارة المدنية، تصرِّح بها وتشجعها الشرطة السرية، والسرقة فى المعسكر، التى تقمعها الشرطة السرية بقسوة يعتبرها المدنيون عملية تبادل طبيعية، والسرقة بين المعتقلين يعاقبون عليها عمومًا، ولكن العقوبة تلحق باللص والشخص الذى تعرَّض

للسرقة بالشدة نفسها. ونود الآن أن ندعو القارئ للتفكير، ماذا كان يمكن أن تعنى فى معسكر اعتقال كلماتنا "الخير" و"الشر"، و"العدل" و"الظلم"؟ فليحكم كل منا، على أساس الإطار الذى رسمناه والأمثلة التى عُرضت سلفا، ماذا يبقى من عالمنا الأخلاقى المشترك داخل الأسلاك الشائكة!

المغمورون والناجون

هذه الحياة التى تحدثنا وسنتحدث عنها هى الحياة المبهمة لمعسكر الاعتقال. بهذه الطريقة الصعبة عاش الكثيرون من الرجال فى أيامنا، مضغوطين فى القاع، ولكنه كل منهم لفترة قصيرة نسبيا؛ ولذا فإنه ربما يمكن أن نتساءل ما إذا كان يأخذها فى الحسبان، وما إذا كان يجب أن تبقى بعض الذكرى من هذه الحالة الإنسانية الاستثنائية.

ونحن نشعر أننا يجب أن نرد على هذا السؤال بالإيجاب، فنحن بالفعل مقتنعون بأنه لا توجد أية تجربة إنسانية خالية من المعنى وغير جديرة بالتحليل، وأن هناك على العكس من ذلك قيما أساسية، حتى وإن لم تكن دائما إيجابية، يمكن أن نستخلصها من هذا العالم الخاص الذى نرويه. نود أن يأخذ الناس فى الاعتبار كيف أن معسكر الاعتقال كان أيضًا وبوضوح، تجربة بيولوجية واجتماعية عملاقة.

فلنقم بحبس الآلاف من الأفراد المختلفين فى السن والحالة والأصل واللغة والثقافة والعادات وإخضاعهم هنا لنظام ثابت فى الحياة، يمكن السيطرة عليه، ومتطابق بالنسبة إلى

الجميع وأقل من كل الاحتياجات. هذا أصعب ما يمكن أن يقوم به مجرّب ليحدد ما الشيء الأساسى وما الشيء المكتسب فى سلوك الحيوان - الإنسان فى مواجهة الكفاح من أجل الحياة.

نحن لا نؤمن بأوضح وأسهل استنتاج: أن الإنسان متوحش وأنانى وغبى أساسيا كما يتصرف عندما تزال كل هيئة مدنية عليا، وأن المعتقل ليس بالتالى سوى الإنسان بلا موانع. وفيما يتعلق بذلك فإننا نعتقد بالأحرى أننا لا يمكن أن نخلص لشيء آخر؛ لأنه فى مواجهة الحاجة والمعاناة البدنية المضنية فإن العديد من العادات والعديد من الغرائز الاجتماعية قد لاذت بالصمت.

ولكن هذا الأمر يبدو لنا جديرا بالاهتمام: يتضح أنه توجد بين الناس فئتان متميزتان بصفة خاصة: الناجون والغارقون. وأزواج أخرى من الأضداد (الطيبون والأشرار، الحكماء والبلهاء، الجبناء والشجعان والمنكوبون والمحظوظون) أقل وضوحا بكثير، ويبدو أنها أقل فطرية، وتقبل بصفة خاصة بدرجات وسطية أكثر عددا وتعقيدا.

وهذا التقسيم أقل وضوحا بكثير فى الحياة العادية؛ ففى هذه الحياة لا يحدث غالبا أن يتوه إنسان، لأن الإنسان عادة ليس وحيدا، وفى صعوده وهبوطه مرتبط بمصير جيرانه، ولذا فإن

من الأمور الاستثنائية أن ينمو شخص ما دون حدود للقـــوة، أو يهبط باستمرار من هزيمة إلى أخرى حتى الدمار. وعلاوة على ذلك فإن كل إنسان يمتلك عادة احتياطيات معينة، روحية وبدنية وأيضًا مالية، حتى أن أى حادث غرق أو عدم كفاية أمام الحياة يكون أقل احتمالا أيضًا. ويضاف أيضًا أن هناك عملا حـــساسا لتخفيف حدة الموقف يمارسه القانون والحس الأخلاقـــى، وهـــو قانون داخلى؛ فنحن بالفعل نعتبر الدولة متحضرة بقدر رحمـــة وفاعلية تلك القوانين التى تمنع البائس من أن يكون أشد بؤسًـــا، والقوى أشد قوة.

ولكن فى معسكر الاعتقال يحدث خلاف ذلك؛ فهنا الكفاح من أجل الـــبقاء بلا هوادة لأن كل إنسان هنا وحيـــد بـــصورة يائسة ومتوحشة، وإذا ترنح أى صفر ثمانية عشر فلن يجد مـــن يقدم له يد العون، بل إن البعض سيسقطونه جانبا، لأنه لا يوجد أحد له مصلحة فى أن يجر "مسلمًا"[(١)] آخر نفسه كل يـــوم إلـــى العمل، وإذا وجد أحدهم بمعجزة من الصبر الوحشى والـــدهاء، تدبيرا جديدا للإفلات من العمل الأشد صعوبة، وفنا جديدا يعود عليه ببعض الجرامات من الخبز، فإنه سيحاول أن يُبقِى الطريقة

(١) بهذا اللفظ "Muselmann"، كان المسنُون فى المعـــسكر يـــصفون الـــضعفاء وغيـــر القادرين والمقدر لهم الانتقاء، ولا أعرف سببا لذلك.

التى اتبعها فى ذلك سرا، ولهذا سيلقى التقدير والاحترام، وسيجنى من ذلك فائدة شخصية بحتة، وسيصبح أكثر قوة، ولهذا سيكون مهيبًا، ومن يكُن مهابا فإنه يكون على الفور مرشحا للبقاء على قيد الحياة.

وفى التاريخ وفى الحياة يبدو أحيانا أننا نميز قانونا وحشيا معناه "أن من يملك سيعطى، ومن لا يملك سيُنتزع منه". وفى معسكر الاعتقال، حيث الإنسان وحيد والكفاح من أجل الحياة يتحول إلى مجرد آلية بدائية، فإن القانون الظالم يطبَّق علانية، ويعترف به الجميع. والأشخاص المناسبون والأفراد الأقوياء والماكرون، يحتفظ الرؤساء معهم باتصالات عن طيب خاطر، وأحيانًا تكون علاقات زمالة؛ لأنهم يأملون فى الحصول على بعض الفوائد من ذلك ربما فيما بعد. ولكن المسلمين، الرجال البائدين، لا يستحقون توجيه الكلمة لهم، لأن من المعروف أنهم قد يشتكون وربما يحكون ما كانوا يأكلونه فى بيوتهم. وهم لا يستحقون بالتالى أن نتخذهم أخلاًء، لأنهم لا يملكون فى المعسكر معارف لامعة، ولا يأكلون شيئا خارج الجراية، ولا يعملون فى قيادات مميزة، ولا يعرفون أية طريقة سرية للتنظيم. وفى النهاية، من المعروف أنهم هنا بصورة عابرة، وخلال بضعة أسابيع لن يتبقى منهم سوى حفنة من الرماد فى بعض المعسكرات غير البعيدة، ورقم تافه مسجَّل فى أحد السجلات.

وعلى الرغم من أنهم يُدمجون ويُسحبون دون هوادة من الجموع الغفيرة من أمثالهم، فإنهم يعانون ويجرُّون أنفسهم في وحدة معتمة دفينة، وفي الوحدة يموتون أو يختفون، دون أن يتركوا أثرا في ذاكرة أي أحد.

ونتيجة هذه العملية القاسية من الانتقاء الطبيعي قد نستطيع قراءتها في إحصائيات الحركة في معسكرات الاعتقال، ففي أوشفيتز، في عام ١٩٤٤، بقي من المعتقلين اليهود (ولن نتحدث عن الآخرين هنا لأن ظروفهم كانت مختلفة)، وهم أرقام صغيرة أقل من المائة والخمسين ألفا، بقي بضع مئات على قيد الحياة، ولم يكن أي من هؤلاء معتقلا عاديا، مستمرا في القيادات العادية وراضيا بالجراية العادية. وقد بقي فقط الأطباء والترزية والإسكافيون والموسيقيون والطباخون والشباب الجذاب من المثليين جنسيا وأصدقاء أو بلديات بعض السلطات في المعسكر، وعلاوة على ذلك أفراد قساة وأقوياء وغير إنسانيين تولوا العمل (في أعقاب تعيين من قيادة الشرطة السرية، التي كانت تبرهن في هذا الاختيار على امتلاك معرفة بشرية شيطانية) في مناصب الرئيس وقائد البلوك، أو في مناصب أخرى، وأخيرا أولئك الذين نجحوا دائما في التنظيم بنجاح لدهائهم وطاقتهم، دون أن يتولوا وظائف خاصة، وحصلوا هكذا أيضًا على الرأفة والتقدير من قبل أقوياء المعسكر، علاوة على الميزة المادية

والسمعة. ومن لا يستطِع أن يصبح منظما أو مدبرا أو بارزا (ويالها من ألفاظ ذات بلاغة شنيعة!) سرعان ما يصبح مسلمًا. ويوجد طريق ثالث فى الحياة، بل إنه القاعدة، ولا يوجد فى معسكر التجميع.

والخضوع هو أبسط شىء: يكفى تنفيذ كل الأوامر التى نتلقاها، وعدم أكل شىء سوى الجراية، والالتزام بنظام العمل والمعسكر. ولقد أثبتت التجربة أنه يمكن الاستمرار لأكثر من ثلاثة أشهر بهذه الطريقة فقط بصفة استثنائية. وكل المسلمين الذين ذهبوا إلى الغاز لهم القصة نفسها، أو بمعنى أصح، لا قصة لهم؛ فقد واصلوا الانحدار حتى القاع، بالطبع، مثل الأنهار الصغيرة التى تصب فى البحر. فبعد دخولهم المعسكر تعرضوا للقهر قبل أن يتمكنوا من التكيف، بسبب عجزهم الأساسى أو لسوء حظهم أو لأى حادثة أخرى عادية، وقد هُزموا من ناحية الوقت، ولم يبدءوا فى تعلم الألمانية والتمييز بين الأشياء فى التشابك الجهنمى من القوانين والمحاذير، إلا عندما يتحلل جسدهم ولا يبقى هناك شىء يمكن أن ينقذهم من الانتقاء أو من الموت بسبب تدهور الحالة الصحية. وحياتهم قصيرة ولكن عددهم لا نهاية له؛ إنهم المسلمون، المغمورون، عصب المعسكر؛ فهم الجمهور المجهول المتجدد باستمرار والمتطابق دائما، من غير البشر الذين يسيرون ويتعبون فى صمت، وقد انطفأت فيهم

الجذوة الإلهية، وهم فارغون جدًّا فلا يشعرون حقا. ويتردد البعض فى تسميتهم أحياء، ونتردد فى تسمية موتهم موتا، وأمامه لا يخشون شيئا لأنهم متعَبون جدًّا فلا يستطيعون فهمه.

وهم يزحمون ذاكرتى بوجودهم بلا وجه، ولو استطعت أن أجمع فى صورة واحدة كل الشر فى زماننا لاخترت هذه الصورة، المألوفة بالنسبة إلىَّ: رجل نحيف، جبهته منحنية وأكتافه مقوسة ولا يمكن أن نقرأ على وجهه أو فى عينيه أثرا للفكر.

وإذا لم يكن للمغمورين تاريخ، وطريق الضياع واحد وشاسع، فإن طرق النجاة، على العكس من ذلك، كثيرة ولاذعة ولا تخطر على بال.

والطريق الرئيسى كما أشرنا هو المكانة العالية. "أصحاب المكانة العالية"، هكذا يسمون موظفى المعسكر، بداية من المدير - المعتقل (قائد معسكر الاعتقال) وحتى الرؤساء والطباخين والممرضين والحراس الليليين، حتى كناسى الثكنات والمشرفين على المراحيض والأدشاش. ويهمنا هنا بصفة خاصة، البارزون اليهود، لأنه فى حين كان الآخرون يقلّدون المناصب آليا، عند دخولهم المعسكر، بحكم تفوقهم الطبيعى، كان على اليهود أن يدبروا المكائد ويكافحوا بقوة للحصول عليها.

ويمثل اليهود البارزون ظاهرة بشرية حزينة وملحوظـــة، ففيهم تتجمع الآلام الماضية والحاضرة والماضية والموغلة فـــى القدم، وتقليد وتربية العداء تجاه الأجنبى لتصويرهم على أنهـــم وحوش لا يقدرون على الحياة الاجتماعيـــة ويتـــسمون بعـــدم الحساسية.

إنهم المنتج المميز فى بناء معسكر الاعتقال الألمانى؛ لنقدم لبعض الأفراد فى حالة العبودية وضعا متميزا وراحـــة معينـــة وإمكانية طيبة للبقاء على قيد الحياة، مع مطالبتهم فـــى المقابـــل بخيانة التضامن الطبيعى مع زملائهم، ومن المؤكد أن هناك من سيقبل. وسوف ينتزع هذا من القانون العام ولن يـــستطيع أحـــد المساس به؛ ولذلك فإنه سيصبح كريها ومكروها أكثر، بقدر ما سيُمنح له من سلطة أكبر. وعندما يُعهد إليه بقيادة حفنـــة مـــن المنكوبين مع حق الموت أو الحيـــاة علـــيهم، ســـيكون قاســـيا وطاغية، لأنه سيدرك أنه لو لم يكن كذلك بما فيه الكفاية، فـــإن شخصا آخر، يعد أكثر ملاءمة، سيتولى منصبه. وعلاوة علـــى ذلك سيحدث أن قدرته على الكراهية، التى بقيت دون إشباع فى إدارة القامعين، ستنعكس بصورة غير معقولة على المقمـــوعين، وسيرى نفسه راضيا عندما سيُفرِغ على الخاضعين له الإهانـــة التى تلقّاها من أعلى.

ونحن ندرك أن كل هذا بعيد عن الإطار الذى اعتدنا وضعه للمقموعين الذين يتحدون على الأقل فى التحمل، إن لم يكن فى المقاومة. ولا نستبعد أن هذا يمكن أن يحدث عندما لا يتجاوز القمع حدًّا معينا، أو ربما عندما يتساهل القامع فى ذلك أو يشجعه، لنقص الخبرة أو لنبل الأخلاق. ولكننا نكتشف فى أيامنا وفى كل الدول التى وضع الأجنبى قدمه فيها كغازٍ، أنه قد استقر موقف مماثل من الخصومة والكراهية بين الخاضعين، ومثل العديد من الأمور البشرية الأخرى استطعنا أن ندرك هذا فى معسكر الاعتقال بوضوح شديد.

وحول البارزين من غير اليهود هناك كلام أقل يقال، على الرغم من أنهم الأكثر عددا بكثير (لم يكن هناك أى معتقل "آرىّ" محروم من منصب، حتى لو كان متواضعا). أما أنهم كانوا أغبياء ومتوحشين فهذا طبيعى لمن يفكر فى أنهم كانوا غالبا من المجرمين العاديين، المختارين من السجون الألمانية فى ضوء استخدامهم بالضبط كمشرفين فى معسكرات اليهود، ونعتقد أن هذا كان اختيارا دقيقا لأننا نرفض أن نصدق أن النماذج الشرية البائسة التى رأيناها فى العمل تمثل عينة متوسطة، ليس من الألمان بصفة عامة، ولكن فقط من المحتجزين الألمان بصفة خاصة. ومن الصعب أن نفسر كيف أن البارزين السياسيين

الألمان والبولنديين والروس فى أوشفيتز كانوا يتنافسون فى الوحشية مع المجرمين العاديين، ولكن من المعروف أن صفة الجريمة السياسية فى ألمانيا كانت تطبق أيضًا على أعمال مثل التجارة السرية، والعلاقات غير المشروعة مع اليهوديات والسرقات من موظفى الحزب. والساسة "الحقيقيون" كانوا يعيشون ويموتون فى معسكرات أخرى أصبح اسمها شهيرا الآن بصورة محزنة، وفى ظروف بالغة القسوة كما هو معروف، ولكنها تختلف فى جوانب كثيرة عن الظروف الموصوفة هنا.

ولكن علاوة على الموظفين بمعنى الكلمة، فإن هناك فئة كبيرة من المعتقلين الذين لم يحالفهم الحظ ويكافحون بقواهم فقط من أجل البقاء على قيد الحياة. ولا بد من صعود التيار مرة أخرى، وخوض المعركة كل يوم وكل ساعة ضد التعب والجوع والبرد والخمول الناتج عن ذلك، ومقاومة الأعداء وعدم الرحمة تجاه الخصوم، وشحذ العبقرية، وتقوية الصبر وعقد العزم. أو أيضًا خنق كل كرامة وإطفاء كل ضوء للضمير، ونزول الميدان وحوشًا ضد وحوش، والانسياق وراء القوى الخفية المجهولة التى تدعم الأجناس والأفراد فى الأوقات القاسية. وكانت هناك طرق كثيرة للغاية ابتدعناها ونفذناها لكى لا نموت، كثيرة بقدر الطباع البشرية، وكلها تنطوى على كفاح مُضْنٍ لكل واحد ضد

الجميع، وكثير منها محصلة غير صغيرة من الانحرافات والتسويات. والبقاء على قيد الحياة دون التخلى عن شيء من عالم الإنسان الأخلاقى، إلا بتدخلات قوية ومباشرة للحظ، لم يُمنح سوى لعدد قليل للغاية من الأفراد الأعلَيْن، من قماشة الشهداء والقديسين.

كم طريقة إذن يمكن بها الوصول إلى النجاة؟ سنحاول أن نبين ذلك برواية قصص شيبشيل وألفريد ل. ز إلياس وهنرى.

شيبشيل يعيش فى معسكر اعتقال منذ أربع سنوات، وقد رأى موت عشرات الآلاف حوله من أمثاله، بداية من المذبحة التى طردته من قريته فى جاليتسيا. وكانت عنده زوجة وخمسة أبناء، وكان له محل مزدهر لصناعة السروج، ولكنه منذ وقت طويل لم يعتد التفكير فى نفسه على أنه مجرد كيس يجب أن يُملأ بانتظام. وشيبشيل ليس قويا جدًّا ولا شجاعا جدًّا ولا شريرا، وليس حتى ماكرا بصورة خاصة، ولم يجد قط وظيفة تمنحه شيئا من الراحة، ولكنه اقتصر على الوسائل البسيطة وغير الثابتة، على التدبير أو الـ "kombinacje"، كما يسمُّونه هنا.

بين الحين والحين يسرق مقشة من بونا ويبيعها لمشرف البلوك، وعندما يتمكن من ادخار شيء من رأس المال من الخبز

يستأجر الأدوات من الإسكاف فى البلوك، وهو من بلدته، ويعمل بضع ساعات لحسابه الخاص، وهو يستطيع صنع الحمالات بالسلك الكهربائى المضفر، وقد قال لى سيجى إنه رآه فى راحة الظهر وهو يغنى ويرقص أمام سقيفة العمال السلوفاكيين، الذين يكافئونه أحيانا ببقايا حسائهم.

بعد هذا الذى قلناه يمكن أن نشعر أننا نميل إلى التفكير فى شيبشيل بتعاطف متسامح، كمسكين لم تعد روحه تضم سوى رغبة متواضعة وأولية فى الحياة، ويقود بشجاعة كفاحه الصغير لكى لا يرضخ. ولكن شيبشيل لم يكن استثناء، وعندما سنحت الفرصة، لم يتردد فى الحكم على مويشل، الذى كان شريكا معه فى سرقة فى المطبخ، بالجَلد، على أمل أُسِّس على خطأ، فى أن يحظى بالإعجاب فى نظر مشرف البلوك، وطرح ترشيحه لوظيفة غسَّال الآنية.

وقصة المهندس ألفريد ل. تبرهن، بين الأشياء الأخرى، على مدى عبثية أسطورة المساواة الأصلية بين البشر.

كان ل. يدير فى بلدته مصنعا فى غاية الأهمية للمنتجات الكيميائية، وكان اسمه (ولا يزال) معروفا فى الدوائر الصناعية فى كل أوروبا. كان رجلا قويا فى الخمسين من العمر تقريبًا، ولا أعرف كيف اعتُقل، ولكنه دخل المعسكر كما كان يدخل

الجميع، عاريا ووحيدا ومجهولا. وعندما عرفته كان منهكا جدًّا، ولكنه كان يحتفظ على وجهه بسمات تنمُّ عن طاقة منضبطة ومنظمة في ذلك الوقت، كانت مزاياه تقتصر على التنظيف اليومي لإناء العمال البولنديين، وهذا العمل الذى كان قاصرا عليه، ولا أعرف كيف كان يعود عليه بنصف طبق من الحساء في اليوم. ولم يكن هذا بالطبع كافيا لسد جوعه، ولكن أحدا لم يسمعه قط يشكو، بل إن الكلمات القليلة التي كان يتفوه بها كانت توحى بوجود موارد سرية كبيرة، و"تنظيم" قوى ومربح.

وهو ما كان يجد تأكيدًا في مظهره، فقد كان للسيد ل. "خط" معين؛ فيده ووجهه كانا نظيفين تمامًا دائمًا، وكان يتمتع بنكران للذات في غاية الندرة في أن يغسل قميصه كل خمسة عشر يومًا، دون أن ينتظر التغيير كل شهرين (ونوضح هنا أن غسل القميص يعنى إيجاد الصابون وإيجاد الوقت وإيجاد المكان في المغسلة المكتظة بالزحام، والتكيف في المراقبة بانتباه، ودون أن يغيب النظر عن القميص المبتل، وارتداءه بالطبع وهو ولا يزال مبتلا، ساعة الصمت، التي تطفأ فيها الأنوار)، وكان يمتلك زوجين من النعال الخشبية للذهاب إلى الدش، وحتى ثوبه المخطط كان مناسبا لجسمه بصورة فريدة، ونظيفا وجديدا. وكان السيد ل. في جوهر الأمر قد وفر لنفسه مظهر الشخص البارز

تمامًا قبل أن يصبح كذلك بكثير؛ فقد علمت بعد ذلك بفترة طويلة أن كل هذا التظاهر بالرخاء، استطاع السيد ل. أن يكتسبه بعناد لا يصدَّق بدفع ثمن المشتريات المنفردة والخدمات بخبز جرايته نفسها، ومجبرا نفسه هكذا على نظام من الحرمان الإضافى.

وكانت خطته بعيدة المدى، وهو ما كان واضحا حيث فكر فيها فى بيئة كانت تسودها عقلية المؤقت، وقد نفذها السيد ل. بانضباط داخلى صارم، دون رحمة لنفسه ولا بالأحرى لزملائه الذين كانوا يعبرون طريقه. وكان السيد ل. يعلم أن الخطوة قصيرة بين أن تكون قويا مقدَّرا وأن تصبح بالفعل كذلك، وأن المظهر المحترم هو أفضل ضمان لأن تكون محترَما فى كل مكان، ولكن بصفة خاصة فى التسوية العامة لمعسكر الاعتقال. وقد وجه كل عناية لكى لا يختلط بالقطيع؛ فقد كان يعمل بالتزام فى تظاهر، وهو يحث أيضًا الزملاء الكسالى إذا سنحت الفرصة بنبرة مستنكرة ومقنعة، وكان يتجنب الكفاح اليومى من أجل المكان الأفضل فى طابور التعيين، وكان يكيف نفسه كل يوم على تلقى الجراية الأولى، الأكثر سيولة كما هو معروف، بحيث يلاحظه مشرف البلوك لانضباطه. ولاستكمال الابتعاد كان يتصرف دائما فى العلاقات مع الزملاء بمنتهى الذوق المتماشى مع أنانيته، التى كانت مطلقة.

وعندما تكونت، كما سنقول، القيادة الكيميائية، أدرك السيد ل. أن ساعته قد حانت. لم يكن يلزم شيء آخر سوى ثوبه النظيف ووجهه النحيف، نعم، ولكنه محلوق وسط قطيع زملائه المتسخين وغير المكترثين، لكى يقنع على الفور الرئيس ومكتب العمل بأن ذلك كان ناجيا حقيقيا، وبارزا محتمَلا؛ ولهذا (لمن يملك، سيُعطى) تمت ترقيته بالتأكيد كـ "متخصص"، وعُيِّن رئيسا فنيا للقيادة، وعينته إدارة بونا كمحلل فى معمل قسم ستيرولو. وقد كُلِّف بعد ذلك بفحص المشتريات الجديدة فى القيادة الكيميائية شيئا فشيئا، للحكم على مدى كفاءتها المهنية، وهو ما فعله دائمًا بمنتهى الصرامة وخصوصًا تجاه أولئك الذين كان يشتمُّ فيهم منافسين محتملين فى المستقبل.

وأنا أجهل باقى قصته، ولكننى أعتقد أن من المحتمل جدًّا أن يكون قد أفلت من الموت، ويعيش اليوم حياته الباردة كمسيطر حازم بلا فرحة.

هبط إلياس ليندزين، ١٤١٥٦٥، ذات يوم بصورة لا يمكن تفسيرها، على القيادة الكيميائية، وكان قزما، لا يزيد طوله عن متر ونصف، ولكننى لم أرَ قط عضلات مثل عضلاته. وعندما يكون عاريا، تتميز كل عضلة وهى تعمل تحت الجلد، وهو قوى ومتحرك كحيوان مستقل بذاته، وجسمه يمكن أن يكون نموذجا

جيدًا لهرقل إذا تم تكبيره دون تغيير أبعاده، ولكن لا يجب أن ننظر إلى الرأس.

فتحت جلد الشعر تبرز خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة بصورة زائدة، والجمجمة قوية، وتعطى الانطباع بأنها من المعدن أو من الحجر، ونرى الحد الأسود للشعر المحلوق أعلى من الرموش بإصبع بالكاد، والأنف والذقن والجبهة وعظام الخدين صلبة ومتماسكة، والوجه كله يبدو كأنه رأس جدى، وأداة مناسبة للضرب. وينبعث من شخصه شعور بالقوة الحيوانية.

ورؤية إلياس وهو يعمل منظر محيِّر؛ فالمشرفون البولنديون والألمان أنفسهم أحيانا يتوقفون ليشاهدوا بإعجاب إلياس وهو يعمل، ويبدو أنه لا شيء مستحيل بالنسبة إليه. وبينما نحمل نحن بصعوبة شيكارة من الأسمنت، يحمل إلياس منها اثنتين، ثم ثلاثًا، ثم أربعًا، محتفظا بها فى توازن لا نعلم كيف، وبينما يسير بثقل على ساقيه القصيرتين والمكتنزتين، يقوم بحركات بوجهه من تحت الحِمل ويضحك ويلعن ويصرخ ويغنى دون هوادة، كما لو كانت رئتاه من البرونز! وإلياس، على الرغم من النعال الخشبية، يتسلق كالقرد على السقالات، ويجرى واثقا على كمرات معلقة فى الفراغ، ويحمل ست طوبات فى المرة

الواحدة متأرجحة على رأسه، ويستطيع أن يصنع لنفسه ملعقة بقطعة من الرقائق المعدنية، وسكينا بقطعة خردة من الصلب، وهو يجد فى كل مكان ورقا وخشبا وفحما جافا، ويستطيع أن يشعل النار فى بضع لحظات، حتى تحت المطر. ويستطيع القيام بعمل الترزى والنجار والإسكاف والحلاق، ويبصق على مسافات غير معقولة، ويغنى بصوت حافلة لا بأس بها، أغانى بولندية وييدية لم نسمع عنها قط من قبل، ويستطيع أن يزدرد ستة أو ثمانية أو عشرة لترات من الحساء دون أن يتقيأ ودون أن يصاب بالإسهال، ويستأنف العمل فورا بعد ذلك. وهو يستطيع أن يُخرِج من بين كتفيه سناما كبيرا، ويجوب الثكنة وهو ملتوٍ ومتنكر، وهو يصرخ ويخطب بطريقة غير مفهومة وسط فرحة الأقوياء فى المعسكر. وقد رأيته يصارع بولنديا أطول منه بمقدار كل الرأس، ويطرحه أرضا بضربة من جمجمته فى بطنه، قوية ودقيقة مثل المنجنيق. ولم أرَه يستريح قط، ولم أرَه صامتا وساكنا قط، ولم أعرف أنه جرح أو مرض قط.

وعن حياته كرجل حر، لا أحد يعلم شيئا، وفى الوقت نفسه، فإن تمثُّل إلياس كرجل حر يتطلب جهدًا عميقًا للخيال والاستقراء، وهو لا يتحدث سوى البولندية واللغة الييديّة الكالحة والمشوهة فى وارسو، وعلاوة على ذلك فإن من المستحيل حثه

على التحدث بحديث متماسك، وربما يبلغ من العمر عشرين أو أربعين عامًا؛ وعادة ما يقول أن عمره ثلاثة وثلاثون، وأنه أنجب سبعة عشر ابنا، وهو ما لا يمكن استبعاده، ويتحدث باستمرار في مختلف الموضوعات؛ ودائما بصوت جهوري، وبنبرة خطابية، وبحركات عنيفة وفصامية كما لو كان يوجه حديثه لجمهور غفير. وكما هو طبيعي، فإن الجمهور لا ينقصه أبدًا. والذين يفهمون لغته يشربون خطبه وهم يتلوَّوْن من الضحك، ويربتون على أكتافه الصلبة في حماسة، ويحثونه على الاستمرار، بينما هو، في وحشية وعبوس، يدور كالوحش داخل دائرة المستمعين، ويخاطب هذا تارة وذاك تارة أخرى... وفجأة يقبض على واحد من صدره بيده المعقوفة الصغيرة، ويجذبه إلى نفسه دون مقاومة ويتقيأ على وجهه المذهول ذمًّا غير مفهوم، ثم يقذفه إلى الوراء مثل غصن صغير! وبين التصفيق والضحكات، والأذرع الممدودة إلى السماء كوحش صغير يتنبأ بالمستقبل، يواصل كلامه الغاضب والمجنون!

وقد ذاعت شهرته كعامل متفوق بسرعة كبيرة، ومنذ ذلك الحين توقف عمليا عن العمل، بسبب القانون السخيف لمعسكر الاعتقال. وكان عمله يُطلب مباشرة من المشرفين، للقيام فقط بتلك الأعمال التي كانت تتطلب خبرة وحيوية خاصة. وإلى

جانب هذه الخدمات، كان يشرف بوقاحة وعنف على عملنا الشاق اليومى الفاتر، وكان يغيب بصورة متكررة فى زيارات غامضة ومغامرات فى دهاليز لا نعلمها فى موقع العمل، حيث كان يعود بجيوب منتفخة وغالبا بمعدته ممتلئة بصورة ملحوظة.

وإلياس لص بالطبيعة وفى براءة، وهو فى هذا يُظهِر المكر الغريزى للحيوانات المتوحشة؛ فهو لا يُضبط أبدا متلبسا، لأنه لا يسرق إلا عندما تسنح له فرصة أكيدة، ولكن عندما تسنح هذه الفرصة، فإن إلياس يسرق حتما وكما هو متوقع، هكذا كما يقع حجر تُرك لشأنه. وبصرف النظر عن أن من الصعب الإمساك به متلبسا، فإن من الواضح أنه لا يجدى عقابه على سرقاته؛ فهى تمثل بالنسبة إليه عملا حيويا كأى عمل، مثل التنفس والنوم.

ويمكن أن نتساءل من هذا الرجل إلياس. ما إذا كان مجنونا، وغير مفهوم وغير بشرى، انتهى به الحال إلى معسكر الاعتقال بمحض مصادفة. أو ما إذا كان يمثل عودة لحياة الأسلاف بصفات مغايرة لعالمنا الحديث، وأكثر ملاءمة للظروف البدائية للحياة فى المعسكر، أم إذا كان على العكس من ذلك نتاج المعسكر وهو ما سنؤول إليه جميعا، إذا لم نمت، أو إذا لم ينتهِ المعسكر نفسه قبل ذلك.

هناك بعض الحقيقة فى الافتراضات الثلاثة. لقد نجا إلياس من التدمير من الخارج، لأنه لا يمكن تدميره جسمانيا، وقد قاوم الإبادة من الداخل لأنه معتوه، وبالتالى فإنه ناجٍ بالدرجة الأولى، وهو الأكثر ملاءمة، والمثل البشرى الأكثر مواءمة لهذه الطريقة من العيش.

وإذا استعاد إلياس حريته، فإنه سيجد نفسه منفيا على هامش المجتمع البشرى، فى سجن أو فى مستشفى للأمراض العقلية، ولكن هنا، فى المعسكر، لا يوجد مجرمون ولا مجانين، لا مجرمون، لأنه لا يوجد قانون أخلاقى نخالفه، ولا مجانين لأننا مصممون، وكل عمل من أعمالنا هو الوحيد الممكن بصورة ملموسة، فى الزمان والمكان.

وفى معسكر الاعتقال يزدهر إلياس وينتصر، فهو عامل جيد ومنظم جيد، ولهذا السبب المزدوج فإنه فى مأمن من عمليات الانتقاء ومحترم من الرؤساء والزملاء. وبالنسبة إلى من لا يمتلك الموارد الداخلية القوية ومن لا يستطيع أن يستخلص من ضميره القوة الضرورية للتعلق بالحياة لأن الطريق الوحيد للنجاة يقود إلى إلياس، إلى العَتَه والوحشية الغادرة. وكل الطرق الأخرى لا مخرج لها.

وبعد أن قلنا هذا، ربما يميل البعض إلى استخلاص النتائج، وربما القواعد أيضًا، لحياتنا اليومية. ألا يوجد حولنا أمثال إلياس، مكتملين تقريبا؟ ألا نرى نحن أفرادا يعيشون حولنا وهم يجهلون هدفهم ولا يتمتعون بأى شكل من أشكال التحكم الذاتى والضمير؟ وهم لا يعيشون على الرغم من ثغراتهم هذه، ولكنهم بالتحديد مثل إلياس، يعيشون عليها.

والقضية جسيمة، ولن تُحَلّ بعد ذلك، لأن هذه يراد لها أن تكون قصصا لمعسكر الاعتقال، وحول الإنسان خارج معسكر الاعتقال كُتب الكثير، ولكننا نريد أن نضيف شيئا: أن إلياس، بقدر ما أمكننا الحكم عليه من الخارج، وبقدر ما يمكن أن يكون للجملة من معنى، ربما كان شخصا سعيدا.

هنرى، على العكس من ذلك، متحضر وواعٍ للغاية، وحول أساليب البقاء على قيد الحياة فى معسكر الاعتقال يمتلك نظرية كاملة ومُحكَمة. وهو لم يبلغ من العمر سوى اثنين وعشرين عاما، وهو بالغ الذكاء، ويتحدث الفرنسية والألمانية والإنجليزية والروسية، ولديه ثقافة علمية وكلاسيكية ممتازة.

وقد مات أخوه فى بونا فى الشتاء الأخير، ومنذ ذلك اليوم قطع هنرى أى ارتباط بالعواطف، فانغلق على نفسه كما لو كان فى قوقعة، وكافح من أجل العيش دون استرخاء، مع كل الموارد

التى يمكن أن يستخلصها من ذهنه المتقد وتربيته الرفيعة. وطبقا لنظرية هنرى فإن هناك ثلاث طرق يمكن للإنسان أن يطبقها للإفلات من الإبادة، مع بقائه جديرا باسم إنسان: التنظيم والشفقة والسرقة.

وهو نفسه يطبق الأشياء الثلاثة معا، وليس هناك من هو أفضل من هنرى كخبير استراتيجى فى خداع ("استغلال"، كما يقول هو) أسرى الحرب الإنجليز؛ فهم يصبحون، فى أيديه، دجاجات حقيقية تبيض ذهبا، ويكفى أن نذكر أنه من مقايضة سيجارة إنجليزية واحدة، نحصل فى معسكر الاعتقال على ما يسد الرمق ليوم كامل. وقد شوهد هنرى ذات مرة وهو يأكل بيضة مسلوقة حقيقية!

وتجارة البضاعة الإنجليزية الصنع هى من احتكار هنرى، وحتى هنا يتعلق الأمر بالتنظيم، ولكن أداته فى الاختراق لدى الإنجليز والآخرين، هى الشفقة؛ فهنرى يشبه فى جسمه ووجهه الرقيقين والشريرين بصورة خفيفة القديس سيباستيانو قديس سدوم، فعيناه سوداوان وعميقتان، ولم تنبت له لحية بعد، ويتحرك بأناقة طبيعية واهنة (على الرغم من أنه عند اللزوم يستطيع أن يجرى ويقفز مثل القط، وسعة معدته أقل بالكاد من سعة معدة إلياس). وهنرى على معرفة تامة بقدراته الطبيعية

هذه، ويستغلها بالخبرة الباردة لمن يستخدم آلة علمية، والنتائج مدهشة. وهذا اكتشاف فى جوهر الأمر، فقد اكتشف هنرى أن الشفقة، بحكم أنها شعور أولّىّ وتلقائى، يزدهر جيدًا جدًّا، إذا غُرس بمهارة فى النفوس الأولية للمتوحشين الذين يحكموننا، ونفس أولئك الذين لا يتورعون عن طرحنا أرضا باللكمات دون سبب وأن يطئونا بأقدامهم بمجرد أن نقع على الأرض، ولم تفُته الأهمية العملية الكبرى لهذا الاكتشاف الذى أدرج فيه مثابرته الشخصية.

وكما يقوم النمس بشل حركة الديدان الكبيرة المشعرة، بجرحها فى نقطة الضعف العصبية الوحيدة عندها، هكذا يقوم هنرى بنظرة واحدة بتقييم الشخص، وتحديد "نوعه"، ويتحدث إليه باختصار، كل شخص باللغة المناسبة، ويتم اكتساب "النوع"؛ فهو ينصت بتعاطف متزايد، وينفعل بشأن الشاب المنكوب، ولا يمر وقت طويل حتى يبدأ تحقيق ما يصبو إليه.

ولا يوجد شخص متصلب جدًّا حتى أن هنرى لا يتمكن من إحداث ثغرة فيه، إذا ما بذل الجهد الكافى بجدية. وفى معسكر الاعتقال وفى بونا حُماته كثيرون للغاية: جنود إنجليز، وعمال مدنيون فرنسيون وأوكرانيون وبولنديون، و"ساسة" ألمان، وأربعة على الأقل من مشرفى البلوكات وطباخ، وحتى

أحد أفراد الشرطة السرية. ولكن ميدانه المفضل هـو العيـادة، وفى العيادة يتمتع هنرى بحرية الدخول، والـدكتور سـيترون والدكتور فايس صديقاه، أكثر من كونهما من خمَاته، ويُدخلانـه المستشفى عندما يريد، وللفترة التى يريدها، وهذا يحدث بـصفة خاصة مع اقتراب موعد العمليات الانتقائية، وفى فترات العمـل الثقيل، لكى "يشتّى"، كما يقول هو.

ومع امتلاكه لصداقات كثيرة على هذا النحو، كـان مـن الطبيعى أن يتحول هنرى نادرا للطريق الثالث، وهو الـسرقة، ومن ناحية أخرى، فإن من المفهوم أنه لا يبوح بشىء بـسهولة حول هذا الموضوع.

ومن الأمور الظريفة جدًّا أن تتحدث مع هنرى فى فترات الراحة، وهو أمر مفيد كذلك؛ فلا يوجد شىء فـى المعـسكر لا يعرفه، ولم يفكر فيه، بطريقته المركـزة والمُحكَمـة. وحـول إنجازاته يتحدث بتواضع مؤدب، كما لو كان يتحدث عن فرائس لا قيمة لها، ولكنه يتحدث بإسهاب وبكل سرور لعرض الحساب الذى قاده للاقتراب من هانز عندما سأله عن ابنه على الجبهـة، ولكنه اقترب من أوتو مُظهرا له آثار الجراح التى أصيب بها فى قصبة القدم.

إن الحديث مع هنرى أمر مفيد ويبعث على السرور، ويحدث أيضًا، فى بعض الأحيان، أن نشعر به ساخنا وقريبًا، ويبدو من الممكن حدوث تخاطب معه، وربما حتى عاطفة، ويبدو أننا نلمح فيه العمق الإنسانى، المتألم والواعى لشخصيته غير العادية، ولكن فى اللحظة التالية تتجمد ابتسامته الحزينة فى تكشيرة باردة يبدو أنه درسها فى المرآة، ويعتذر هنرى بلطف، قائلاً: "... إن لدى بعض المشاغل"، "... هناك شخص يجب أن أراه"، وها هو من جديد وبالكامل فى مطاردته وكفاحه، صلبًا وبعيدًا، وهو منغلق على نفسه فى درعه، عدوا للجميع، وخبيثا وغير مفهوم بصورة غير بشرية مثل حية سِفر التكوين.

ومن كل الحوارات مع هنرى، حتى من أكثرها ودية، خرجتُ دائما بمذاق خفيف للهزيمة، مع شك مختلط بأننى أنا أيضًا، دون أن أتنبه لذلك بصورة ما، لم أكن رجلاً فى مواجهته، ولكن أداة فى يديه.

والآن أنا أعرف أن هنرى حى، وأود أن أقدم الكثير لكى أعرف حياته كرجل حر، ولكننى لا أرغب فى رؤيته مرة أخرى.

اختبار كيمياء

القيادة ٩٨، التى تسمى القيادة الكيميائية، كان يتعين أن تكون قسما للإخصائيين.

وفى اليوم الذى تم فيه الإعلان الرسمى عن تأسيسها، تجمعت جماعة صغيرة من المعتقلين حول الرئيس الجديد، فى ميدان النداء، فى جو الفجر الرمادى.

كانت هذه خيبة الأمل الأولى: كان لا يزال "مثلثا أخضر"، ومجرما محترفا، ولم يكن رئيس القسم قد رأى أن من الضرورى أن يكون رئيس القيادة الكيميائية كيميائيا. ولا جدوى من تبديد الجهد فى توجيه أسئلة له، فهو لن يرد أو سيرد بالصياح والركلات. وفى الوقت نفسه كان مظهره غير القوى وقامته الأدنى من المتوسط تبعث على الاطمئنان.

وقد قام بحديث قصير بلغة ألمانية فظة شائعة فى الثكنات، وتأكدت خيبة الأمل. هؤلاء إذن كانوا الكيميائيين. حسنا، كان هذا ألكس، وإذا كانوا هم يعتقدون أنهم دخلوا الجنة فإنهم مخطئون. أولا، حتى يوم بداية الإنتاج لم تكن القيادة ٩٨ ستصبح سوى قيادة نقل عادية ملحقة بمخزن كلوريد الماغنسيوم.

ثم إذا كانوا يعتقدون، لأنهم من المثقفين، أن بوسعهم التلاعب به، بـ "ألكس"، وهو ألمانى حقيقى، حسنا، فإن الله سيريهم، سيريهم هو... وكانت القبضة المغلقة وكانت إصبع السبابة الممدودة تقطع الهواء بالعرض (بحركة التهديد عند الألمان)، وفى النهاية كان عليهم ألا يفكروا فى خداع أى أحد إذا تقدم أحدهم ككيميائى دون أن يكون كذلك. اختبار، نعم أيها السادة، فى الأيام القادمة اختبار فى الكيمياء أمام لجنة ثلاثية من قسم البلمرة: الدكتور هاجن، والدكتور بروبست، والدكتور إنجينيور بانفيتز.

وبهذا، أيها السادة، أضعنا وقتا بما فيه الكفاية، وكانت القيادتان ٩٦ و٩٧ قد بدأتا بالفعل، إلى الأمام مارش، وبداية، من لم يساير الخطى ويسرْ فى الصف سيتعين عليه التعامل معه.

لقد كان رئيسا مثل كل الرؤساء الآخرين.

عند الخروج من معسكر الاعتقال، وأمام الفرقة الموسيقية وموقع عدّ الشرطة السرية، نسير خمسة خمسة، والبيريه فى أيدينا والأذرع ساكنة على طول الجنبين والرقبة مشدودة، ولا يجب أن نتكلم. ثم نسير ثلاثة ثلاثة، وعندئذ يمكن أن نحاول تبادل بعض الكلمات من خلال قعقعة عشرة آلاف الزوج من القباقيب الخشبية.

مَنْ زملائى الكيميائيون هؤلاء؟ إلى جوارى يسير ألبرتو، وهو طالب فى السنة الثالثة، وفى هذه المرة أيضًا نجحنا فى ألا ينفصل كل منا عن الآخر. والثالث على يسارى لم أرَه قط، ويبدو شابا جدًا، وهو شاحب كالشمع، ويحمل رقم الهولنديين. والظهور الثلاثة أمامنا أيضًا جديدة. ومن الخطر الالتفات إلى الوراء، ويمكن أن أفقد الخطوة أو أتعثر، ومع ذلك فإننى أحاول للحظة، ورأيت وجه إيس كلاوسنر.

ما دمنا نسير فلا وقت للتفكير، ولا بد أن ننتبه لعدم نزع القباقيب من الذى يعرج فى الأمام وعدم نزعها ممن يعرج فى الخلف، وبين الحين والآخر هناك كابل لا بد من تخطيه، أو بقعة لزجة من الماء لا بد من تجنبها. وأنا أعلم أين نحن، فقد مررت من هنا من قبل مع قيادتى السابقة، إنه شارع H -، شارع المخازن. وأقول هذا لألبرتو ونحن ذاهبون حقا إلى كلوريد المغنسيوم، على الأقل هذه لم تكن قصة مختلقة..

لقد وصلنا، وننزل فى الجزء السفلى من منزل واسع ورطب ومليء بتيارات الهواء، وهذا هو مقر القيادة التى تسمى هنا بودى Bude. ويقوم القائد بتقسيمنا إلى ثلاث فرق: أربعة لتفريغ الجوالات من العربة، وسبعة لنقلها إلى أسفل، وأربعة لتخزينها فى المخزن، وهؤلاء هم أنا وألبرتو وإيس والهولندى.

وأخيرا يمكن أن نتحدث، وما قاله ألكس لكل منا يبدو حلمًا مجنونًا.

وبوجوهنا الفارغة هذه، وبهذه الجماجم المحلوقة المجزوزة، وبهذه الملابس المخجلة، علينا اجتياز اختبار الكيمياء. سيكون باللغة الألمانية بالطبع، وسيتعين علينا المثول أمام شخص أشقر يُدعى "آريو دكتور" ونحن نأمل ألا نضطر إلى النفٍ لأنه ربما لا يعلم أننا لا نملك مناديل، ولن نستطيع بالطبع أن نشرح له ذلك. وسيصاحبنا جوعنا القديم الملازم لنا، وسوف نجتهد للبقاء ساكنين على ركبتينا، وسيشم هو بالطبع رائحتنا هذه، التى اعتدنا عليها الآن، ولكنها كانت تطاردنا فى الأيام الأولى: رائحة اللفت والكرنب النيِّئ المطهو والمهضوم.

هكذا كان، كما يؤكد كلاوسنر. وهل الألمان فى حاجة شديدة إذن إلى الكيميائيين، أم هى خدعة جديدة، وآلة جديدة "لإزعاج اليهود؟" وهل يأخذون فى الحسبان الاختبار المضحك والسخيف الذى يُطلب منا، منا نحن الذين لم نعد أحياء، نحن الذين أصبحنا نصف مجانين فى الانتظار الكئيب للا شىء؟

ويُظهر لى كلاوسنر قاع قصعته، وهناك حيث ينقش الآخرون رقمهم، ونقشت أنا وألبرتو اسمينا، كتب كلاوسنر "لا تحاول أن تفهم".

وعلى الرغم من أننا لا نفكر لأكثر من بضع دقائق في اليوم، وحتى حينئذ بطريقة غريبة مبتعدة وخارجية، فإننا نعلم جيدًا أننا سننتهي إلى الانتقاء، وأنا أعلم أنني لست من قماشة أولئك الذين يقاومون، فأنا مدني أكثر من اللازم، ولا أزال أفكر كثيرًا وأستهلك نفسي في العمل. والآن أعلم أيضًا أنني سأنجو إذا ما أصبحت متخصصًا، وسأصبح متخصصًا إذا اجتزت امتحانًا في الكيمياء.

واليوم، هذا اليوم الحقيقي الذي أجلس فيه إلى طاولة وأكتب، أنا نفسي غير مقتنع بأن هذه الأشياء قد حدثت حقا.

وقد مرت ثلاثة أيام، ثلاثة من الأيام المعتادة التي تعيها الذاكرة طويلة جدًا عندما كانت تمر وقصيرة جدًا بعد أن مرت، وكان الجميع قد تعبوا من الإيمان بامتحان الكيمياء.

كانت القيادة قد انخفضت لاثني عشر رجلا: ثلاثة كانوا قد اختفوا بالطريقة المعتادة هناك، ربما في الثكنة المجاورة وربما شُطبوا من العالم. ومن الاثني عشر كان هناك خمسة من غير الكيميائيين، وكان الخمسة جميعهم قد طلبوا على الفور من ألكس العودة إلى قياداتهم السابقة. لم يتجنبوا الضرب، ولكن على غير توقع، ولا أحد يدري من أية سلطة، تقرر أن يبقوا، منضمّين كمساعدين إلى القيادة الكيميائية.

وجاء ألكس إلى كانتين الكلورمغنسيوم ونادى من الخارج لنا نحن السبعة، للذهاب لأداء الامتحان. وها نحن مثل سبعة من الكتاكيت المرتبكة خلف الدجاجة، نتبع ألكس صعودا على سلم مكتب البلمرة. نحن فى الطابق الأرضى، وهناك لوحة صغيرة على الباب بالأسماء الثلاثة الشهيرة. ألكس يطرق الباب باحترام ويخلع البيريه ويدخل، ويُسمع صوت هادئ، ويخرج ألكس قائلاً: هدوءًا، الآن. انتظروا.

نحن مسرورون من هذا. وعندما ننتظر، يسير الوقت ناعما دون أن نتدخل لدفعه إلى الأمام، ولكن عندما نعمل فإن كل دقيقة تمر علينا بصعوبة ويجب أن ندفعها بعناء. نحن مسرورون دائما بالانتظار، ونحن قادرون على الانتظار لساعات مع الخمول الفاتر التام مثل العناكب فى شباكها القديمة.

ألكس عصبى ويمر جيئة وذهابا، ونحن فى كل مرة نبتعد عند مروره، ونحن أيضًا قلقون، كل منا على طريقته. "مندى" فقط هو الذى لا يشعر بالقلق. ومندى حاخام، وهو من روسيا الواقعة جنوب إقليم الكرباخ، من ذلك المزيج من الشعوب التى يتحدث فيها كل شخص على الأقل ثلاث لغات، ومندى يتحدث منها سبعا، وهو يعلم أشياء كثيرة جدًّا، فعلاوة على أنه حاخام هو صهيونى ناشط، وعالم باللغات، وكان من رجال المقاومة

وهو دكتور فى القانون، وهو ليس كيميائيًا ولكنه يريد المحاولة مع ذلك، وهو رجل صغير عنيد وشجاع وحاد الذهن.

"باللا" عنده قلم من الرصاص، والجميع يلتفون حوله. ونحن لسنا واثقين من أننا سنكون قادرين على الكتابة بعد ذلك، ونود أن نحاول.

Kohlen wasserstoffe, Massenwirkungsgesetz. تظهر أمامى الأسماء الألمانية للمركّبات والقوانين، وأشعر بالعرفان تجاه عقلى، فلم أعد أنشغل به كثيرًا ولكنه لا يزال ينفعنى كثيرا جدًا.

ها هو ألكس. إننى كيميائى. ما علاقتى بألكس هذا؟ يقف منتصبا أمامى، ويضبط لى ياقة السترة بخشونة ويأخذ منى البيريه ويكبسه فى رأسى، ثم يقوم بخطوة إلى الوراء ثم ينظر نظرة فاحصة لتقييم النتيجة بمظهر مشمئز، ويدير ظهره وهو يغمغم:

«يا لها من صفقة بالية!».

انفتح الباب وقرر الدكاترة الثلاثة أن ستة ممتحنين يمرُّون فى الصباح. السابع لا. السابع هو أنا، ورقم القيد الخاص بى هو الأعلى، ويتعين علىّ العودة إلى العمل. وفى العصر فقط يجىء

ألكس لكى يأخذنى. يا له من حظ عاثر، فلن أستطيع التخاطب مع الآخرين لكى أعرف "الأسئلة التى يجيبون عليها".

فى هذه المرة نحن فى مأزق فعلاً. وعلى السلم ينظر ألكس إلىَّ شزرا، وأشعر بصورة ما بمظهرى البائس. وهو لا يحبنى لأننى إيطالى، ولأننى يهودى، ولأننى، من بين الجميع، الشخص الذى يبتعد أكثر عن مثله الأعلى الرجولى المتغطرس. وبالمثل، ودون أن يفهم شيئا من هذا، ولكونه فخورًا بعدم خبرته هذه، فإنه يتظاهر بانعدام ثقة عميق فى احتمالات نجاحى فى الامتحان.

دخلنا. هناك فقط الدكتور بافيتز ، يتحدث إليه ألكس، والبيريه فى يده، بصوت خفيض:

-... «إيطالى فى معسكر الاعتقال منذ ثلاثة شهور فقط، وهو بالفعل نصف معطل... هو يقول إنه كيميائى...»، ولكن ألكس يبدو أن لديه تحفظات فى هذا الشأن.

ولفترة وجيزة يوقف ألكس ويُنَحِّى جانبا، وأنا أشعر بأننى أوديب أمام أبى الهول؛ فأفكارى واضحة وأدرك أيضًا فى هذه اللحظة أن المخاطرة كبيرة، ولكننى أشعر باندفاع مجنون للاختفاء، والانسحاب من الاختبار.

وبانفيتز شخص طويل ونحيف وأشقر، وعيناه وشعره وأنفه مثل كل الألمان، ويجلس بصورة رائعة خلف مكتب معقد. وأنا المعتقل ١٧٤٥١٧ أقف فى عيادته التى هى عيادة حقيقية، لامعة نظيفة مرتّبة، ويبدو لى أننى قد أترك بقعة قذرة فى أى مكان ألمسه.

وعندما انتهى من الكتابة رفع عينيه ونظر إلىَّ.

ومن ذلك اليوم، فكرت فى الدكتور بانفيتز مرات عديدة وبطرق عديدة، وتساءلت ما وظيفته الدفينة كإنسان؛ وكيف كان يملأ وقته، خارج البلمرة والوعى الهند - أوروبى، وخصوصًا عندما أصبحت من جديد رجلا حرا. رغبت فى مقابلته مرة أخرى، وليس على سبيل الانتقام، ولكن فقط لفضول عندى تجاه النفس البشرية.

لأن تلك النظرة لم تحدث بين رجلين، ولو أمكن لى أن أشرح بالكامل طبيعة تلك النظرة، التى تبادلناها كما لو كان ذلك عبر حائط زجاجى فى حوض للأسماك بين كائنين يسكنان وسائط مختلفة، لشرحت أيضًا جوهر الجنون الكبير لألمانيا الثالثة.

إن كل الذى نعتقده ونقوله عن الألمان فُهِمَ فى تلك اللحظة بصورة مباشرة؛ فالعقل الذى كان يعلو تلك العيون الزرقاء وتلك

الأيدى المرفهة كان يقول: "إن هذا الشيء الذى أمامى ينتمى إلى نوع يجدر بنا بالطبع أن نقمعه. وفى هذه الحالة الخاصة، لا بد أولا من التأكد من أنه لا يحتوى على بعض العناصر المفيـــدة". وفى رأسى، كبذور فى قرعة كبيرة فارغة، قلت: "إن العيـــون الزرقاء والشعر الأشقر هى شريرة أساسًا، ولا يمكن القيام بأى تخاطب، وأنا متخصص فى كيمياء المعادن، ومتخــصص فـــى التركيبات العضوية، ومتخصص...".

وبدأ الاستجواب، بينما كان ألكس، النمـــوذج الحيـــوانى الثالث، يتثاءب فى ركنه ويجزّ على أسنانه.

- أين وُلدت سيادتك؟

هكذا يخاطبنى بصيغة الاحترام؛ فالدكتور إنجينيور بانفيتز لا يتمتع بروح الفكاهة. عليه اللعنة، إنه لا يقـــوم بـــأدنى جهـــد للتحدث بلغة ألمانية مفهومة قليلاً.

- «لقد تخرجت فى الجامعة فـــى تورينـــو فـــى ١٩٤١ بامتياز فائق»، وبينما أقول هذا أشعر بشعور محدد بأنـــه لـــن يصدقنى أحد، والحقيقة أننى لا أصدق هذا أنا نفسى، ويكفى أن أنظر إلى يدَىَّ القذرتين والمثنيتين، وبنطـــال الأشـــغال الـــشاقة المتسخ بالطين السميك. ومع ذلك فإنه أنا بالذات، خريج تورينو، بل إن من المستحيل فى هذه اللحظة بالذات الشك فـــى هـــويتى

معه، فخزان ذكريات الكيمياء العضوية بالفعل حتى بعد الخمول الطويل، يستجيب للطلب بوداعة غير متوقَّعة، وأيضًا هذه النشوة اليقظة وهذا الحماس الذى أشعر به ساخنا فى عروقى، كما أتعرف عليه، هو حمى الامتحانات، الحمى التى أشعر بها فى امتحاناتى، تلك التعبئة التلقائية لكل قدراتى المنطقية وكل المعارف التى كان يحسدنى عليها زملائى كثيرًا فى المدرسة.

الامتحان يسير سيرا حسنا، وشيئا فشيئا كلما أدركت هذا، يبدو لى أن قامتى تطول. والآن يسألنى عن موضوع بحث التخرج، ويجب أن أقوم بجهد عنيف لإثارة هذه اللقطات من ذكريات بعيدة جدًّا، كما لو كنت أحاول تذكر أحداث تجسيد سابق.

وهناك شىء يحمينى. إن "قياسات الثوابت العازلة" القديمة الفقيرة التى قمت بها تهمُّ بصفة خاصة هذا الآرى الأشقر الذى يتمتع بحياة آمنة؛ يسألنى ما إذا كنت أعرف الإنجليزية ويرينى نص جاترمان، وهذا أيضًا سخيف ومجافٍ للواقع، أن هناك على الجانب الآخر من الأسلاك الشائكة يوجد جاترمان يطابق فى كل شىء ذلك الذى كنت أدرسه فى إيطاليا، فى السنة الرابعة، فى بيتى.

الآن انتهى الأمر: الإثارة التى ساندتنى طوال الامتحان تتراجع فجأة، وأتأمل مندهشا وواهنا اليد ذات البشرة الشقراء

التى تكتب مصيرى على الصفحة البيضاء، بعلامات غير مفهومة.

- هيا بنا!

هكذا يدخل ألكس مسرح الأحداث، وأُصبح من جديد فى دائرته القضائية. يقوم بتحية بانفيتز بطرق كعبَى الحذاء، ويحصل فى مقابل ذلك على إشارة خفيفة للغاية من الجفون. وأتلمس طريقى للحظة واحدة بحثا عن صيغة مناسبة للاستئذان، دون جدوى، فأنا أعرف بالألمانية الأفعال (يأكل، ويعمل، ويسرق، ويموت)، وأعرف أيضًا الكلمات (حمض الكبريتيك، والضغط الجوى، ومولِّد الموجات القصيرة)، ولكننى لا أعرف بالضبط كيف يمكن أن أحيِّى شخصا رفيع المقام.

وها نحن من جديد على السلم. ألكس يطير على السلالم، ويلبس حذاء من الجلد لأنه ليس يهوديا، وهو خفيف على أقدامه مثل شياطين مالبولج. ويلتفت من أسفل لينظر إلىَّ شزرا، بينما أهبط أنا متعثرا ومحدثا صخبا بقباقيبى المختلفة والضخمة متشبثا بالدرابزين كرجل عجوز.

ويبدو أن الأمر سار على ما يرام، ولكن قد يكون من البلاهة الاعتماد على ذلك. وأنا أعرف معسكر الاعتقال بما فيه الكفاية لكى أعرف أنه لا يجب القيام أبدًا بتنبؤات، وخصوصًا

إذا كانت متفائلة. ما هو مؤكد هو أننى أمضيت يوما بلا عمل، وبالتالى فإننى سأشعر هذا الليل بجوع أقل، وهذه ميزة فعلية ومكتسَبة.

للعودة إلى بودى، لا بد من عبور مساحة مزدحمة بالكمرات وأبراج الكهرباء المعدنية المكوَّمة، ويقطع الطريق كابل الونش الصلب، ويمسك ألكس به ليتخطاه، يا إلهى! وها هو ينظر إلى يده السوداء من الشحم اللزج، وفى الوقت نفسه لحقت به، ودون كراهية ودون احتقار يقوم ألكس بمسح يده على كتفى، راحة يده وظهرها، لتنظيفها، وربما يكون ألكس البرىء المتوحش مندهشا جدًّا إن قال له أحد إننى سأحكم عليه على أساس عمله هذا اليوم، هو وبانفيتز والذين كانوا مثله، ولا حصر لهم، من الكبار والصغار، فى أوشفيتز وفى كل مكان.

أنشودة عوليس

كنا ستة نكشط وننظف داخل صهريج تحت الأرض، وكان ضوء النهار يصلنا فقط عبر باب الدخول الصغير، وقد كان عملا مرفها، لأنه لم يكن هناك أى أحد يراقبنا، ولكن الجو كان باردا ورطبا، وكان تراب الصدأ يلسعنا تحت جفوننا ويخلط حلقنا وفمنا بمذاق الدم تقريبا.

وقد تأرجح سلم الحبال الذى كان يتدلى من الباب الصغير. كان هناك شخص قادم. أطفأ دويتش السيجارة، وأيقظ جولدنر سيفاديان، واستأنفنا جميعا الكشط بقوة فى الجدار المعدنى الرنان.

لم يكن رئيس العمل، كان جون فقط، البيكولو (الصغير) فى قيادتنا. كان جون طالبا من إقليم الألزاس، وعلى الرغم من أنه كان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، فقد كان أصغر معتقل فى القيادة الألمانية، ولهذا كان من نصيبه منصب الصغير، أى الساعى الموظف، الملحق بنظافة الثكنة، وتسليم المعدات وغسيل القصعات، وحساب ساعات العمل فى القيادة.

كان جون يتحدث الألمانية والفرنسية بطلاقة. وبمجرد أن أحسسنا بصوت حذائه على أعلى درجة من السلم الصغير توقف الجميع عن الكشط:

- ما الجديد إذن يا بيكولو؟

- ما نوع الحساء اليوم؟

... ماذا كان مزاج القائد؟ وواقعة الخمس والعشرين جلدة لشتيرن؟ ماذا كانت حالة الجو فى الخارج؟ هل قـرأ الجريـدة؟ كيف كانت رائحة المطبخ المدنى؟ كم كانت الساعة؟

كان محبوبا جدًّا فى القيادة. ويجب أن نعرف أن منـصب بيكولو يمثل درجة أعلى بكثير فى سـلم المناصـب البـارزة، وبيكولو (الذى لا يتجاوز عمره عادة سبعة عشر عامًا) لا يعمل يدويًا ويتصرف بحرية فى قاع أوانى الطعام، ويمكن أن يبقـى طوال اليوم إلى جوار المدفأة؛ "لهذا" فإن له الحق فـى نـصف وجبة إضافية، وعنده إمكانيات طيبة فـى أن يـصبح صـديقا وموضع ثقة للرئيس، الذى يتلقى منه رسميا الملابس والأحذيـة المستعمَلة. والآن كان جون صغيرا واستثنائيا، فقد كـان ذكيًـا وقويًا بدنيًا، وفى الوقت نفسه وديعا وودودا، وعلى الرغم من أنه كان يخوض بعناد وشجاعة معركته الشخـصية الـسرية ضـد المعسكر وضد الموت، فإنه كان يهمل الإبقاء علـى علاقـات إنسانية مع الزملاء الأقل تميزا، ومن ناحية أخرى كان مـاهرا جدًّا ومثابرا حتى أنه وطد ثقة ألكس الرئيس فيه.

وكان ألكس قد أبقى على كل وعوده، وكان قد أثبت أنــه وحش كبير وعنيف وغادر، ومدرع بجهــل وغبــاء شــديدَين ومُحكَمين، باستثناء حدسه وتقنيته كقاتل خبير ومحنك. ولم يكن يضيع فرصة فى التصريح بأنه فخور بدمائـــه النقيـــة ومثلثـــه الأخضر، وكان يتظاهر باحتقار متعال للكيميـــائيين المهلهلـــين والجوعى عنده، فكان يضحك بسخرية كل يوم عنـــدما يـــراهم يتزاحمون بقصعاتهم الممدودة عند توزيع التعيين قائلاً لهم: «يا معشر الدكاترة! يا معشر الأذكياء!»، وتجاه الرؤساء المـــدنيين كان الرئيس مستسلما ومطيعا للغاية، وكـــان يحـــتفظ بعلاقـــات صداقة ودية مع أفراد الشرطة السرية.

وكان خائفا بوضوح من سجل القيادة ومن التقرير اليومى الصغير عن الخدمات، وكان هذا هو الطريق الذى اختاره بيكولو لكى يجعل نفسه ضروريا عنده. وكان عملا بطيئا وحذرا ودقيقا، تابعته القيادة بأسرها لمدة شهر وهى تحبس أنفاسها، ولكن دفاع القنفذ أمكن اختراقه فى النهاية، وتأكد بيكولو فى منصبه، مـــع رضاء كل المعنيين.

وعلى الرغم من أن بيكولو لم يقم بإساءة استخدام موقعه، فإننا استطعنا أن نستنتج بالفعل أن كلمة واحدة منه، عندما كانت تقال بالنبرة المضبوطة وفى اللحظة المناسبة، كانت لهـــا قـــوة

كبيرة، وفى مرات عديدة كان لها الفضل فى إنقاذ البعض منا من الجَلد أو الإبلاغ للشرطة السرية. منذ أسبوع كنا أصدقاء، وقد اكتشف كل منا الآخر فى مناسبة غير عادية فى أثناء إنذار جوى، ولكننا بعد ذلك لم نتمكن سوى من تحية كل منا للآخر بسرعة، فى الحمَّامات، فى المغسلة.

وقد قال لى وهو معلق بيد واحدة بالسلم المتأرجح:

- اليوم بريمو هو الذى سيأتى معى للبحث عن الحساء.

حتى اليوم السابق كان شتيرن، الصعيدى الأحول، والآن كان هذا الأخير قد وقع فى كارثة بسبب قصة مقشات سُرقت من المخزن، وكان بيكولو قد نجح فى مساندة ترشيحى كمساعد فى "إحضار الطعام"، فى السخرة اليومية لإحضار الطعام.

وقد تسلق إلى الخارج، وتبعته، وأنا أرمش فى ضوء النهار. كان الجو دافئا فى الخارج، وكانت الشمس ترفع من الأرض المشحمة رائحة خفيفة للطلاء والقطران كانت تذكرنى ببعض الشواطئ الصيفية فى طفولتى، وقد أعطانى بيكولو أحد القضبان، وسرنا تحت سماء يونيو الصافية.

وقد بدأت فى شكره، ولكنه قاطعنى، ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك. وقد كنا نرى جبال الكارباتسى المغطاة بالجليد، وقد تنفست الهواء المنعش وكنت أشعر بأننى خفيف على غير العادة.

- «من الجنون أن تسير بهذه السرعة، فلدينا الوقت كما تعلم». كان الطعام يسلَّم على بعد كيلومتر واحد؛ وكان لا بد بعد ذلك من العودة بالإناء زنة الخمسين كيلوجرامًا، بعد إدخال القضبان فيه. كان عملاً شاقًا إلى حد كبير، ولكنه كان يشتمل على مسيرة سارة بدون حمل، وفرصة الاقتراب من المطابخ التى نرغب فيها دائما.

أبطأنا الخطو. كان بيكولو خبيرًا، وكان قد اختار الطريق بحرص بحيث نقوم بجولة طويلة، بالسير ساعة على الأقل، دون إثارة الشكوك. كنا نتحدث عن بيوتنا فى ستراسبورج وتورينو، وقراءاتنا، ودراساتنا. وأمهاتنا: كم تتشابه كل الأمهات فى العالم! وقد كانت أمه توبخه أيضًا بأنه لا يعرف قط كم يملك من المال فى جيبه، وكانت أمه ستندهش أيضًا لو عرفت أنه دبر أمره، وكان يدبر أمره يوما بعد يوم.

مر أحد أفراد الشرطة السرية على دراجة. إنه رودى، قائد البلوك. «قف انتباهًا»، وخلع البيريه. ذلك القبيح القذر. كلب منفّر تمامًا. لا فرق عنده فى التحدث بالفرنسية أو الألمانية! لا فرق عنده، يمكنه التفكير بكلتا اللغتين. وقد عاش شهرا فى ليجوريا، وهو معجب بإيطاليا، ويود تعلم الإيطالية. ويسرنى أن أعلمه الإيطالية: ألا نستطيع أن نفعل ذلك؟ نستطيع. وأيضًا على

الفور، فهذا الشيء مقابل ذلك، والمهم هو عدم إضاعة الوقت، وعدم تبديد هذه الساعة.

ويمر ليمنتانى، الرومانى، وهو يجر أقدامه، وهو يحمل قصعة مخبأة تحت سترته. ويقف بيكولو منتبها، ويلتقط بعض الكلمات من حوارنا ويكررها ضاحكا: حساااء، معسكررررر، مااااء.

ويمر فرنكل الجاسوس؛ ونسرع الخطو، فلا أحد يدرى، فذلك الشخص يفعل الشر من أجل الشر.

... أنشودة عوليس. لا أعرف كيف ولماذا خطرت ببالى، ولكن ليس أمامنا وقت للاختيار، فهذه الساعة لم تعد ساعة. إذا كان جون ذكيا فإنه سيفهم، سيفهم: أشعر اليوم بأننى قادر على ذلك.

... مَنْ دانتى؟ وما الكوميديا الإلهية؟ وما الشعور الغريب بالحداثة الذى نشعر به، إذا حاولنا أن نشرح باختصار ما الكوميديا الإلهية؟ كيف يوزَّع الجحيم؟ وما الانتقام؟ فيرجيليو هو العقل وبياتريس هى الثيولوجيا.

جون فى غاية الانتباه، وأنا أبدأ فى بطء وحذر:

بدأ يهتز القرن الأكبر فى الشعلة القديمة

وهو يدوى مثل تلك التى ترهقها الريح

وبينما هو يحرك طرفه من ناحية إلى أخرى، كأنه اللسان الذى يتكلم، أطلق صوته وقال: "حينما...

هنا أتوقف وأحاول الترجمة، وكانت كارثة: مسكين دانتى ومسكينة اللغة الفرنسية! ومع ذلك فإن التجربة تبشر بالخير. وينظر جون بإعجاب إلى التشابه الغريب فى اللغة، وينصحنى باللفظ المناسب لترجمة كلمة "قديمة" [illegible]

وبعد كلمة "حينما"؟ لا شىء. ثقب فى الذاكرة. قبل أن يسميها كذاك إينياس. ثقب آخر. وتظهر على السطح بعض الأجزاء غير المستخدمة: "... العطف على أبى الشيخ، ولا الحب الواجب الذى كان ينبغى أن يجعل بنيلوب سعيدة..."، "... سيكون صحيحا؟

... ولكننى وضعت نفسى على البحر العميق المفتوح».

هذا نعم، أنا واثق من هذا، وأستطيع أن أشرح لبيكولو، أن يميز لماذا "misi me" وليس "je me mis"، أقوى وأكثر جرأة، إنها علاقة انكسرت، إنها إلقاء بأنفسنا وراء حاجز، ونحن نعرف جيدًا هذا الدافع. عُرْض البحر المفتوح. لقد سافر بيكولو بالبحر ويعرف ماذا يعنى، عندما ينغلق الأفق على نفسه، حرا مستقيما وبسيطا، ولم يعد هناك الآن سوى رائحة البحر: أشياء حلوة بعيدة بصورة وحشية.

وصلنا إلى الـمعمل، حيث تعمل قيادة وضع الكـابلات. ولا بد أن يكون هناك المهندس ليفى. ها هو، نرى رأسه فقط خارج الخندق. يشير إلىَّ بيده، وهو رجل ماهر، ولم أرَه قط منخفض الروح المعنوية، ولا يتحدث أبدًا عن الأكل.

"Mare aperto"، "Mare aperto". أنا أعلم أنها تتفق مع قافية "diserto": "... تلك الجماعة القليلة التى لم تتخلَّ عنى"، ولكننى لم أعد أذكر إن كانت تأتى أولا أو بعد ذلك. وكذلك الرحلة، الرحلة الجريئة وراء أعمدة هرقل، ياللحزن! إننى مضطر إلى روايته نثرا! إنه حطّ من قيمة الشعر. لم أنقذ سوى بيت، ولكنه يستحق أن نتوقف عنده:

... كى لا يسير الإنسان قدما.

"Si metta": كان يجب أن آتى إلى معسكر الاعتقال لكى أنتبه إلى أنه التعبير الأول نفسه، "e misi me". ولكننى لا أشرك جون فيه، ولست واثقا أنها ملاحظة هامَّة. كم من الأشياء الأخرى يجب أن تقال! وقد ارتفعت الشمس فى السماء، واقترب منتصف النهار. إننى فى عجلة من أمرى، عجلة محمومة.

إذن، انتبه يا بيكولو، افتح عينيك وعقلك، إننى أحتاج منك أن تفهم:

ارعوا أهلكم، إنكم لم تخلقوا لتعيشوا كالوحوش

ولكن لتبتغوا الفضيلة والمعرفة

كما لو كنت أسمعه أنا أيضًا للمرة الأولى، مثل صوت بوق، مثل صوت الله. وللحظة واحدة نسيت من أنا وأين أنا.

ويرجونى بيكولو أن أكرر ما قلته. كم هو طيب بيكولو! لقد تنبه إلى أنه يفعل الخير لى، أو ربما أكثر من ذلك؛ فعلى الرغم من الترجمة الباهتة والتعليق المبتذل والمتعجل، ربما تلقى الرسالة، وشعر أن هذا يتعلق به، ويتعلق بكل البشر الذين يعانون، وخصوصًا نحن؛ ويتعلق بنا نحن الاثنين، اللذين نتجرأ على مناقشة هذه الأشياء وقضبان الحساء على أكتافنا.

جعلت رفاقى متحفزين للرحلة هكذا...

... وأجتهد، ولكن دون جدوى، فى أن أشرح له كم من الأشياء تعنى "متحفزين" هذه. وهنا ثغرة أخرى، لا علاج لها هذه المرة. "... أضاء النور... فى أسفل القمر" أو شىء من هذا القبيل، ولكن قبل ذلك؟... لا توجد أية فكرة، "keine Ahnung" كما يقال هنا، عسى أن يسامحنى بيكولو، فقد نسيت على الأقل أربعة مقاطع.

– هذا لا يهم، استمر رغم كل شىء.

... حينما لاح لنا جبل داكن على البعد، وبدا لى شـاهق الارتفاع إلى حد لم أرَ له مثيلا. __

نعم، نعم، "alta tanto"، وليس "molto alta" جملة تعبر عن النتيجة. والجبال عندما نراها من بعيد... الجبـال... آه يـا بيكولو، يا بيكولو، قل شيئا، تحدث، ولا تدعنى أفكر فى جبالى، التى كانت تظهر فى ظلمة المساء عندما كنت أعود بالقطار من ميلانو إلى تورينو!

- كفى، يجب أن نواصل، فهذه أشياء يفكر فيهـا الإنـسان، ولكنها لا تقال. بيكولو ينتظر وينظر إلىَّ.

أودُّ لو أننى قدمت حساء اليوم على أن أتمكن من لحام "لم أرَ له مثيلا" بالخاتمة. وأجتهد لإعادة البناء عن طريق القوافى، وأغمض عينىَّ، وأعض على أصابعى، ولكن لا فائدة من ذلك، فالباقى هو الصمت. وتتراقص فى رأسى أبيات أخـرى: "la... terra lagrimosa diede vento..." لا، هذا شىء آخر. إن الوقت متأخر، متأخر، لقد وصلنا إلى المطبخ، ولا بد من الختام:

وجعلته يدور ثلاث مرات مع المياه كلها،

وفى الرابعة رفعت مؤخرته إلى أعلى،

وهبطت بالمقدمة إلى أسفل، كما راق للآخرين...

وأستوقِف بيكولو، فمن الضرورى والملحّ بصورة مطلقة أن يستمع، وأن يفهم عبارة "كما راق للآخرين"، قبل فوات الأوان، وغدا يمكن أن أكون أنا وهو فى عداد الموتى، أو لا يرى أى منا الآخر بعد ذلك، ويجب أن أتحدث إليه وأن أشرح له العصور الوسطى، والمفارقة التاريخية الإنسانية جدًّا والضرورية وغير المتوقعة مع ذلك، وغير ذلك أيضًا، شيء هائل رأيته أنا نفسى الآن فقط، فى حدس لحظة واحدة، ربما هو السبب فى مصيرنا، وأننا هنا اليوم...

نحن الآن فى الطابور من أجل الحساء، وسط الجمهور القذر المهلهل من حاملى الحساء من القيادات الأخرى. الواصلون الجدد يتزاحمون وراء ظهورنا... كرنب ولفت، كرنب ولفت. ويُعلَن رسميا أن الحساء من الكرنب واللفت بالفرنسية والبولندية.

حتى انسدّ البحر من فوقنا

أحداث الصيف

طوال فصل الربيع كانت قد وصلت سيارات نقل من المجر، وكان نصف المعتقلين من المجريين، وكانت المجرية بعد اليديية[1] هى اللغة الثانية فى المعسكر.

وفى شهر أغسطس ١٩٤٤، كنا نُعَدُّ، نحن الذين دخلنا منذ خمسة أشهر، من القدامى. وعلى هذا الأساس، لم نكن قد اندهشنا فى القيادة ٩٨ من أن الوعود التى وُعدنا بها واختبار الكيمياء الذى اجتزناه لم تترتب عليها أية عواقب، ولم نندهش ولم نحزن كثيرا، وفى نهاية المطاف كان لدينا بعض الخوف من التغييرات، وكانت هناك حكمة من حكم المعسكر تقول: "عندما يتم التغيير فإنه يكون إلى الأسوأ". وبصفة عامة، كانت التجربة قد أثبتت لنا فى مرات لا تحصى عدم جدوى أى تنبؤ؛ فما الغاية من تعذيب النفس للتنبؤ بالمستقبل فى حين أنه لا يمكن لأى عمل لنا ولا أى كلمة أن تؤثر عليه أدنى تأثير؟ لقد كنا معتقلين قدامى، وكانت حكمتنا هى "عدم محاولة الفهم"، وألا نتمثل

---

(١) لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى الاتحاد السوفييتى وبلدان أوروبا الوسطى، وهى تُكتب بأحرف عبرية. (المترجم)

المستقبل، ولا نعذب أنفسنا حول كيف ومتى سينتهى كل شىء: عدم توجيه أسئلة للآخرين أو لأنفسنا.

كنا نحتفظ بذكريات حياتنا السابقة، ولكنها كانت مستترة وبعيدة، ولذا فقد كانت حلوة وحزينة بعمق، مثل ذكريات أى أحد عن طفولته الأولى وكل الأشياء المنتهية، بينما كانت لحظة دخول المعسكر بالنسبة إلى كل منا وراء سلسلة مختلفة من الذكريات، وهذه قريبة وصعبة، وتؤكدها الخبرة الحالية باستمرار، كجراح يعاد فتحها كل يوم.

والأخبار التى عرفناها فى الترسانة، عن هبوط الحلفاء فى نورماندى، والهجوم الروسى، والهجوم الفاشل على هتلر، كانت قد أثارت موجات من الأمل عنيفة ولكنها عابرة. وقد كان كل واحد يشعر يوما بعد يوم بقواه تهرب منه، والرغبة فى الحياة تتبدد، والعقل يعتم، وقد كانت نورماندى وروسيا بعيدتين جدًا، وكان الشتاء قريبا جدًا، والجوع والأسى ملموسين جدًا، وكل الباقى غير واقعى جدًا، حتى أنه لم يكن من الممكن أن يوجد عالم وزمان، سوى عالمنا الطينى، وزماننا العقيم والراكد الذى أصبحنا غير قادرين الآن على تخيل نهاية له.

والبشر الأحياء يرون أن وحدات الزمن لها قيمة دائما، وهى تتزايد بقدر ما ترتفع الموارد الداخلية لمن يمر بها، ولكننا نرى

الساعات والأيام والشهور تمر فى تكاسل من المستقبل إلى الماضى، بطيئة جدًّا دائما، ومادة بائسة وسطحية كنا نحاول أن نتخلص منها بأسرع ما يمكن. وبانتهاء الوقت الذى كانت تتعاقب فيه الأيام حيوية ثمينة ولا علاج لها، كان المستقبل يقف أمامنا رماديا وغير واضح، كحاجز لا يُقهر. بالنسبة إلينا، كان التاريخ قد توقف.

وفى أغسطس ١٩٤٤ بدأت الغارات على سليزيا العليا، وطال أمدها، مع فترات توقف واستئناف، طوال الصيف والخريف حتى الأزمة النهائية.

وقد توقفت المعاناة الرهيبة المستمرة المتزامنة لمخاض بونا فجأة، وتدهور على الفور إلى نشاط متفكك، ومحموم وسخيف. فاليوم الذى كان من المقرر أن يبدأ فيه إنتاج المطّاط الصناعى، وهو ما كان يبدو وشيكا فى أغسطس، تأجل شيئا فشيئا، وانتهى الحال بالألمان بعدم الحديث عنه بعد ذلك.

توقفت أعمال البناء، واتجهت قوة الإبادة لقطيع العبيد إلى مكان آخر، وأصبح كل يوم أكثر شجارا وعداء بصورة سلبية. وفى كل غارة كانت هناك دائما أعطال جديدة لا بد من إصلاحها: تفكيك ووقف الآلات الدقيقة التى تم تشغيلها بصعوبة منذ بضعة أيام، وتشييد مخابئ وحمايات، ومن السخرية أنه اتضح عدم تماسكها وعدم جدواها عند التجربة القادمة.

وقد اعتقدنا أن كل شيء سيكون مفضّلا على رتابة الأيام المتماثلة والطويلة التى لا تنتهى، والكآبة المنتظمة والمرتبة لبونا الذى يجرى العمل فيه؛ ولكننا اضطُررنا إلى تغيير فكرنا عندما بدأ بونا يتساقط محطما حولنا، كما لو أنه أصيب بلعنة شعرنا نحن أنفسنا بأنها شملتنا. وقد اضطُررنا إلى العرق بين الغبار والركام الملتهب، والارتعاش مثل الحيوانات، راقدين على الأرض تحت غضب الطائرات. وقد كنا نعود فى المساء إلى المعسكر، محطمين من التعب وقد جَفَفْنا من الظمأ، فى الأمسيات الطويلة للغاية والمليئة بالرياح فى الصيف البولندى، وكنا نجد المعسكر مقلوبًا، ولا توجد مياه للشرب والاغتسال، ولا يوجد حساء للعروق الخاوية، ولا يوجد ضوء لكى يدافع كل منا عن قطعة الخبز من جوع الآخر، ولكى يعثر من جديد، فى الصباح، على الحذاء والملابس فى الهوّة السحيقة المظلمة والصاخبة فى البلوك.

وكان المدنيون الألمان يتدفقون على بونا، فى حماس الإنسان الواثق الذى يستيقظ من حلم السيطرة، ويرى دماره ولا يستطيع فهمه. والألمان الحقيقيون أيضًا فى معسكر الاعتقال، بما فى ذلك الساسة، شعروا فى ساعة الخطر برابطة الدم والأرض. وقد أعاد الحدث الجديد تشابك الكراهيات وعدم التفاهم إلى

حدوده الأولية، وأعاد تقسيمَ المعسكرين؛ فقد كان الساسة مع المثلثات الخضراء، وقوات الشرطة السرية يرون، أو يعتقدون أنهم يرون، فى كل وجه من وجوهنا احتقار الانتقام والفرحة الحزينة بالانتقام. لقد وجدوا اتفاقا فى هذا، وتضاعفت وحشيتهم.

ولم يكن أى ألمانى يستطيع الآن أن ينسى أننا كنا على الجانب الآخر، جانب الطائرات الرهيبة التى كانت تشق السماء الألمانية وتهيمن عليها فوق كل الحواجز، وكانت تلوى الحديد الحى فى أعمالهم، لتنقل المذبحة كل يوم حتى داخل بيوتهم، داخل بيوت الشعب الألمانى التى لم تُنتهك قط من قبل.

أما فيما يتعلق بنا نحن، فقد كنا مدمَّرين لدرجة أننا لم نكن نخاف حقا، والقليلون الذين كانوا لا يزالون يستطيعون الحكم والإحساس بصورة صحيحة، استمدوا من الغارات قوة جديدة وأملا، وأولئك الذين لم يكن الجوع قد حولهم بعد للخمول النهائى، استفادوا غالبا من لحظات الفزع العامِّ للشروع فى غارات جريئة بصورة مزدوجة (لأنه علاوة على الخطر المباشر للغارات، كانت السرقة التى تتم فى ظروف الطوارئ يعاقَب عليها بالشنق) فى مطبخ المصنع وفى المخازن، ولكن الغالبية العظمى تحملت الخطر الجديد والمعاناة الجديدة بعدم اكتراث لم يتغير، ولم يكن هذا استسلاما واعيا، ولكنه الخمول

المعتم، عند الحيوانات المروَّضة بالضرب، والتى لم يعد الضرب يؤلمها.

وقد كان دخول المخابئ المحصَّنة محظورا علينا، وعندما كانت الأرض تبدأ فى الاهتزاز كنا نجرُّ أنفسنا مذهولين ونحن نعرج، عبر الأدخنة الآكلة للمداخن، حتى المناطق الشاسعة غير المنزرعة، القذرة والقاحلة، المحصورة داخل سياج بونا، هناك كنا نرقد خامدين، مكوَّمين بعضنا فوق البعض الآخر مثل الأموات، ولكننا نشعر بالحلاوة اللحظية للأطراف المستريحة. وقد كنا ننظر بعيون واهنة إلى أعمدة الدخان والنار وهى تتزايد حولنا، ففى لحظات الهدنة، المليئة بالطنين المهدد الذى يعرفه كل أوروبى، كنا نختار من التربة التى وطئتها الأرجل مائة مرة نباتات الشيكوريا والكاموميل الذابلة، وكنا نمضغها طويلا فى صمت.

وعند انتهاء الإنذار، كنا نعود من كل ناحية إلى أماكننا، كقطيع صامت لا حصر له، اعتاد غضب البشر والأشياء، وكنا نستأنف عملنا الدائم، المكروه دائمًا، وقد أصبح الآن غير مفيد ولا معنى له بوضوح.

فى هذا العالم الذى يهتز كل يوم بعنف من رجفات النهاية القريبة بين مخاوف جديدة وآمال وفترات من العبودية المتفاقمة حدث لى أن قابلت لورنتسو.

وقصة علاقتى مع لورنتسو طويلة وقصيرة، ومستوية وغامضة فى آن واحد؛ فهى قصة زمن وحالة مُحيَت الآن من أى واقع حالىٍّ، ولهذا فإننى لا أعتقد أنها يمكن أن تُفهم خلاف ما تفهم اليوم أحداث الأسطورة والتاريخ السحيق.

من الناحية الواقعية، يمكن أن تتلخص فى شىء بسيط: عامل مدنى إيطالى أحضر لى قطعة من الخبز وبقايا تعيينه كل يوم لمدة ستة أشهر، وقد أهدانى فانلة له مليئة بالرقع، وكتب لى فى إيطاليا بطاقة بريدية، وجعلنى أحصل على الرد. ولكل هذا، لم يطلب ولم يقبل أى مقابل، لأنه كان طيبا وبسيطا، ولم يكن يعتقد أن الخير يجب أن يُعمل من أجل مقابل.

كل هذا لا يجب أن يبدو قليلا، فحالتى لم تكن الوحيدة، وكما قلنا من قبل، فإن آخرين من بيننا كانت لهم علاقات متنوعة مع المدنيين، وكانوا يستخلصون منها ما يقيم أودهم، ولكنها كانت علاقات من طبيعة مختلفة. وكان زملاؤنا يتحدثون عنها بنفس النبرة المبهَمة والمليئة بالتلميحات التى يتحدث بها رجال المجتمع عن علاقاتهم النسائية، أى كمغامرات يمكن للإنسان أن يتيه بها فخرا ويرغب أن يحسده الناس عليها، ولكنها تبقى دائما مع ذلك، حتى بالنسبة إلى أكثر الضمائر وثنية، على هامش الشرعية والأمانة؛ ولهذا قد يكون من الخطأ ومن غير

الملائم التحدث عنها بإعجاب زائد. وهكذا يروى المعتقلون عن "حُماتهم" و"أصدقائهم" المدنيين بتحفظ مفتعَل، دون ذكر أسماء لعدم تعريضهم للخطر، وأيضًا وفوق كل شيء لكى لا يخلقوا لأنفسهم منافسين غير مرغوب فيهم. والأكثر حنكة، الغاوون المحترفون مثل هنرى، لا يتحدثون عن ذلك على الإطلاق؛ فهم يحيطون نجاحاتهم بهالة من الإبهام الغامض، ويقتصرون على الإيماءات والتلميحات، المحسوبة بحيث تثير فى السامعين الأسطورة المختلطة والمثيرة للقلق بأنهم يتمتعون بالأساليب الراقية لمدنيين أقوياء وكرماء بلا حدود. وهذا ترقبا لهدف محدد، فشهرة الثراء، كما قلنا فى مواضع أخرى، تبدو ذات فائدة أساسية لمن يعرف كيف يحيط نفسه بها.

وشهرة الشخص كغاوٍ، كـ "منظم"، تثير الحقد والاحتقار والإعجاب فى آن واحد، ومن يترك نفسه ليراه الآخرون وهو يأكل شيئا "منظما" يُحكم عليه بقسوة شديدة؛ فهذا نقص خطير فى الحياء والذوق، علاوة على أنه صفاقة واضحة. وهل سيكون من الوقاحة وعدم اللياقة أيضًا أن نسأل "من أعطاك هذا؟ وأين عثرت عليه؟ وكيف فعلت هذا؟" الأرقام الكبيرة فقط، البلهاء الذين لا جدوى من ورائهم ولا حول لهم ولا قوة، والذين لا يعلمون شيئا عن قواعد معسكر الاعتقال، هم الذين يوجهون هذه

الأسئلة، وهذه الأسئلة لا يرد عليها أحد، أو يرد البعض بعبارات "Verschwinde, Mensch!", "Hau' ab", "Uciekai", "Schiess' in den Wind", "V achier"; أى بواحدة من العبارات الكثيرة جدًّا المقابلة لعبارة "انصرف من هنا" التى تكثر فى اللغة الخاصة لمعسكر الاعتقال.

وهناك أيضًا من يتخصص فى حملات تجسس معقدة وصبورة، لتحديد المدنى أو المدنيين الذين يتبعهم ذلك الشخص، ويحاول بعد ذلك بشتى الطرق أن يحل محله. وتنشأ عن ذلك خلافات لا تنتهى على الأسبقية أصبحت أكثر مرارة بالنسبة إلى الخاسر لأن أى مدنى "مشذب" يُعَدُّ دائما أكثر ربحية وأضمن بصفة خاصة، من مدنى يتصل بنا للمرة الأولى. إنه مدنى يساوى أكثر بكثير، لأسباب عاطفية وفنية؛ فهو يعرف بالفعل أسس التنظيم ، قواعده وأخطاره، وأثبت علاوة على ذلك أنه يستطيع أن يتجاوز حاجز الجماعة.

وبالفعل فإننا لا نُمَسُّ بالنسبة إلى المدنيين؛ فالمدنيون، وبصورة صريحة تقريبا، ومع كل الدرجات الطفيفة التى تقع بين الاحتقار والشفقة، يعتقدون أننا لكى يُحكم علينا بحياتنا هذه ولكى نتحول إلى هذه الحالة، فلا بد أننا تلطخنا بعض الذنوب الغامضة والخطيرة للغاية. ويكرهون حديثنا بلغات عديدة مختلفة، لا

يفهمونها، وتبدو لهم مضحكة مثل أصوات الحيوانات، ويروننا خاضعين بصورة وضيعة، بلا شعر، وبلا شرف وبلا اسم، وأكثر انحطاطا كل يوم، ولا يقرءون أبدًا فى عيوننا ضوءا للتمرد، أو للسلام، أو للإيمان. ويعرفوننا لصوصا وغير جديرين بالثقة، مهلهلين ملطَّخين بالطين وجوعى ويخلطون النتيجة بالسبب، ويحكمون علينا بأننا جديرون بانحطاطنا. من يستطيع التمييز بين وجوهنا؟ فنحن "Kazett" بالنسبة إليهم، وهى كلمة محايدة مفردة.

وهذا بالطبع لا يمنع الكثيرين منهم فى بعض الأحيان من أن يُلقُوا إلينا بقطعة من الخبز، أو من البطاطس، أو أن يعهدوا إلينا، بعد توزيع الحساء المدنى فى موقع العمل، بقصعاتهم لننحتها ونعيدها مغسولة. وهم يلجئون إلى ذلك ليتخلصوا من بعض النظرات الجائعة المزعجة، أو بدافع إنسانى لحظى، أو لمجرد الفضول فى أن يرونا نُهرع من كل جانب لنتنازع اللقمَة فيما بيننا، بصورة حيوانية وبلا تحفظ، حتى يبلعها الأقوى، وعندئذ يرحل كل الآخرين محبَطين يعرجون.

الآن لم يحدث شيء من كل هذا بينى وبين لورنتسو، وعلى الرغم من مغزى الغربة فى تحديد الأسباب التى جعلت حياتى تصمد للتجربة بين آلاف الحيوات الأخرى المماثلة، فإننى

أعتقد أننى مدين للورنتسو بالذات بأننى حىّ اليوم، وليس فقط لمساعدته المادية بقدر تذكيره لى باستمرار بوجوده، وبطريقته السلسة والسهلة جدًّا فى أن يكون طيبا، وأنه لا يزال يوجد عالَم عادل خارج عالمنا، وشىء ما وشخص ما لا يزال نقيًا وكاملاً، وغير فاسد وغير وحشى، وبعيد عن الكراهية والخوف، شىء يساء وصفه جدًّا، وقدرة كبيرة على الخير، ولهذا كان يحرص على أن يحافظ على نفسه على الرغم من ذلك.

وشخصيات هذه الصفحات ليسوا من البشر، فإنسانيتهم مدفونة، أو دفنوها هم بأنفسهم، تحت الإهانة التى تعرَّضوا لها أو أوقعوها بالآخرين، ومن المفارقات أن قوات الشرطة السرية الشريرة والغبية، والرؤساء والساسة والمجرمين والبارزين الكبار والصغار، حتى المعتقلين المتماثلين والعبيد، وكل درجات الترتيب غير السوى الذى أراده الألمان، يجمع بينهم أسى داخلىٌّ واحد.

ولكن لورنتسو كان إنسانا وكانت إنسانيته نقية وغير ملوثة، فقد كان خارج هذا العالم الملىء بالنكران. وبفضل لورنتسو حدث لى أننى لم أنسَ أننى أنا نفسى إنسان.

أكتوبر ١٩٤٤

كافحنا بكل قوانا حتى لا يـأتى الـشتاء، وتـشبثنا بكـل الساعات الدافئة، وعند كل غروب حاولنا إبقاء الشمس قليلاً فى السماء، ولكن كل هذا كان بلا جدوى. وقد غابت الشمس مـساء أمس إلى غير رجعة فى تشابك من الضباب القذر، والمـداخن والأسلاك، وفى هذا الصباح جاء الشتاء.

ونحن نعلم ماذا يعنى هذا، لأننا كنا هنـا فـى الـشتاء الماضى، وسوف يتعلم الآخرون هذا سريعًا، وهـذا يعنـى أن سبعة من كل عشرة منا سوف يموتون، خلال هذه الشهور، من أكتوبر إلى أبريل. ومن لن يموت سوف يتـألم دقيقـة بدقيقـة، ويوما بيوم، طوال الأيام، من الصباح قبل الفجر وحتى توزيـع الحساء المسائى سيتعين عليـه الاحتفـاظ بعـضلاته مـشدودة والرقص من قدم إلى أخرى، ووضع ذراعيـه تحـت إبطيـه لمقاومة البرد. ولا بد أن ينفق الخبز للحصول على القفـازات، وأن يفقد ساعات من النوم لإصلاحها عندما تنفك حياكتها. وبما أننا لن نستطيع بعد ذلك الأكل فى الهواء الطلق، فإننا سنـضطرُّ إلى استهلاك وجباتنا فى الثكنة، واقفين، مع إتاحـة شـبر مـن الأرض لكل منا. والاستناد للأسرّة ممنوع، وستُفتح جراح فـى

أيدى الجميع، وللحصول على ضمادة سيتعين الانتظار كل مساء لساعات طويلة وقوفا على الأقدام وسط الجليد والرياح.

وكما أن جوعنا ليس كشعور من فاتته وجبة، فإن طريقتنا فى الشعور بالبرد قد تتطلب اسما خاصا؛ فنحن نقول "الجوع" ونقول "التعب" و"الخوف" و"الألم"، ونقول "الشتاء"، وهى أشياء أخرى. إنها كلمات حرة، خلقها واستخدمها رجال أحرار كانوا يعيشون فى بيوتهم، متمتعين ومتألمين، ولو استمرت معسكرات الاعتقال طويلا، لولدت لغة لاذعة جديدة، ونحن نشعر بالحاجة إلى ذلك لكى نشرح معنى التعب طوال اليوم فى الرياح وتحت الصفر، ونحن نرتدى قميصا واحدا فقط، وملابس داخلية، وسترة وملابس داخلية من التيل، وفى الجسم ضعف وجوع ووعى بالنهاية القادمة.

وبتلك الطريقة التى نرى بها انتهاء أمل، هكذا كان الشتاء هذا الصباح. وقد تنبهنا لذلك عندما خرجنا من الثكنة للذهاب للاغتسال؛ لم تكن هناك نجوم، وكان الجو المظلم والبارد برائحة الجليد. وفى ميدان النداء، مع أول ضوء، عند التجمع للذهاب إلى العمل، لم يتحدث أحد. وعندما رأينا الكِسَف الثلجية الأولى، فكرنا فى أنهم لو قالوا لنا فى العام الماضى فى هذه الفترة إننا سنرى بعد ذلك شتاء فى معسكر الاعتقال، لذهبنا

للمس السياج الكهربى، ولذهبنا أيضًا الآن، لو كنا منطقيين، لولا هذه البقية المجنونة وغير المعقولة من الأمل الذى لا يمكن البوح به، لأن كلمة "شتاء" تعنى شيئا آخر أيضا...

فى الربيع الماضى قام الألمان ببناء خيمتين هائلتين على مساحة فى معسكر اعتقالنا، وقد استضافت كل منهما طوال الموسم الجديد كله أكثر من ألف رجل، وقد أزيلت الخيام الآن وهناك عدد زائد يبلغ ألفى رجل يزحمون تكناتنا. ونحن - المعتقلين القدامى - نعرف أن هذه المخالفات لا تعجب الألمان، وأن شيئا سرعان ما سيحدث حتى يتم تخفيض عددنا.

ونشعر باقتراب عمليات الانتقاء. "Selekcja": هذه الكلمة المهجنة من اللاتينية والبولندية تُسمع مرة، مرتين، مرات عديدة، تتخلل أحاديث أجنبية، فى البداية لا نحددها، وبعد ذلك تُفرض على الانتباه، وفى النهاية تطاردنا.

وفى هذا الصباح يقول البولنديون "Selccja". والبولنديون هم أول من يعرف الأخبار، ويحاولون عادة عدم تركها تنتشر، لأن معرفة شىء بينما لا يزال الآخرون لا يعلمونه يمكن أن يكون ميزة دائما. وعندما سيعلم الجميع أن عملية الانتقاء وشيكة، فإن الشىء القليل للغاية الذى يمكن أن يحاوله البعض للهروب (رشوة بعض الأطباء أو بعض البارزين بالخبز أو

بالتبغ، الانتقال من النكنة إلى العيادة وبـالعكس، فـى اللحظـة المناسبة بحيث يتزامن هذا مع اللجنة) سيكون قاصـرا علـيهم وحدهم.

وفى الأيام التالية كان جو معسكر الاعتقال مليئـا بالـ "Selecja"؛ فلا أحد يعلم شيئا على وجه الدقة والجميع يتحدثون عنها، حتى العمال الأحرار، البولنديين والإيطاليين والفرنـسيين الذين نراهم خفية فى العمل. ولا يمكن القول إنه نتجت عن ذلك موجة من الإحباط؛ فروحنا المعنوية الجماعية مفككة ومـسطحة جدًا حتى تكون مضطربة، فالكفاح ضد الجوع والبرد والعمـل يترك هامشا قليلا للتفكير، حتى وإن كان الأمـر يتعلـق بهـذا التفكير. وكل شخص يرد على طريقته، ولكن لا أحد تقريبًا يرد بتلك المواقف التى قد تبدو أكثر معقوليـة لأنهـا واقعيـة، أى بالاستسلام أو باليأس.

من يستطِع القيام باللازم يقُم بـه، ولكـنهم الأقـل، لأن الإفلات من الانتقاء صعب جدًا والألمان يقومون بهذه الأشـياء بجدية كبيرة ونشاط.

ومن لا يستطِع القيام باللازم ماديًا فإنه يبحث عن الـدفاع بصور أخرى. وفى المراحيض وفى المغسلة يُظهِر كـل منـا للآخر جذعه ومؤخرته، ويطمئنه الزملاء قائلين له:

– يمكنك أن تطمئن، فلن يكون هذا دورك بالطبع؛ أنت لست مسلمًا إطلاقا... ولكننى بالأحرى... وهم بدورهم، ينزلون بناطيلهم ويرفعون القميص.

ولا أحد ينكر على الآخرين هذا الإحسان، فلا أحد واثق تمامًا من قدره حتى تواتيه الشجاعة على إدانة الآخرين. وقد كذبت أنا أيضًا بصفاقة على الحارس العجوز، وقد قلت له إنهم إن سألوه، فعليه أن يرد بأن عمره خمسة وثلاثون عاما، وألا يهمل حلاقة ذقنه فى الليلة السابقة، حتى وإن كلفه ذلك ربع رغيف من الخبز؛ وأنه، علاوة على ذلك، لا يجب أن تساوره مخاوف، وأنه من ناحية أخرى ليس واثقا إطلاقا بأن الأمر يتعلق بعملية انتقاء للغاز: ألم يسمع من قائد البلوك أن المختارين سيذهبون إلى Jaworszno فى معسكر النقاهة؟

من السخف أن يراود Wertheimer الأمل؛ فهو يبدو فى الستين من العمر، ويعانى من دوالٍ ضخمة، ولم يعد يشعر حتى بالجوع تقريبا. ومع ذلك فإنه يذهب إلى سريره هادئ البال فى سكون، ومن يسأله يرد عليه بكلماتى؛ إنها كلمة السر فى المعسكر فى هذه الأيام، وقد كررتها أنا نفسى، بلا تفصيلات، كما استمعت إليها من حاييم، الموجود فى المعسكر منذ ثلاث سنوات، وبما أنه قوى ومتين، فإنه واثق من نفسه بصورة تدعو للإعجاب، وقد صدقته.

على هذا الأساس الهزيل عَبَرت أنا أيضًا عملية الانتقاء الكبيرة فى أكتوبر ١٩٤٤ بهدوء لا يخطر على البال؛ فقد كنت هادئا لأننى نجحت فى أن أكذب على نفسى بما فيه الكفاية، وتوقف عدم اختيارى بصفة خاصة على المصادفة ولا يثبت أن ثقتى كانت راسخة.

ومسيو بينكير أيضًا محكوم عليه مسبقا؛ يكفى أن ترى عينيه. نادانى بإيماءة، وبمظهر ودّىٍّ يروى لى أنه عرف، ولا يمكن أن يقول لى من أىّ مصدر، أن هناك بالفعل جديدًا هذه المرة: الفاتيكان، عن طريق الصليب الأحمر الدولى... وأخيرًا يؤكد لى شخصيًا أنه يستبعد أى خطر بصورة مطلقة، سواء بالنسبة إلى نفسه أو بالنسبة إلىَّ: فهو كمدنى ن كان ملحقا بالسفارة البلجيكية فى وارسو.

وبالتالى فإن أيام العشية هذه أيضًا، التى لا بد أن تبدو معذبة فوق أى حدود بشرية عندما نرويها، تمر بصور عديدة، لا تختلف كثيرًا عن الأيام الأخرى.

ولم يخفّ النظام فى معسكر الاعتقال وفى بونا بأى حال من الأحوال، فالعمل والبرد والجوع تكفى لشغل اهتمامنا بالكامل.

اليومِ يوم أحد عمل؛ فنحن نعمل حتى الواحدة ظهرًا، ثم نعود إلى المعسكر للدش والحلاقة والمراجعة العامة للجرب

والقمل، وفى موقع العمل علمنا جميعا بصورة غامضة أن عملية الانتقاء ستكون اليوم.

وقد وصل الخبر، كما يحدث دائما، محاطا بهالة من التفصيلات المتضاربة والشكوك؛ ففى هذا الصباح نفسه كانت هناك عملية انتقاء فى العيادة، وقد كانت النسبة المئوية سبعة فى المائة من المجموع الإجمالى، وثلاثين أو خمسين فى المائة من المرضى. وفى بيركنا يتصاعد الدخان من المحرقة منذ عشرة أيام، ولا بد أنه تم إعداد مكان لشحنة هائلة ستصل من الحى اليهودى فى بوسين. والشباب يقولون للشباب إنهم سيختارون كل المسنين، والأصحاء يقولون للأصحاء إنهم سيختارون فقط المرضى. وسوف يُستبعد المتخصصون، وسوف يُستبعد الألمان، وسوف تستبعد الأرقام الصغيرة، وسوف يختارونك أنت، ويستبعدوننى أنا.

وبانتظام، بداية من الساعة الثالثة عشرة بالضبط، يخلو موقع العمل ويصطف الفريق الرمادى الذى لا ينتهى لمدة ساعتين أمام محطتين للمراقبة، حيث كان يجرى إحصاؤهم وإعادة إحصائهم مثل كل يوم، وأمام الأوركسترا التى تعزف دون انقطاع لمدة ساعتين، مثل كل يوم، المارشات التى يجب أن نضبط عليها خطواتنا، عند الدخول والخروج.

ويبدو أن كل شيء يسير مثل كل يوم؛ مسيرة المطابخ تدخن كما هى العادة ويبدأ بالفعل توزيع الحساء. ولكننا استمعنا بعد ذلك للجرس، وعندئذ فهمنا أننا فى موعدنا؛ لأن هذا الجرس يدق دائما عند الفجر، وعندئذ يكون هذا هو الاستيقاظ، وعندما يدق فى منتصف النهار فإن هذا يعنى إغلاق الثكنة، وهذا يحدث عندما تكون هناك عملية انتقاء، حتى لا يفلت منها أحد، وعندما يرحل الذين يقع الاختيار عليهم إلى الغاز، حتى لا يراهم أحد وهم يرحلون.

وقائد البلوك عندنا يعرف مهنته جيدا؛ فقد تأكد أن الجميع قد عادوا، وقد أمر بإغلاق الباب بالمفتاح، ووزع على كل شخص البطاقة التى تحمل رقم القيد، والاسم والمهنة والسن والجنسية، وأمر بأن يقوم كل فرد بخلع ملابسه بالكامل، مع الاحتفاظ فقط بالحذاء. وبهذه الطريقة، عرايا والبطاقة فى يدنا، ننتظر وصول اللجنة إلى ثكنتنا. نحن الثكنة ٤٨، ولكننا لا يمكن أن نتنبأ إن كانوا سيبدءون بالثكنة ١٠ أو ٦٠. وعلى أى حال نستطيع أن نبقى مطمئنين لمدة ساعة على الأقل، ولا مانع من أن نبقى تحت أغطية الأسرّة لتدفئة أنفسنا.

كان هناك كثيرون يغالبهم النعاس عندما انطلقت سلسلة من الأوامر والضربات والشتائم لتشير إلى أن اللجنة أوشكت

على الوصول، وكان قائد البلوك ومساعدوه يــدفعون أمــامهم مجموعة العراة المفزوعين باللكمات والـصيحات ويكدسـونهم داخل غرفة النهار، وهى الإدارة. وغرفة النهـار هـى غرفـة صغيرة مساحتها سبعة أمتار فى أربعة. عندما انتهت المطاردة، انضغطت مجموعة بشرية ساخنة ومتماسكة، تجتاح وتملأ تمامًا كل الأركان وتمارس على الجدران الخشبية ضغطا شديدا جعلها تَصِرّ.

نحن الآن فى غرفة النهار، وعلاوة على أنـه لا يوجـد هناك وقت، فإنه لا يوجد حتى مكان للخوف. والإحساس باللحم الساخن الذى يضغط حولنا من كل اتجاه إحساس فريد لا بـأس به، ويجب أن نُعنى بالاحتفاظ بالأنف عاليا لكى نجـد الهـواء، وعدم تجعيد أو فقدان البطاقة التى نمسك بها فى أيدينا.

وقد أغلق قائد البلوك الباب الذى يفصل بين غرفة النهار وعنبر النوم وفتح البابين الآخرين اللذين يطلان على الخارج من غرفة النهار وعنبر النوم، وهنا أمام البابين يقف المـتحكم فـى مصيرنا، وهو صف ضابط من قوات الشرطة السرية. ويقـف عن يمينه قائد البلوك، وعن يساره مدير الثكنة. وكل واحد منـا يخرج عاريا من غرفة النهار فى الهواء البارد فى شهر أكتوبر، يجب أن يقطع بسرعة الخطوات القليلة بين البابين أمام الثلاثة،

ويسلِّم البطاقة للشرطة السرية ويعود من باب عنبر النوم. وتقوم الشرطة السرية، فى جزء من الثانية بين المرحلتين التـــاليتين، بنظرة إلى الوجه والظهر، بالحكم على مصير كل واحد، وتسلِّم بدورها البطاقة للرجل الذى عن يمينها أو الذى عن يسارها، وهذا هو الموت أو الحياة لكل منا. وفى ثلاث أو أربـــع دقـــائق تكون تكنة من مائتى رجل قد "تمَّت"، وفى العصر كل المعسكر الذى يضم اثنى عشر ألف رجل.

وقد شعرت وأنا مغروز وسط الزحام الشديد فـــى غرفـــة النهار بتناقص الضغط البشرى حولى بالتدريج، وخـــلال فتـــرة وجيزة جاء دورى، وقد مررت مثل الجميع بخطوة قوية ومرنة، محاولا إبقاء رأسى مرفوعا وصـــدرى بـــارزا إلـــى الخـــارج والعضلات مشدودة وبارزة، وقد حاولت بطرف عينى أن أرى ما وراء ظهرى، وبدا لى أن بطاقتى ذهبت إلى اليمين.

ومع دخولنا عنبر النوم شيئا فشيئا، اســـتطعنا أن نرتـــدى ملابسنا من جديد. ولم يكن أحد يعرف بعد بالتأكيـــد مـــصيره، وكان لا بد أن نحدد أولا ما إذا كانت البطاقات المدانة هى التى ذهبت إلى اليمين أم إلى اليسار. والآن لم يعد مناسبا أن يحـــاول كل منا النجاة بنفسه وأن تراوده شـــكوك تـــشاؤمية؛ فـــالجميع يتزاحمون حول الأكبر سنا والأضعف جسما، والأكثر شبها بالـــ

"مسلمين"؛ فإذا كانت بطاقاتهم قد ذهبت إلى اليسار، فإن اليسار بالتأكيد هو جانب المدانين.

وقبل أن تنتهى بالفعل عملية الانتقاء، يعلم الجميع أن اليسار كان بالفعل الجانب المشئوم. وهناك بالفعل بعض المخالفات: رينيه على سبيل المثال الشاب القوى جدًا ذهب إلى اليسار؛ ربما لأنه يلبس نظارة، وربما لأنه يسير منحنيا قليلاً مثل قصار النظر، ولكن ربما يكون هذا لخطأ بسيط؛ فقد مر رينيه أمام اللجنة قبلى مباشرة، ويمكن أن يكون قد حدث تبادل للبطاقات. وأفكر مرة أخرى وأتحدث فى ذلك مع ألبرتو، ونتفق على أن الافتراض محتمل. ولا أعرف رأيى فى ذلك غدا أو بعد غد؛ فهى اليوم لا تثير فىَّ أىَّ انفعال محدد.

ولا بد أن خطأ كان هناك أيضًا بالنسبة إلى "ساتلر"، وهو فلاح قوى كان لا يزال فى بيته منذ عشرين يوما فقط. وساتلر لا يفقه الألمانية، ولا يفهم شيئا مما حدث، ويقبع فى أحد الأركان ليقوم بترقيع قميصه. هل يجب علىّ أن اذهب لأقول له إن القميص لن يلزمه بعد ذلك؟

وليس هناك ما يدعو للدهشة من هذه الأخطاء؛ فالامتحان سريع وإجمالى جدًا، ومن ناحية أخرى فإن المهم بالنسبة إلى إدارة معسكر الاعتقال ليس القضاء بالذات على الذين لا فائدة

منهم بقدر ما هو توفير أماكن بسرعة بنسبة مئوية محدَّدة مسبقا.

وقد انتهت عملية الانتقاء فى ثكنتنا تقريبا، ولكنها مستمرة فى الثكنات الأخرى، ولذا فإننا لا نزال تحت الإغلاق. ولكن بما أن صفائح الحساء قد وصلت، فإن قائد البلوك يقرر القيام بالتوزيع دون تردد، وسوف يوزع على الذين تم انتقاؤهم تعيينا مزدوجا. ولم أعرف قط ما إذا كانت هذه مبادرة رحيمة بصورة سخيفة لقادة البلوكات أم تعليمات صريحة للشرطة السرية، ولكن ضحايا مونوفيتز - أوشفيتز كانوا يتمتعون بالفعل بهذه الميزة، فى فترة اليومين أو الثلاثة (وأحيانا لفترة أطول من ذلك بكثير) بين الانتقاء والرحيل.

ويقدم زيجلر القصعة، ويحصل على التعيين الطبيعى، ثم يبقى هناك فى الانتظار. ويسأله قائد البلوك قائلاً: «ماذا تريد بعد ذلك؟»، فلم يصل إلى علمه أن زيجلر يحق له أن يحصل على الإضافة، ويطرده بعيدا بدفعة منه؛ فقد وُضع بالفعل على اليسار، وقد رأى الجميع ذلك، وليذهب قائد البلوك لمراجعة البطاقات. إن له الحق فى ضعف التعيين. وعندما حصل عليه ذهب فى هدوء إلى سريره ليأكل.

والآن يقوم كل منا بكحت قاع القصعة بعناية للحصول على اللقيمات الصغيرة الأخيرة من الحساء، وينشأ عن ذلك

صخب معدنى مدوٍّ، وهو ما يعنى أن اليوم قد انتهى، وبالتدريج يسود الصمت، وعندئذٍ نرى ونسمع من سريرى فى الطابق الثالث أن "كون" العجوز يصلى بصوت مرتفع وهو يضع البيريه على رأسه وهو يتأرجح بجذعه بعنف؛ "كون" يشكر الله لأنه لم يقع عليه الاختيار.

و"كون" شخصٌ أبله؛ ألا يرى فى السرير المجاور بيبو اليونانى البالغ من العمر عشرين عامًا، وسوف يذهب بعد غد إلى الغاز، وهو يعلم ذلك، ويبقى هناك ممدَّدًا وهو يحدق إلى المصباح الصغير دون أن يقول شيئا ودون أن يفكر فى شىء، ألا يعلم "كون" أنه فى المرة القادمة سيجىء الدور عليه؟ ألا يفهم "كون" أنه قد حدث اليوم شىء فظيع، لا يمكن لأى صلاة للدعاء ولا أى صفح ولا أى تكفير للمذنبين، ولا أى شىء فى استطاعة الإنسان أن يفعله ويعالجه بعد ذلك أبدا؟

لو كنت أنا الله، لرددت صلاة "كون" إلى الأرض.

كراوس

عندما تهطل الأمطار يود الإنسان أن يبكى. إنه نوفمبر والسماء تمطر منذ عشرة أيام، وقد أصبحت الأرض مثل قاع مستنقع، وكل شيء من الخشب أصبح برائحة الفطر.

إن استطعت القيام بعشر خطوات إلى اليسار، فإن هناك السقيفة، وقد أكون فى مأمن، وقد يكفينى أيضًا كيس لكى أغطى كتفَىَّ، أو مجرد الأمل فى نار أجفف بها نفسى، أو ربما خرقة بالية أضعها بين القميص وظهرى. وأفكر فى هذا بين كل ضربة بالجاروف والأخرى، وأعتقد بالفعل أن الحصول على خرقة بالية جافة قد يكون سعادة إيجابية.

والآن لم يكن من الممكن أن نكون أكثر بللا من ذلك، لا بد فقط أن نحاول التحرك بأقل قدر ممكن، وبالأخص عدم القيام بحركات جديدة، حتى لا يحدث أن يتلامس جزء آخر من الجلد بالملابس المبللة والباردة، دون حاجة إلى ذلك.

ومن حسن الحظ أنه لا توجد رياح اليوم، وهذا أمر غريب، وبصورة ما نخرج بانطباع بأننا محظوظون، وأن بعض الظروف، التى ربما لا تذكر، تبقينا على حافة اليأس وتمنحنا الحياة. السماء تمطر، ولكن الرياح لا تهبّ، أو تمطر وتهب

الرياح ولكنك تعلم أن الدور عليك هذا المساء فى الحصول على الحساء الإضافى، وبالتالى فإنك تجد اليوم أيضًا القوة على الاستمرار حتى المساء. أو أيضًا مطر ورياح والجوع المعتاد، وعندئذ تفكر فى أنك إن اضطُررت فعلاً، وإن لم تشعر بعد فى قلبك سوى بالمعاناة والملل، كما يحدث أحيانًا، ويبدو فعلاً أنك تنام على القاع، حسنًا، عندئذ أيضًا نحن نفكر فى أننا إذا أردنا، فى أى لحظة، فإننا نستطيع دائما الذهاب للمس السياج الكهربى أو إلقاء أنفسنا تحت القطارات فى أثناء المناورة، وعندئذ قد ينتهى المطر.

منذ هذا الصباح ونحن مغروسون فى الوحل، بخطوات واسعة، دون أن نحرك أقدامنا قط من الحفرتين اللتين حُفرتا فى الأرض اللزجة، ونحن نتأرجح على الأجناب عند كل ضربة من الجاروف. أنا عند منتصف الحفر، وكراوس وكلاوسنر عند القاع، وجونان فوقى، عند مستوى الأرض. وجونان فقط هو الذى يستطيع أن ينظر حوله، وبكلمات مقتضَبة ينبِّه كراوس بين الحين والآخر لضرورة الإسراع بالإيقاع، أو ربما الراحة تبعا لمن يمر فى الطريق. وكلاوسنر يضرب بالفأس، ويقوم كراوس برفع التراب إلىَّ مجرفة مجرفة، وأقوم أنا برفعه شيئا فشيئا إلى جونان الذى يكوِّمه جانبًا. وهناك آخرون يتحركون جيئة وذهابا

بعجلات اليد ويحملون التراب لا أدرى إلى أين، فهذا لا يهمنا، فعالمنا اليوم هو هذه الحفرة الطينية.

وقد أخطأ كراوس الضربة، وتطير حفنة من الطين لتستقر على ركبتىَّ. وليست هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك، ودون ثقة كبيرة أحذره لكى يكون منتبها؛ فهو مجرىٌّ ويفهم الألمانية بصورة سيئة جدًّا، ولا يعرف كلمة واحدة بالفرنسية. وهو طويل جدًّا ويلبس نظارة وله وجه صغير غريب ومعوجٌّ، وعندما يضحك يبدو طفلا، ويضحك كثيرا. وهو يعمل كثيرًا وبحيوية زائدة، ولم يتعلم بعد فننا الخفى فى الاقتصاد فى كل شىء، فى النفس وفى الحركات وحتى فى التفكير، ولا يزال لا يعرف أن من الأفضل أن يُضرب الإنسان لأن الإنسان لا يموت عادة من الضربات، ولكنه يموت من التعب وبصورة سيئة، وعندما يتنبه لذلك يكون قد فات الأوان. ويفكر أيضا... أوه، لا، مسكين كراوس، هذا ليس تفكيره هو، إنها مجرد أمانته البلهاء كموظف صغير، وقد حملها معه حتى هنا، والآن يبدو له أن الأمر كما فى الخارج، حيث العمل شىء أمين ومنطقى، ومناسب علاوة على ذلك، لأن الإنسان كلما عمل، حسبما يقول الجميع، ربح وأكل أكثر. ويلعن جونان من أعلى قائلاً:

- «انظروا إلىَّ!» ... مهلا أيها الغبى! ثم يتذكر الترجمة بالألمانية:

،«langsam, du blöder Einer, langsan, verstanden?»
فكراوس يمكن أن يقتل نفسه أيضًا من التعب، إذا اعتقد ذلــك، ولكن ليس اليوم، ونحن نعمل فى ترابط وإيقاع عملنـــا مــرتبط بإيقاعه. وها هى ســارينة الكربيــد، الآن يرحــل المعتقلــون الإنجليز، والساعة الآن الرابعة والنصف. ثــم ســتمر الفتيــات الأوكرانيات، وعندئذ ستكون الخامسة، وعندئذ سنستطيع فــرد ظهورنا، والآن ستفصلنا عن الراحة فقط مسيرة العودة والنـــداء والتفتيش عن القمل.

وهذا هو التجمع، من جميع الأنحاء؛ فمن جميع الأنحـــاء تزحف إلى الخارج الدمى الطينية، وتفرد أطرافهـــا المخـــدَّرة، وتعيد الأدوات إلى الثكنات. وننزع أقدامنا من الحفرة بحذر حتى لا نترك قباقيبنا تمتص فيها، ثم نرحل، ونحن نترنح ونقطر ماء، لكى ننخرط فى مسيرة العودة، ثلاثة ثلاثة. وقد حاولت أن أضع نفسى بالقرب من ألبرتو، وقد عملنا اليوم منفصلين، ويجـــب أن يسأل كل منا الآخر كيف سارت الأمور، ولكن شخصا ضربنى بيده على معدتى، وتراجعت إلى الوراء، ونظرت، بالقرب مـــن كراوس بالضبط.

نرحل الآن، ويقوم القائد بضبط الخطوة بـــصوت قـــوى قائلاً:

- «شمال، شمال، شمال»؛ فى البداية تضطرب الأقدام، ثم نسخن شيئا فشيئا ويزول توتر الأعصاب. واليوم أيضًا، أيضًا هذا اليوم وهذا الصباح يبدو أنه لا يُقهر ولا ينتهى، فقد ثقبناه من خلال كل دقائقه، والآن يرقد منتهيا وقد نسيناه على الفور، ولم يعد يوما، ولم يترك أثرا فى ذاكرة أى أحد. ونحن نعرف هذا، أن غدا سيكون مثل اليوم. ربما ستمطر أكثر قليلا أو أقل قليلا، أو ربما بدلا من حفر الأرض سنذهب إلى الكربيد لإنزال الطوب، أو غدا يمكن أن تنتهى أيضًا الحرب، أو أن نقتل نحن جميعا، أو ننُقل إلى معسكر آخر، أو أن تحدث بعض تلك التجديدات الكبيرة التى يتنبئون بها بلا كلل بأنها وشيكة ومؤكدة، منذ إنشاء المعسكر. ولكن من يمكنه أن يفكر بجدية فى الغد؟

إن الذاكرة أداة غريبة طوال فترة إقامتى فى المعسكر؛ تراقص فى رأسى بيتان من الشعر كتبهما أحد أصدقائى منذ وقت بعيد جدا:

ما دام أن هناك نهارًا

فلن يكون هناك معنى لكلمة «غدًا»

هكذا هنا. هل تعرفون كيف يقال "أبدا" فى لهجة المعسكر؟ "Morgen Früh" غدًا صباحًا.

الآن حانت ساعة الـــ "شمال، شمال، شـــمال، وشـــمال"، الساعة التى لا يجب أن تخطئ فيها الخطو. راوس أخرق، وقد تلقَّى ركلة من القائد، لأنه لا يستطيع أن يسير معتدلا، وهـــاهو يبدأ فى الإيماء والغمغمة بألمانية بائـــسة، odi odi، ويريـــد أن يعتذر لى عن ضربة الطين، ولم يفهم بعد أين نحن، ولا بـــد أن نقول فعلا إن المجريين شعب فريد من نوعه.

ومجاراة الخطو والقيام بحديث معقد باللغة الألمانية أمـــر زائد، وفى هذه المرة أقوم أنا بتنبيهه بأن الخطوة خاطئة، وقـــد نظرت إليه، ورأيت عينيه، وراء قطـــرات المطـــر الـــصغيرة المتساقطة من النظارة، وكانت هناك عينا كراوس الإنسان.

وعندئذ حدث أمر مهم، ويحرص على روايته الآن، ربما للسبب نفسه الذى دفعه للحرص على أن يحدث آنذاك؛ فقد حدث لى أن قمت بحديث طويل مع كراوس: لغة ألمانية رديئة، ولكنها بطيئة ومفصلة، مع تأكدى، بعد كل جملة، أنه قد فهمها.

لقد رويت له أننى رأيت فى المنام أننى فى بيتـــى، فـــى البيت الذى وُلدت فيه، وأنا جالس مع أسرتى، وســـاقاى تحـــت المنضدة، وفوقها كانت هناك أطعمة كثيرة، كثيرة جدًّا. وقد كنا فى الصيف، وكان هذا فى إيطاليا، فى نـــابولى؟ بالفعـــل، فـــى نابولى! ولا ينبغى المبالغة فى التفصيلات. وهاهو الجرس يدق

فجأة، وأستيقظ مليئا بالقلق وأذهب لأفتح، ومــن تُــرى؟ هــو، كراوس بالى الموجود هنا، بشعره، وهو نظيف وبدين، ويرتدى ملابس رجل حر، وفى يده قطعة كبيــرة مــن الخبــز. زنــة كيلوجرامين، وهى لا تزال ساخنة. وعندئذ قلت: "سلام يا بالى، كيف حالك؟"، وكنت أشعر أن الفرحة تغمرنـــى، وقــد أدخلتــه وشرحت لأفراد أسرتى من هو، وأنه قادم من بودابست، ولماذا كان مبتلا على ذلك النحو، لأنه كان مبتلا، هكذا، كما هو الآن. وقد قدمت له الطعام والشراب، ثم سريرا مريحا للنــوم عليــه، وكان الوقت ليلا، ولكن كان هناك دفء رائع، ولهذا فقد أصبحنا جميعا جافين فى لحظة واحدة (نعم، لأننى أيضًا كنــت مبــتلا جدا).

لأنه لا بد أن كراوس كان فتى طيبا فى حياتــه المدنيــة، ولن يعيش طويلا هنا بالداخل، وهذا يُرى من النظــرة الأولـــى ويُثبَت كنظرية. ويؤسفنى أننى لا أعرف المجرية، وهــا هــو انفعاله يحطم كل الحواجز، وينفجر فـــى ســيل مــن الكلمــات المجرية غير المفهومة. ولم أستطع فهم شيء سوى اسمى، ولكن يمكن أن نقول من الحركات المهيبة إنه يقسم ويهنئ.

كراوس الأبله المسكين! ولو عرف أن هذا ليس حقيقيــا، وأننى لم أحلم به إطلاقا، وأنه هو أيضًا لا شيء بالنسبة إلـــىَّ،

باستثناء لحظة قصيرة، لا شيء، كما أن كل شيء لا شيء هناك، باستثناء الجوع داخلنا والبرد والمطر حولنا.

ثلاثة عمال من المعمل

كم شهرًا مر على دخولنا المعسكر؟ وكم شهرًا مر منذ اليوم الذى خرجت فيه من العيادة، ومن يوم اختبار الكيمياء، ومن عملية الانتقاء فى أكتوبر؟

غالبا ما نطرح على أنفسنا، أنا وألبرتو، هذه الأسئلة، وأسئلة كثيرة أخرى أيضا. وقد كنا ستة وتسعين عندما دخلنا، نحن الإيطاليين من القافلة ١٧٤٠٠٠، وعاش منا فقط تسعة وعشرون حتى أكتوبر، ومن هؤلاء ذهب ثمانية فى عملية انتقائية. والآن أصبحنا واحدا وعشرين، وبدأ الشتاء لتوه. كم منا سيصلون أحياء حتى العام الجديد؟ وكم حتى الربيع؟

وقد توقفت الغارات الآن منذ أسابيع عديدة، وتحول مطر نوفمبر إلى جليد، وغطى الجليد الأطلال. والألمان والبولنديون يأتون إلى العمل بالأحذية طويلة الرقبة المصنوعة من المطاط، وأغطية الأذن المصنوعة من الوبر وبذلات العمل المبطنة، والمعتقلون الإنجليز بستراتهم المصنوعة من الفراء. وفى معسكر اعتقالنا لم يوزّعوا معاطف سوى لبعض المحظوظين، ونحن قيادة متخصصة، لا تعمل، نظريا، إلاًّ فى مكان مغطى؛ ولهذا فقد بقينا فى زى صيفى.

نحن الكيميائيون، ولهذا فإننا نعمل فى أكياس الـــفينيل. وقد أخلينا المخزن بعد الغارات الأولى، فى عز الصيف، وقد كانت مادة الفينيل تلتصق بنا تحت الملابس، بأعضائنا المبللة بالعرق، وتجعلنا نشعر بحكة مثل الجرب، وكان الجلد ينفصل عن وجوهنا على شكل قشور كبيرة محترقة... ثم توقفت الغارات، وأعدنا الأجولة إلى المخزن. ثم ضُرب المخزن، ووضعنا الأجولة فى مخزن قسم الأستيرين. وقد تم إصلاح المخزن الآن، ويجب أن نقوم بتخزين الأجولة فيه مرة أخرى. كانت الرائحة الحادة للـــفينيل تعبّق لباسنا الوحيد، وتصاحبنا ليل نهار كظلنا. وقد اقتصرت مزايا الوجود فى القيادة الكيميائية حتى الآن على هذا: أن الآخرين تسلموا المعاطف ونحن لا، والآخرون يحملون أجولة زنة خمسين كيلوجراما من الأسمنت، ونحن أجولة زنة ستين كيلوجراما من الفينيل. كيف يمكن أن نفكر مرة أخرى فى امتحان الكيمياء وأوهام ذلك الحين؟ لقد تحدثوا على الأقل أربع مرات، فى أثناء الصيف، عن معمل الدكتور بانفيتز فى الـمصنع ٩٣٩، وذاعت شائعة بأنه سيُختار من بيننا المحللون لقسم البلمرة.

الآن كفى، الآن انتهى كل شىء. هذا هو الفصل الأخير؛ فقد بدأ الشتاء ومعه آخر معركة لنا، ولم يعد هناك ما يدعو

للشك فى أنها ليست الأخيرة؛ ففى أى لحظة من اليوم يحدث لنا أن نصغى لصوت أجسادنا، وأن نستجوب أعضاءنا، والإجابة واحدة: أن القوى لن تكفينا. وكل شىء يتحدث عن التحلل والنهاية. ونصف المصنع ٩٣٩ عبارة عن كومة من الألواح المعدنية الملتوية والركام، ومن المواسير الهائلة التى كان يزأر فيها البخار الساخن من قبل، تتدلى الآن حتى الأرض كتل جليدية كبيرة زرقاء مختلفة الأشكال مثل الأعمدة. ومصنع بونا صامت الآن، وعندما تكون الرياح مواتية، إذا أصخنا السمع، فإننا نسمع صوتا مكتوما مستمرا تحت الأرض، وهو صوت الجبهة التى تقترب. وقد وصل إلى معسكر الاعتقال ثلاثمائة معتقل من حى اليهود فى لودز، نقلهم الألمان قبل تقدم الروس، وقد نقلوا إلينا صوت الكفاح الأسطورى فى حى اليهود فى وارسو، وحكوا لنا كيف قام الألمان منذ عام مضى بتصفية معسكر لوبلينو: أربعة مدافع رشاشة فى الأركان وإحراق الثكنات، وهذا ما لن يعرفه العالم المتحضر أبدًا. متى يجىء دورنا؟

قام القائد هذا الصباح - كما هى العادة - بتقسيم الفرق: العشرة الملحقون بالكلورماغنسيوم، يذهبون لكلوريد الماغنسيوم، وهؤلاء يرحلون، وهم يزحفون بأرجلهم، بأبطأ ما يمكن، لأن

كلوريد الماغنسيوم عمل فى غاية الصعوبة؛ فالـشخص يبقـى طوال اليوم حتى عقبيه فى الماء المالح والمجمد، الذى يمـزِّق الأحذية والملابس والجلد. ويمسك القائد بطوبة ويلقى بها وسط الزحام، ويتباعد هؤلاء بصورة مضحكة، ولكنهم لا يـسرعون الخطو. وهذه تقريبًا عادة تحدث كل صباح، ولا تُفتـرض فـى القائد دائما نية محددة للإيذاء.

الأربعة الملحقون بالمراحيض، فى عملهم: يرحل الأربعة الملحقون ببناء المرحاض الجديد. ويجب أن نعرف بالفعل أننـا منذ أن تجاوز عددنا الخمسين معتقلا، مع وصول مواكب لودز وترانسيلفانيا، صرح لنا البيروقراطى الألمانى الغـامض الـذى يشرف على هذه الأمور بتشييد مرحاض بمكـانين، مخـصص لقيادتنا. ونحن لسنا مكترثين لعلامة التمييز هذه، التى تجعل من قيادتنا واحدة من القيادات القليلة التى نفخر بالانتماء إليها، ولكن من الواضح أنه تغيب هكذا أبسط ذريعة للتغيب عن العمل ولعقد صفقات مع المدنيين. ويقول هنرى، الذى لا يزال لديه الكثير فى جعبته: النبالة تفرض ذلك.

الاثنا عشر المسئولون عن الطوب، والخمسة المـسئولون عن الحاجز الرئيسى، والاثنان المسئولان عن الصهاريج. كـم عدد الغائبين؟ ثلاثة غائبين. "هومولكا" الذى دخل العيادة فى هذا

فى الصباح، والحدّاد الذى مات أمس، وفرانسوا الذى نقل، ولا أحد يدرى أين ولماذا. الحساب صحيح؛ ويسجل القائد وهو مسرور. ولا يبقى الآن سوى نحن الثمانية عشرة الملحقين بالفينيل، علاوة على البارزين فى القيادة. وها هو ما لم نكن نتوقعه.

يقول القائد: «لقد أبلغ الدكتور بانفيتز مكتب العمل أن ثلاثة من المعتقلين قد تم اختيارهم للمعمل. ١٦٩٥٠٩، براكير، و١٧٥٦٣٣، كاندل، و١٧٤٥١٧، ليفى». وللحظة واحدة تطن أذناى ويدور مصنع بونا من حولى؛ فنحن ثلاثة نحمل اسم ليفى فى القيادة ٩٨، ولكن مائة وأربعة وسبعون وخمسمائة وسبعة عشر هو أنا، لا شك محتمل فى هذا. أنا واحد من الثلاثة المختارين!

ويرمقنا القائد مع ضحكة مريرة. بلجيكى وروماني وإيطالى، أى ثلاثة "فرنسيين"، فى نهاية الأمر. وهل من الممكن أن يكون ثلاثة من الفرنسيين بالذات هم المختارين للعمل فى جنة المعمل؟

ويقوم الكثير من الزملاء بتهنئة بعضهم البعض، وأولهم جميعا هو ألبرتو، بفرحة حقيقية، وبلا أى ظل للحقد. ولا يجد ألبرتو شيئا يقوله عن الحظ الذى حالفنى، بل إنه سعيد بذلك،

سواء للصداقة، أو لأنه هو أيضًا سيجنى بعض المزايا من ذلك؛ فنحن الاثنان بالفعل مرتبطان الآن باتفاق للتحالف الوثيق للغاية، ولذا فإن كل لقمة "منظمة" تقسم إلى جزئين متساويين تمامًا، وليس لديه مبرر لكى يحسدنى، لأن دخول المعمل لم يكن يندرج لا فى آماله، ولا حتى فى رغباته. والدماء تجرى فى عروقه حرة، حتى أن ألبرتو، صديقى غير المروَّض، لا يفكر فى الاستكانة لنظام معين؛ ففطرته تحمله إلى مكان آخر، نحو حلول أخرى، نحو غير المتوقع، الجديد، الجديد. ويفضّل ألبرتو دون تردد مخاطر ومعارك "المهنة الحرة" على أية وظيفة جيدة.

أحمل فى جيبى تذكرة لمكتب العمل، مكتوب فيها أن المعتقل ١٧٤٥١٧، كعامل متخصص، له الحق فى قميص وملابس داخلية جديدة، ويجب أن يحلق ذقنه كل أربعاء.

ويرقد مصنع بونا الممزق تحت الجليد المتساقط فى بدايته، صامتا وجامدا مثل جثة مترامية الأطراف، وفى كل يوم تعوى صفارات الإنذار الجوى، والروس على بعد ثمانين كيلومترًا. محطة الكهرباء متوقفة، ولم تعد هناك أعمدة الميثانول، وقد انفجرت ثلاثة من أنابيب الأسيتيلين الأربعة. وفى معسكر اعتقالنا يتدفق كل يوم عشوائيا المعتقلون الذين تمت "استعادتهم" من جميع معسكرات شرق بولندا. قليل منهم يذهبون

إلى العمل، والغالبية يواصلون الطريق بالتأكيد إلـــى بيركنـــاو والكامينو. وقد خُفض التعيين مرة أخرى. والعيادة تكتظ بالبشر، وجاء المعتقلون (إى) للمعسكر بـــالحمى القرمزيـــة والـــدفتريا والتيفود النمشى.

ولكن المعتقل ١٧٤٥١٧ رُقّى لدرجة إخصائى، وله الحق فى قميص وملابس داخلية جديدة ويجب أن يحلق شـــعره كـــل أربعاء، ولا يمكن لأى أحد أن يتفاخر بأنه يفهم الألمان.

وقد دخلنا المعمل فى خجل، مرتابين وتائهين مثل ثلاثـــة وحوش مفترسة تدخل مدينة كبيرة. كم كانت الأرضية ناعمـــة ونظيفة! إن هذا معمل مماثل بصورة مدهشة لأى معمل آخـــر. ثلاث طاولات طويلة للعمل محمّلة بمئـــات الأشـــياء المألوفـــة، الأدوات الزجاجية فى أحد الأركان يقطر منها المـــاء، وميـــزان التحاليل، ومدفأة طراز Heraeus، وترموســـتات هـــوبلر. وقـــد جعلتنى الرائحة أقفز كمن لسعه سوط؛ إنها الرائحة الأروماتيـــة الضعيفة المنبعثة من معامل الكيمياء العـــضوية. وفـــى لحظـــة خاطفة تذكرت بعنف وحشى – تلاشى على الفـــور – القاعـــة الكبيرة شبه المعتمة فى الجامعة، السنة الرابعة، والهواء العليـــل فى شهر مايو فى إيطاليا.

ويقوم السيد ستوينوجا بتخصيص أماكن العمل لنا. وستوينوجا ألمانى–بولندى لا يزال شابا، وجهه ملىء بالطاقة، ولكنه حزين ومتعَب فى آن واحد. وهو دكتور أيضًا، ليس فى الكيمياء، ولكن (لا تحاول أن تفهم) فى اللغويات، ومع ذلك فإنه رئيس المعمل. وينادينا بكلمة "مسيو"، وهو أمر مضحك ومحيِّر.

درجة الحرارة فى المعمل رائعة؛ الترمومتر يسجل ٢٤ درجة. ونحن نعتقد أنهم يمكن أن يكلفونا أيضًا بغسيل الأدوات الزجاجية، أو كنس الأرضية، أو نقل أنابيب الهيدروجين، وأى شىء بشرط البقاء هنا بالداخل ومشكلة الشتاء ستُحَلّ بالنسبة إلينا. وبعد ذلك، وعند أى اختبار ثان لا يُنتظر أن تكون مشكلة الجوع أيضًا عسيرة الحل. وهل سيريدون فعلا تفتيشنا كل يوم عند الخروج؟ أو متى سيكون الأمر هكذا أيضا؟ فى كل مرة سنطلب فيها الذهاب إلى المرحاض؟ بالطبع لا. وهنا يوجد الصابون وهناك البنزين وهناك الكحول، وسأحيك لنفسى جيبا سريا داخل سترتى، وسأعقد صفقة مع الإنجليزى الذى يعمل فى الورشة ويتاجر فى البنزين، وسوف نرى مدى صرامة المراقبة. ولكننى أمضيت الآن سنة فى معسكر الاعتقال، وأعلم أنه إذا أراد أحدهم السرقة، وكرس جهده لذلك جديا، فلا توجد مراقبة ولا توجد عمليات تفتيش يمكن أن تمنعه من ذلك.

وحسبما يبدو إذن، فإن القدر أراد لنا نحن الثلاثة، بعد أن سرنا فى طرق لا تحوم حولها الشبهات، أن نكون موضع حسد لعشرة آلاف من المحكوم عليهم، ولن نعانى هذا الشتاء من البرد ولا الجوع، وهذا يعنى احتمالات قوية بعدم المرض بصورة خطيرة، والنجاة من التجمد، وتجاوز العمليات الانتقائية. وفى هذه الظروف، هناك أشخاص أقل خبرة منا فى شئون معسكر الاعتقال يمكن أن يراودهم الأمل فى البقاء على قيد الحياة وفكرة الحرية. نحن لا، نحن نعلم كيف تسير هذه الأمور، وكل هذا هبة من القدر الذى يجب أن نستمتع به هكذا بأقصى ما نستطيع، وعلى الفور. ولكننا لا نثق فى الغد؛ فمع أول زجاج سأكسره، ومع أول خطأ فى القياس، ومع أول عدم اهتمام، سأعود لكى أُستهلك فى الجليد والرياح، حتى أكون أنا أيضًا جاهزا للمدخنة. وعلاوة على ذلك، من يستطيع أن يعرف ماذا سيحدث عندما سيأتى الروس؟

لأن الروس سيأتون، فالأرض ترتجف ليل نهار تحت أقدامنا وفى الصمت الفارغ فى مصنع بونا تردد الصخب الخافت والمكتوم للمدفعية الآن دون انقطاع، ونستنشق هواء متوترا، هواء من التصميم. البولنديون لم يعودوا يعملون، والفرنسيون يسيرون من جديد مرفوعى الهامة، والإنجليز يغمزون لنا

بأعينهم، ويحيُّوننا خفية بعلامة النصر "V" بالسبابة والوسطى، وليس خفية دائما.

ولكن الألمان صمّ وعميان، وهم منغلقون على أنفسهم فى درع من العناد وعدم المعرفة المتعمَّدة. ومرة أخـــرى حـــددوا موعد بداية إنتاج المطاط الصناعى: سيكون الأول من فبرايــر ١٩٤٥. وهم يصنعون مخابئ وخنادق، ويصلحون الأضـــرار، ويشيدون ويحاربون، ويأمرون وينظمون ويقتلون. وماذا يمكـــن أن يفعلوا غير ذلك؟ إنهم ألمان، وعملهـــم هـــذا لـــيس مـــدبَّرا ومتعمدا، ولكنه يتماشى مع طبيعتهم، والقـــدر الـــذى اختـــاروه لأنفسهم. ولا يمكنهم أن يفعلوا خلاف ذلك؛ فـــإذا جـــرح جـــسد شخص يحتضر، فإن الجرح يبدأ مع ذلك فى الالتئام، حتى وإن كان الجسد كله سيموت بعد يوم واحد.

والآن يقوم القائد كل صباح، عند تقسيم الفِرَق بالنداء لنـــا نحن الثلاثة الملحقين بالمعمل، قبل كل الآخرين. وفى المعسكر، فى المساء وفى الصباح، لا شيء يميزنى عن القطيع، ولكننـــى فى أثناء النهار وفى العمل، أبقى فى الداخل وفى الحر، ولا أحد يضربنى، وأسرق وأبيع الصابون والبنزين دون مخاطرة جادة، وربما سأحصل على كوبون للحذاء الجلد. وعلاوة على ذلـــك، هل يمكن أن نسمى عملى هذا عملا؟ إن العمل هو دفع العربات وحمل الكمرات وكسر الأحجار وتجريف الأرض وأن نمـــسك

بأيدينا العارية بشاعة الحديد المتجمد. ولكننى أظل جالسا طوال اليوم، ومعى كراسة وقلم رصاص، حتى أنهم أعطونى كتابا لكى أنعش ذاكرتى حول طرق التحليل. ولدى درج أضع فيه البيريه والقفازات، وعندما أريد الخروج يكفى أن أنبّه السيد ستوينوجا، الذى لا يقول أبدًا «لا»، وإن تأخرت لا يوجّه إلىَّ أسئلة، ويبدو أنه يتألم فى جسده بسبب الدمار الذى يحيط به.

وزملائى فى القيادة يحسدوننى، وهم على حق فى ذلـــك. ألا يتعين علىّ أن أعتبر نفسى مسرورًا؟ ولكن بمجرد أن أنتزع نفسى فى الصباح من غضب الرياح وأعبر عتبة المعمل، ها هى إلى جوارى رفيقتى فى كل لحظات الهدنة، فى العيادة وفى أيام الراحة، أيام الأحد: معاناة التذكّر والعذاب الوحشى القديم فى أن تشعر بأنك إنسان، تنتابنى مثل كلب فى اللحظة التى يخرج فيها الضمير من الظلام، وعندئذ آخذ القلم الرصـــاص والكـــراس، وأكتب ما لا يمكن أن أقوله لأى أحد.

ثم هناك النساء. منذ كم شهر لم أرَ امرأة؟ كثيرا ما أقابل فى مصنع بونا العاملات الأوكرانيات والبولنديات، فى بناطيلهن وسترتهن الجلدية، وهن قويات وعنيفات مثل أزواجهن. وقد كُنَّ يتصببن عرقا وشعرهن أشعث صيفا، ويتدثرن بملابس كثيفـــة شتاء، وكن يعملن بالجاروف والفأس، ولم نكن نشعر بجوارهن أنهن نساء.

هنا الأمر مختلف؛ فأمام فتيات المعمل، نشعر نحن الثلاثة بأننا نغوص فى الخجل والحرج؛ فنحن نعلم ما مظهرنا؛ فكل منا يرى الآخر، وأحيانا يحدث أن نرى أنفسنا فى مـــرآة نظيفـــة. ونحن نثير الضحك والاشمئزاز، وجماجمنا حليقة يوم الاثنـــين، ومغطاة بوبر قصير يميل إلى اللون الداكن يوم السبت، ووجهنا منتفخ وأصفر ويحمل دائمًا علامات الجروح التى يُحدِثها الحلاق المتسرع، وغالبا ما تكون هناك كدمات وجروح مخدِّرة، ورقبتنا طويلة وبها تفاحة آدم مثل الديوك الشركسية، وملابـــسنا قـــذرة بصورة لا تُعقل، وهى مبقعة بالطين والدماء والشحم، وبنطـــال كندل يصل عنده إلى منتصف عضلة الساق، ليكشف عن عقبيه العظميين والمشعرين، وسترتى تقع عن كتفَىَّ كما لو كانت فوق شماعة من الخشب، ونحن نمتلئ بالبراغيث، وغالبًا ما نهـــرش أنفسنا بلا حياء، ومضطرون إلى طلب الذهاب إلى المرحـــاض بتكرار مذلّ. وقباقيبنا الخشبية صـــاخبة بـــصورة لا تُحتمـــل، وتتراكم عليها طبقات من الطين والشحم بانتظام.

ثم إننا اعتدنا على رائحتنا، ولكن الفتيات لا، ولا تفوتهن فرصة لإظهار ذلك لنا. وهى ليست الرائحة العادية لشخص لـــم يستحم، ولكنها رائحة المعتقل، الباهتة الحلوة التى استقبلتنا عنـــد وصولنا إلى معسكر الاعتقال، وهى تفوح عنيدة من عنابر نومنا

ومن المطابخ ومن المغاسل والحمامات فى معسكر الاعتقــال. ونحن نكتسبها على الفور ولا نفقدها أبدًا بعد ذلك: "لا تزال شابا هكذا وتفوح منك هذه الرائحة النتنة!"، هكــذا اعتــدنا اســتقبال القادمين الجدد بيننا.

وتبدو هذه الفتيات لنا وكأنهن مخلوقات من خارج كوكبنا، وهن ثلاث شابات ألمانيات، بالإضافة إلى الآنسة ليزبا البولندية، وهى حارسة المخزن، والسيدة ماير السكرتيرة. وبشرتهن ناعمة ووردية، وترتدين ملابس ملوَّنة ونظيفة وساخنة، وشعرهن أشقر وطويل ومصفف جيدًا، وهن يتحدثن بلطف شديد واحتشام، وبدلا من الحفاظ على المعمل مرتَّبا ونظيفا، كما يتعين عليهن، يقمــن بالتدخين فى الأركان ويأكلن علانية خبزا محمَّــصا ومربَّــى، ويبردن أظافرهن، ويكسرن الكثير من الأدوات الزجاجيــة ثــم يحاولن إلقاء التهمة علينا نحن، وعندما يكنسن، يكنسن أرجلنـــا. وهن لا يتحدثن معنا، ويجعِّدن أنوفهــن عندما يروننا نجرُّ أنفسنا للذهاب إلى المعمل، بائسين ومتسخين، غير منضبطين وغيــر ثابتين على القباقيب. وقد طلبت ذات مرة معلومة مــن الآنــسة ليزبا، ولم تردَّ علىَّ، ولكنها توجهــت إلــى ســتوينوجا بوجــه متضايق وتحدثت إليه بسرعة. لم أفهــم الجملــة ولكــن كلمــة "Stinkjude" التقطتُها بوضوح، وضقت ذرعا بهــا. وقــد قــال

ستوينجا لى إننا يجب أن نتوجه إليه مباشرة فى كل مسألة تتعلق بالعمل.

وهذه الفتيات يغنين، كما تغنى كل الفتيات فى كل معامل العالم، وهذا يجعلنا تعساء بشدة. وهن يتحدثن فيما بينهن؛ يتحدثن عن العضوية، وعن خُطَّابهن وبيوتهن، والاحتفالات القادمة...

– هل ستذهبين يوم الأحد إلى البيت؟ أنا لا؛ إن السفر متعب جدًّا!

– أنا سأذهب فى عيد الميلاد. أسبوعين فقط، ثم سيأتى بعد ذلك عيد الميلاد. لا يبدو هذا حقيقيا، فقد مرّ هذا العام بسرعة كبيرة!

... لقد مر هذا العام بسرعة كبيرة؛ ففى العام الماضى فى هذه الساعة كنت أنسانا حرًا، خارجا على القانون ولكننى حر، وكان لى اسم وأسرة، وكنت أمتلك عقلاً نَهِما وجسما رشيقا وسليما، وكنت أفكر فى الكثير من الأشياء البعيدة للغاية: فى عملى، ونهاية الحرب، والخير والشر، وطبيعة الأشياء والقوانين التى تحكم العمل البشرى، وعلاوة على ذلك، الجبال والغناء والحب والموسيقى والشعر... وكانت لدى ثقة هائلة وراسخة وبلهاء فى طيبة القدر، وكان القتل والموت يبدوان لى أمرين غريبين وأدبيين. وكانت أيامى سعيدة وحزينة، ولكننى كنت أحنّ

إليها جميعا، فقد كانت كلها مشحونة وإيجابية، وكان المستقبل يقف أمامى كثروة كبيرة. ولا يتبقى لى اليوم من حياتى آنذاك سوى ما يكفى لأعانى من الجوع والبرد؛ فلم أعد حيًّا بما فيه الكفاية لأتمكن من قمع نفسى.

ولو كنت أتحدث الألمانية بصورة أفضل لحاولت أن أشرح كل هذا للسيدة ماير، ولكن من المؤكد أنها لن تفهم، أو إذا كانت ذكية جدًّا وطيبة جدًّا بحيث تفهم فإنها قد لا تتحمل قربى، وقد تهرب منى، كما يهرب الإنسان من الاتصال بمريض لا علاج له أو بشخص محكوم عليه بالإعدام، أو ربما تهدينى كوبونا بنصف لتر من الحساء المدنى.

لقد مر هذا العام سريعًا.

الأخير

الآن أصبح عيد الميلاد قريبا. وأسير أنا وألبرتو جنبا إلى جنب فى الحشد الطويل الرمادى، منحنييْن إلى الأمام لنقاوم الريح بصورة أفضل. الوقت ليل والجليد يتساقط؛ وليس من السهل أن نبقى واقفين، ومن الأصعب الالتزام بالخطوة والاصطفاف، وبين الحين والحين يتعثر الذى يسير أمامنا ويتدحرج فى الطين الأسود، ويجب أن ننتبه لتجنبه واستعادة مكاننا فى الطابور.

ومنذ أن جئت إلى المعمل وأنا وألبرتو نعمل منفصلين، وفى مسيرة العودة تكون هناك دائما أشياء كثيرة نقولها فيما بيننا وعادة لا يتعلق الأمر بأشياء مهمة جدا: بالعمل، بالزملاء، بالخبز، بالبرد... ولكن هناك شيئا جديدا منذ أسبوع؛ لورنتسو يحمل إلينا كل مساء ثلاثة أو أربعة لترات من حساء العاملين المدنيين الإيطاليين، ولحل مشكلة النقل، اضطررنا إلى الحصول على ما يسمى هنا "مناشكا"، أى قصعة كبيرة من الصاج المجلفن، وهى أقرب إلى الدلو منها إلى القصعة. وقد صنعها لنا سيلبرلوست، السمكرى، بقطعتين من مزراب المطر، فى مقابل ثلاثة تعيينات من الخبز. وهو وعاء رائع ومتين وقوى، وله مظهر مميز كأداة عتيقة.

وفى كل المعسكر هناك فقط بعض اليونانيين الذين يمتلكون مناشكا أكبر مما عندنا. وهذا، علاوة على المزايا المادية، ينطوى على تحسن فى وضعنا الاجتماعى. فمناشكا مثل التى عندنا تُعَدُّ شهادة وشعارا للنبالة. وهنرى يصبح بالتدريج صديقا لنا ويتحدث معنا على قدم المساواة، وقد اتخذ "ل." نبرة أبوية ومتلطفة، أما فيما يتعلق بإلياس فإنه ملازم لنا باستمرار، وبينما يتجسس علينا بعناد من ناحية لكى يكتشف سر "تنظيمنا"، فإنه من الناحية الأخرى يغرقنا بتصريحات غير مفهومة عن التضامن والحب، ويصمّ آذاننا بسلسلة من الفواحش والشتائم الإيطالية والفرنسية العجيبة التى لا ندرى أين تعلمها، والتى يقصد بها تكريمنا بوضوح.

أما فيما يتعلق بالوضع الجديد للأمور فإن ألبرتو وأنا اضطُررنا إلى الاتفاق على أنه ليس هناك ما نتفاخر به، ولكن من السهل أن نجد لأنفسنا مبررات! ومن ناحية أخرى، فإن هذا الأمر نفسه، وهو وجود أشياء جديدة نتحدث عنها، ليس ميزة يمكن إغفالها.

ونتحدث عن مخطط شراء مناشكا ثانية لتتناوب العمل مع الأولى، بحيث تكفينا بعثة واحدة فى اليوم إلى الزاوية البعيدة من موقع العمل حيث يعمل الآن لورنتسو. ونتحدث عن لورنتسو،

وكيف نكافئه، وبعد ذلك، نعم، بالطبع، سنفعل كل ما فى وسعنا من أجله. ولكن ما فائدة التحدث فى ذلك؟ سواء هو أو نحن، نعلم جيدًا أننا سنعود. وقد يتعين عمل شىء على الفور، ويمكننا أن نحاول مساعدته على إصلاح حذائه فى محل الأحذية فى معسكر اعتقالنا، حيث الإصلاحات مجانية (وتبدو هذه مفارقة، ولكن كل شىء مجانىّ فى معسكرات الإبادة). ألبرتو سيحاول؛ فهو صديق رئيس ورشة الأحذية، وربما تكفى بضعة لترات من الحساء.

ونتحدث عن ثلاثة من مشروعاتنا الجديدة للغاية، نجد أنفسنا متفقين على الأسف لأن هناك أسبابا واضحة للسرية المهنية لا يُنصح بالكشف عنها: وهذه خسارة، لأن مكانتنا الشخصية قد تجنى منها بعض الفوائد الكبرى.

المشروع الأول أنا صاحب فكرته، وقد علمت أن قائد البلوك ٤٤ لديه نقص فى المقشات، وسرقت واحدة منها من موقع العمل. وحتى هذه النقطة لا يوجد شىء غير عادى. كانت الصعوبة هى تهريب المقشة إلى معسكر الاعتقال فى أثناء مسيرة العودة، وقد حللت هذه المشكلة بطريقة أعتقد أنها لم يسبق لها مثيل، بتفكيك المسروقات إلى شعر المقشة والعصا، مع نشر هذه الأخيرة إلى قطعتين، ونقل مختلف الأدوات إلى

المعسكر بصورة منفصلة (بربط جذعَى المقبض إلى الفخـذين، داخل البنطال)، وإعادة تركيب كل شيء فى معسكر الاعتقـال، ولهذا فقد اضطررت إلى إيجاد قطعة مـن الـصاج، ومطرقـة ومسامير لإعادة تثبيت الخشبتين. وقد تطلّب النقل أربعـة أيـام فقط.

وبخلاف ما كنت أخشاه، لم يبخس المشترى ثمن المقـشة فحسب، ولكنه أظهرها كشىء غريب للعديد من أصدقائه، الذين نقلوا إلىّ طلبا عاديا للحصول على مقشتين أخريين "من الطراز نفسه".

ولكن ألبرتو كانت لديه أشياء أخرى فـى جعبتـه: فـى البداية، قام بتنفيذ "عملية المبرد"، وقد نفذها مرتين بنجاح. يتقدم ألبرتو لمخزن المعدات، ويطلب مبردا، ويختار مبردا كبيرا إلى حد ما. ويكتب المسئول عن المخزن كلمة "مبرد" إلى جانب رقم قيده، ويذهب ألبرتو بعيدا، ويذهب مباشرة إلى شـخص مـدنى موثوق فيه (وهو وغد حقيقى من مدينة تريستى، واسع الحيلـة ويساعد ألبرتو حبا فى الفن أكثر من الاهتمام أو حب الخيـر)، وهو لا يجد صعوبة فى تغيير المبرد الكبير فى السوق الحـرة بمبردين صغيرين لهما القيمة نفسها أو أقل. ويعيد ألبرتو "مبردا" للمخزن ويبيع الآخر.

وفى النهاية، توّج عمله الرئيسى فى هذه الأيــام بــصفقة جريئة وجديدة وتتسم بأناقة فريدة. ولا بد أن نعرف أن ألبرتو قد عهدت إليه منذ بضعة أسابيع وظيفة خاصة: فى الــصباح فــى موقع العمل، يسلم دلوا يضم بِنسًا ومفكات وبضع مئــات مــن اللوحات الصغيرة المصنوعة من السليوليد بألوان مختلفة، يتعين عليه أن يقوم بتركيبها عن طريق دعامات صغيرة خاصة لتمييز المواسير العديدة والطويلة الخاصة بالميــاه البــاردة والــساخنة والبخار والهواء المضغوط والغاز والنفط والفراغ إلخ، والتــى تعبر قسم البلمرة فى كل الاتجاهات. ويجب أن نعرف عــلاوة على ذلك (ويبدو أن هذا لا دخل له إطلاقا بالموضوع، ولكن ألا تكمن العبقرية ربما فى إيجاد أو خلق علاقات بين أنظمــة مــن الأفكار الغريبة فى الظاهر) أن الدش بالنسبة إلى جميع المعتقلين شىء كريه جدًّا لأسباب عديدة (فالماء نادر أو بــارد، أو حتــى يغلى، ولا توجد غرفة لخلع الملابس، ولا توجد لدينا مناشــف، ولا يوجد لدينا صابون، وفى أثناء الغياب الإجبارى من الــسهل أن نتعرض للسرقة). وبما أن الدش إجبارى، فإنه لا بد لرؤساء البلوكات من نظام للمراقبة يسمح بتطبيق عقوبات على من يعفى نفسه منه، وغالبا ما يجلس وكيل للبلوك عند الباب ويجسّ مثــل بوليفيموس من يخرج لكى يتحقق مما إذا كان مبتلا، ومن يكــن كذلك يتسلم إيصالا، ومن هو جــاف يتلقــى خمــس ضــربات

بالسوط. وبتقديم الإيصال فقط يمكن الحصول على الخبز في الصباح التالى.

وقد تركز اهتمام ألبرتو على الإيصالات، وهى بصفة عامة ليست سوى بطاقات بائسة من الورق، يعاد تسليمها مبللة ومثنية ولا يمكن التعرف عليها. وألبرتو يعرف الألمان، ورؤساء البلوكات كلهم ألمان أو من المدرسة الألمانية، وهم يحبون الانضباط والنظام والبيروقراطية، وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من أنهم ريفيون عدوانيون وسريعو الغضب، فإنهم يكنّون حبا طفوليا للأشياء اللامعة ومتعددة الألوان.

و بعد تحديد الموضوع على هذا النحو، ها هو تنفيذه الألمعى. لقد انتزع ألبرتو بانتظام سلسلة من البطاقات الصغيرة من اللون نفسه، وقد استخرج من كل واحدة ثلاث دوائر صغيرة (والآلة اللازمة لذلك، الخرامة، دبّرتُها أنا من المعمل)، وعندما أصبح هناك مائتا قرص صغير، تكفى أى بلوك، تقدّمَ إلى رئيس البلوك، وقدم له الطبق بسعر مجنون هو عشرة تعيينات من الخبز، تُسلَّم تدريجيا. وقد قبل العميل بحماس، والآن يمتلك ألبرتو سلعة رائعة على الموضة يقدمها بضربة أكيدة فى كل الثكنات، كل ثكنة بلونها (ولن يريد أى رئيس بلوك أن يوصف بأنه بخيل ويكره التجديد)، والأهم من ذلك، أنه لا يخشى

المنافسين، لأنه هو وحده الذى يملك الوصول إلى المادة الخام. ألم يكن هذا مدروسا جيدا؟

نتحدث عن هذه الأشياء ونحن نتعثر بين بركة صغيرة من الماء وأخرى، بين سواد السماء وطين الشارع. نتحدث ونسير. وأحمل أنا القصعتين الفارغتين، وألبرتو ثقل المناشكا الممتلئة. ومرة أخرى موسيقى الفرقة، ولحتفال خلع القبعات، وتنزل البيريهات فجأة أمام الشرطة السرية، ومرة أخرى عبارة "العمل يجعل الإنسان حرا" وإعلان الرئيس: «القيادة ٩٨، اثنان وستون معتقلا، الحساب صحيح». ولكن الطابور لم ينحلّ، وقد جعلونا نسير حتى ميدان النداء، ورأينا الضوء الباهر للفنار والصورة الشهيرة للمشنقة.

ولأكثر من ساعة استمرت الفرق فى العودة، مع الخشخشة العنيفة للنعال الخشبية على الجليد المتجمد. وعندما عادت كل القيادات بعد ذلك، توقفت الفرقة فجأة، وفرض صوت ألمانى أجش الهدوء. وفى الهدوء المفاجئ ارتفع صوت ألمانى آخر، وفى الجو المعتم والمعادى تحدَّث طويلا بغضب... وأخيرا أدخل المحكوم عليه فى حزمة الضوء المنبعثة من الفنار.

كل هذا الجهاز وكل هذا الاحتفال العنيد، ليس جديدا بالنسبة إلينا، فمنذ أن دخلت أنا المعسكر، اضطُررت إلى

حضور الشنق العلنى لثلاثة عشر شخصا، ولكــن الأمــر فــى المرات الأخرى كان يتعلق بجرائم عادية، وسرقات فى المطبخ وعمليات تخريب ومحاولات للهروب. اليوم الأمر يتعلق بشيء آخر: فى الشهر الماضى تم تفجير إحدى محارق بيركنــاو، ولا أحد منا يعلم (وربما لن يعلم أحد أبــدا) كيــف تمــت العمليــة بالضبط؛ فهناك من يتحدث عن القوة الخاصة الملحقــة بغــرف الغاز والأفران، والتى تباد هى نفسها بانتظام ويحــتفظ بــسرها باقى المعسكر بعناية. وتبقى حقيقة وهى أن بضع مئــات فــى بيركناو، من الرجال والعبيد العزل والمنهكين مثلنا، وجدوا فــى أنفسهم القوة على العمل واستثمار كراهيتهم.

والرجل الذى سيموت اليوم أمامنا شــارك فــى الثــورة بطريقة ما، ويقال إنه كانت له علاقات مع متمــردى بيركنــاو، وإنه نقل أسلحة إلى معسكرنا، وكان يدبر لعصيان متزامن أيضًا بيننا. سيموت اليوم تحت أعيننا، وربما لــن يفهــم الألمــان أن الموت المنفرد، الموت الذى خُصِّص لإنــسان، ســيعود عليــه بالمجد وليس بالعار.

وعندما انتهى حديث الألمانى، الذى لم يــستطع أحــد أن يفهمه، ارتفع من جديد الصوت الأجش الأول: هل فهمتم؟

من رد بكلمة "نعم"؟ الجميع ولا أحد، كان كما لو أن استسلامنا اللعين قد تجسد فى حد ذاته، واتخذ صوتا جماعيا فوق أجسادنا. ولكن الجميع سمعوا صرخة المحتضَر، فقد اخترق الحواجز القديمة السميكة من الكسل والخنوع، وضرب المركز الحىَّ للإنسان فى كل منا:

- أيها الزملاء، إننى الأخير!

أود لو استطعت أن أحكى أنه قد ارتفع بيننا، نحن القطيع الدنىء، صوت، همس، علامة على الموافقة. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وبقينا واقفين، منحنين ورماديين، مطأطئى الرؤوس، ولم نكشف رأسنا عندما أمرنا الألمانى بذلك. فُتح باب الفخ ومر الجسم بسرعة وحشية، واستأنفت الفرقة العزف، واصطففنا نحن، بعد أن انتظمنا من جديد فى طابور، أمام الرجفات الأخيرة للميت.

أسفل المشنقة، ينظر إلينا رجال الشرطة السرية ونحن نمر بعيون غير مكترثة؛ فقد تم عملهم، وتم على ما يرام. ويمكن للروس أن يأتوا الآن؛ لم يعد هناك رجال أقوياء بيننا، والأخير يتدلى الآن فوق رؤوسنا، وبالنسبة إلى الآخرين، كانت تكفى بضع مشانق. يمكن أن يأتى الروس؛ لن يجدوا غيرنا نحن المروَّضين، والمنطفئين، والجديرين بالموت الأعزل الذى ينتظرنا.

إن تدمير الإنسان صعب، تقريبًا مثل خلقه، لم يكن سهلا، ولم يستغرق وقتا قصيرا، ولكنكم نجحتم فى ذلك، أيها الألمـــان. وها نحن قد أصبحنا طيِّعين تحت أنظاركم، فمن جانبنا لم يعـــد هناك ما تخشون منه؛ فلا أعمال ثورة، ولا كلمـــات تحـــدٍّ، ولا حتى نظرة فاحصة.

عدت أنا وألبرتو إلى الثكنة، ولم يستطع أى منا أن ينظر فى وجه الآخر. وكان لا بد أن يكون ذلك الرجل قويا، كان لا بد أن يكون من معدن آخر غير معدننا، إذا كانت هذه الحالة، التى تحطمنا منها، لم تستطع أن تخضعه.

لأننا نحن أيضًا تحطمنا وهُزمنا، حتى وإن كنا قد استطعنا أن نتكيف، حتى وإن كنا قد تعلمنا أخيرا أن نجـــد طعامنـــا وأن نحتمل التعب والبرد، حتى وإن كنا سنعود.

لقد وضعنا المناشكا على السرير، وقمنا بالتوزيع وأشبعنا الغضب اليومى من الجوع، والآن يثقل العار كاهلنا.

قصة عشرة أيام

منذ شهور طويلة ونحن نسمع الآن على فترات دوىَّ المدافع الروسية، عندما مرضتُ فى ١١ يناير ١٩٤٥ بالحمى القرمزية وأُدخلت العيادة من جديد. "قسم العدوى": غرفة صغيرة، وهى فى الحقيقة نظيفة جدًّا، وبها عشرة أسرة بدورين، وصوان، وثلاثة مقاعد، وكراسى بيت الخلاء مع الدلو لقضاء الحاجة. وكل هذا فى مساحة ثلاثة أمتار فى خمسة.

كان من الصعب الصعود للأسرَّة العليا، فلم يكن هناك سُلَّم؛ ولهذا فعندما كانت تسوء حالة مريض ما كان يُنقل إلى الأسرَّة السفلى.

وعندما دخلت كنت الثالث عشر، ومن الاثنى عشر الآخرين كان هناك أربعة مصابون بالحمى القرمزية، فرنسيان "سياسيان" وشابان من اليهود المجريين، وكان هناك بعد ذلك ثلاثة مصابون بالدفتريا، واثنان بالتيفود، وواحد مصاب بالتهاب منفرٍ فى الوجه. والاثنان الباقيان كانا يعانيان من أكثر من مرض، وكانا مرهقين بصورة لا تصدَّق.

كنت أعانى من الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة، وكان من حظى أننى كنت فى سرير وحدى، ونمت فى راحة، وكنت

أعلم أن من حقى الحصول على أربعين يوما من العزلة وبالتالى الراحة، وكنت أعتبر نفسى محصنًا ضد الخوف من عواقب الحمى القرمزية من ناحية، وعمليات الانتقاء من ناحية أخرى.

وبفضل خبرتى الطويلة الآن بأمور المعسكر، كنت قد نجحت فى حمل أشيائى الخاصة معى: حزمة من الأسلاك الكهربائية المضفرة، والملعقة -السكين، وإبرة مع ثلاثة خيوط، وخمسة أزرار، وأخيرا ثمانية عشر حجر ولاعة كنت قد سرقتها من المعمل. ومن كل واحد من هذه الأحجار بتقسيمها بصبر بالسكين، كان يمكن الحصول على ثلاثة أحجار أصغر، من عيار مناسب لأى ولاعة عادية. وقد ثُمِّنت بستة أو سبعة تعيينات من الخبز.

أمضيت أربعة أيام هادئة، وفى الخارج كان الجليد يتساقط وكان الجو باردا جدًا، ولكن الثكنة كانت دافئة. وكنت أتلقى جرعات قوية من السلفا، وأعانى من غثيان شديد وآكل بصعوبة، ولم تكن لدى الرغبة فى البدء فى الحديث.

كان الفرنسيان اللذان يعانيان من الحمى القرمزية يتمتعان بخفة الظل، وكانا ريفيين من فوسجى، دخلا المعسكر منذ بضعة أيام مع دفعة كبيرة من المدنيين جمعهم الألمان وهم ينسحبون من إقليم اللورين. كان الأكبر سنًا يدعى آرثر، وكان فلاحا

صغيرا ونحيفا، وكان الآخر، وهو زميله فى السرير، يُدعى تشارلز، وكان مدرسا فى المدرسة ويبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما، وبدلا من القميص كان من نصيبه فانلة صيفية قصيرة بصورة مضحكة.

وفى اليوم الخامس جاء الحلاق، وكان يونانيا من مدينة سالونيك، وكان يتحدث فقط لغة شعبه الإسبانية الجميلة، ولكنه كان يفهم بعض الكلمات من جميع اللغات التى كنا نتحدث بها فى المعسكر. كان اسمه أسكنازى، وكان فى المعسكر منذ ما يقرب من ثلاث سنوات تقريبًا، ولا أعرف كيف استطاع أن يحصل على منصب "حلاق" العيادة! وبالفعل لم يكن يتحدث الألمانية ولا البولندية، ولم يكن وحشيا بصورة زائدة. وقبل أن يدخل، كنت قد سمعته يتحدث طويلاً بانفعال فى الممر مع الطبيب، الذى كان يونانيًّا. وقد بدا عليه تعبير غير مألوف، ولكن بما أن حركات الشرقيين لا تماثل حركاتنا، فإننى لم أكن أفهم ما إذا كان خائفا أم سعيدا أم منفعلا. وقد كان يعرفنى، أو على الأقل كان يعلم أننى كنت إيطاليًّا.

وعندما حان دورى نزلت بنشاط من السرير. وقد سألته بالإيطالية حول ما إذا كان هناك شىء جديد، فتوقف عن الحلاقة، وغمز بعينيه بطريقة مهيبة وتلميحية، وأشار إلى النافذة

بذقنه، ثم قام بحركة واسعة بيده نحو الغرب: Morgen, alle Kamarad weg.

ونظر إلىَّ لحظة بعينيه المفتوحتين، كما لو كان ينتظر دهشتى، ثم أضاف: «الجميع، الجميع»، واستأنف العمل. وقد كان على علم بالأحجار الصغيرة التى معى، ولهذا حلق شعرى بشىء من الرقة.

لم يثر الخبر فى نفسى أى انفعال مباشر؛ منذ شهور طويلة لم أعد أعرف الألم والفرح والخوف إلا بتلك الطريقة المعزولة والبعيدة المميزة لمعسكر الاعتقال، والتى يمكن أن نسميها شرطية؛ فكنت أفكر قائلاً لنفسى: لو كانت عندى الآن حساسيتى الأولى لكانت هذه لحظة مثيرة للانفعال إلى أقصى حد.

كانت أفكارى واضحة تمامًا؛ فمنذ وقت طويل كنت قد توقعت أنا وألبرتو الأخطار التى ستصاحب لحظة الجلاء عن المعسكر والتحرير، وفى الوقت نفسه لم يكن الخبر الذى حمله أسكنازى سوى تأكيد لشائعة كانت موجودة منذ أيام عديدة: أن الروس كانوا فى تشيستوكوفا، على بعد مائة كيلومتر ناحية الشمال، وأنهم كانوا فى زاكوبان، على بعد مائة كيلومتر ناحية الجنوب، وأن الألمان فى مصنع بونا كانوا يقومون بتجهيز ألغام التخريب.

وقد نظرت إلى وجوه زملائى فى الغرفة واحدًا واحدًا، وكان واضحًا أنه لم يكن يضع فى حسابه التحدث عن ذلك مع أى أحد منهم، وكانوا سيردون علىَّ بقولهم: "وما العمل إذن؟"، وسينتهى كل شىء عند هذا الحد. كان الفرنسيون مختلفين، وكانوا لا يزالون منتعشين.

قلت لهم: هل تعلمون؟ غدا سنقوم بإخلاء المعسكر.

وقد انهالوا علىَّ بالأسئلة: «إلى أين؟ سيرا على الأقدام؟ والمرضى أيضا؟ وأولئك الذين لا يستطيعون السير؟» كانوا يعرفون أننى معتقل قديم وأننى أفهم الألمانية، وقد استخلصوا من ذلك أننى كنت أعلم عن الموضوع أكثر بكثير مما كنت أريد أن أعترف به.

لم أكن أعرف شيئا آخر، وقد قلت هذا، ولكن هؤلاء استمروا فى الأسئلة. يا له من إزعاج. ولكنهم بالفعل كانوا فى المعسكر منذ بضعة أسابيع، ولم يكونوا قد تعلموا بعد أنه غير مسموح بتوجيه الأسئلة فى معسكر الاعتقال.

بعد العصر جاء الطبيب اليونانى وقال إن كل أولئك الذين كان بوسعهم السير، حتى من بين المرضى، سيزوَّدون بأحذية وملابس، وسيرحلون فى اليوم التالى، مع الأصحَّاء، فى مسيرة

عشرين كيلومترا، وسيبقى الآخرون فى العيادة، مع طاقم للرعاية مختار من المرضى الأقل خطورة.

كان الطبيب مرحًا على غير العادة، وكان يبدو مخمورا، وقد كنت أعرفه، وكان رجلا مثقفا وذكيا، وأنانيا ويحسب كل شيء. وقال أيضًا إن الجميع دون تمييز سيتلقون ثلاثة أضعاف التعيين من الخبز، وهو ما أفرح المرضى بصورة واضحة. ووجَّهنا إليه بعض الأسئلة حول ما سيُفعل بنا. وردَّ بأن من المحتمل أن يتركنا الألمان لحالنا: لا، لم يكن يعتقد أنهم سيقتلوننا، ولم يكن يجتهد كثيرا فى إخفاء اعتقاده بعكس ذلك، وفرحه نفسه كان له مغزاه.

كان قد استعد بالفعل للسير، وبمجرد أن خرج، أخذ الشابَّان المجريَّان فى الحديث بحماس فيما بينهما. وقد كانا فى مرحلة نقاهة متقدمة، ولكنهما مرهَقان جدًّا. وكان من الواضح أنهما يخشيان البقاء مع المرضى، وكانا قد عقدا العزم على الرحيل مع الأصحَّاء. ولم يكن الأمر يتعلق بتفكير عقلانى؛ فمن المحتمل أننى أنا أيضًا كنت سأتبع غريزة القطيع، لو لم أشعر بهذا الضعف الشديد، والرعب ينتقل للآخرين بوضوح، والفرد المرعوب يحاول الهروب قبل كل شيء.

خارج الثكنة كنا نشعر بأن المعسكر فى حالة هياج غير معتاد. وقد نهض أحد المجريين وخرج، وعاد بعد نصف ساعة محمَّلا بالأثمال البالية. ولا بد أنه انتزعها من مخزن الملابس العسكرية المقرر إرسالها للتعقيم. وقد ارتدى هو وزميله ملابسهما بصورة محمومة، فارتديا أثمالا فوق أثمال. وكان من الواضح أنهما يتعجلان وضع نفسيهما أمام الأمر الواقع، قبل أن يدفعهما الخوف نفسه للتراجع. وكان من العبث التفكير فى جعلهما يسيران ولو لساعة واحدة وهما ضعيفان كما كانا، وعلاوة على ذلك فى الجليد، وبتلك الأحذية المهلهَلة التى عثر عليها فى اللحظة الأخيرة. وقد حاولت أن أشرح ذلك، ولكنهما نظرا إلىَّ دون ردّ. وكانت عيونهما كعيون الحيوانات الخائفة.

وللحظة واحدة خطر على بالى أنه كان يمكن أن يكونا أيضًا على حق، وقد خرجا بلا مهارة من النافذة، وقد رأيتهما حزمتين لا شكل لهما وهما يترنحان فى الخارج فى الليل. لم يعودا، وقد عرفت بعد ذلك بفترة طويلة أن الشرطة السرية أطلقت عليهما النار، لعدم قدرتهما على مواصلة السير، بعد بضع ساعات من بداية السير.

وبالنسبة إلىَّ أيضًا كان لا بد من حذاء، وكان هذا واضحا، وربما احتجت أيضًا إلى ساعة لكى أتمكن من التغلب

على الغثيان والحمى والخمول. وقد عثرتُ على حذاء فى الممر (كان الأصحَّاء قد نهبوا مخزن أحذية النزلاء، وكانت قد ضاع أفضلها، وكان أسوأها، بلا نعل وبأزواج مختلفة، تقبع فى كل مكان). وهناك بالتحديد قابلت كوزمان، وهو من إقليم الألزاس. وكان وهو مدنى مراسلا لوكالة "رويتر" فى كليرمون - فران، وهو أيضًا متحمس وفرِح. قال: لو تعيَّن عليك أنت العودة قبلى، اكتب لعمدة متز أننى على وشك العودة.

كان لكوزمان - كما هو معروف - معارف بين الرؤساء، ولهذا فقد بدا لى تفاؤله مؤشرا طيبا، ولقد استخدمته لكى أبرر أمام نفسى تقاعسى. خبأت الحذاء وعدت إلى السرير.

وفى ساعة متأخرة من الليل جاء الطبيب اليونانى مرة أخرى، يحمل جوالا على كتفيه وقلنسوة تغطى الرأس والأذنين. وألقى على سريرى رواية فرنسية: «امسك، اقرأ أيها الإيطالى. ستعيده إلىّ عندما نلتقى مرة أخرى». ولا أزال أكرهه حتى اليوم بسبب عبارته هذه؛ فقد كان يعلم أننا محكوم علينا.

وجاء ألبرتو أخيرا، متحديا الحظر، لكى يحيينى من النافذة. كان رفيقى الذى لا ينفصل عنى، وكنا نحن "الإيطاليين"، وعلاوة على ذلك كان الزملاء الأجانب يخلطون اسمينا. منذ ستة أشهر كنا نقتسم السرير، وكل جرام من الطعام المنظم خارج

التعيين، ولكنه كان قد تجاوز الحُمَّى القرمزيـــة وهــو طفــل، وبالتالى فإننى لم أستطع أن أعديه، ولهذا فقد سافر هو وبقيــت أنا. وقد حيًّا كل منا الآخر، ولم تكن هناك حاجة لكلمات كثيرة، وكنا قد تحدثنا معا عن كل أمورنا آلاف المرات، ولم نكن نعتقد أننا سنبقى منفصلين طويلا. وقد وجد حذاء كبيرا من الجلد، فى حالة معقولة. كان من أولئك الناس الذين يجدون على الفور كل ما يحتاجون إليه.

كان هو أيضًا مرحا وواثقا، مثل كل أولئك الــذين كـــانوا يرحلون، وكان هذا مفهوما؛ فقد كان هناك شيء كبيــر وجديــد يوشك أن يقع، فقد كنا نشعر حولنا بقوة ليست قوة ألمانيا، وكنـــا نشعر ماديا بتصدع كل عالمنا الملعون، أو على الأقل هـــذا مـــا كان يشعر به الأصحَّاء الذين كان بوسعهم التحرك، على الرغم من أنهم كانوا متعَبين وجوعى، ولكن لا شك فى أن مـــن هـــو ضعيف جدًّا أو عارٍ أو حافى القدمين يفكـــر ويحـــس بطريقـــة أخرى، وما كان يسيطر على عقولنا كان الشعور الـــشالّ بأنـــك أعزل تمامًا وفى يد القدر.

وقد رحل كل الأصحَّاء فى الليل فـــى ١٨ ينـــاير ١٩٤٥ (باستثناء بعض الموصى عليهم الذين خلعوا ملابسهم فى اللحظة الأخيرة وانزووا فى أحد أسرّة العيادة). ولا بد أن عددهم كـــان

عشرين ألفا، قادمين من مختلف المعسكرات. وقد اختفوا كلهم تقريبًا فى أثناء مسيرة الإخلاء. كان ألبرتو من هؤلاء، وربما يكتب البعض قصتهم فى يوم من الأيام.

بقينا إذن فى مراقدنا، وحدنا مع أمراضنا، ومع خمولنا الأقوى من الخوف.

وفى كل العيادة كان عددنا يبلغ ثمانمائة تقريبا، وفى غرفتنا كان قد بقى منا أحد عشر، كل منا فى سرير، باستثناء تشارلز وآرثر اللذين كانا ينامان معًا. وبعد انطفاء الآلة الكبيرة لمعسكر الاعتقال، بدأت بالنسبة إلينا الأيام العشرة خارج العالم والزمن.

١٨ يناير. فى ليلة الإخلاء كانت مطابخ المعسكر لا تزال تعمل، وفى الصباح التالى تم فى العيادة آخر توزيع للحساء، وكان الجهاز المركزى للتدفئة قد تُرك لشأنه، وكانت هناك بعض الحرارة لا تزال راكدة فى المعسكرات، ولكن درجة الحرارة كانت تنخفض بالتدريج مع مرور كل ساعة، وكان من الواضح أننا سنعانى من البرد بعد قليل. وربما كانت الحرارة فى الخارج ٢٠ درجة تحت الصفر على الأقل، ولم يكن لدى الغالبية العظمى من المرضى سوى القميص، والبعض لم يكن لديهم حتى ذلك.

لم يكن أحد يعرف ماذا كانت عليه حالنا. كان بعض أفراد الشرطة السرية قد بقوا، وكانت بعض أبراج المراقبة لا تـزال مشغولة.

عند منتصف النهار تقريبًا قام مساعد من الشرطة السرية بجولة فى الثكنات، وعيَّن فى كل منها رئيسا للثكنة واختاره من بين غير اليهود الباقين، وأمر بأن يُعِـدَّ علـى الفـور قائمـة بالمرضى، يقسَّمون إلى يهود وغير يهود. وكان الأمـر يبـدو واضحا، ولم يندهش أحد من أن الألمان كانوا يحتفظون حتـى آخر لحظة بحبهم الوطنى للتصنيفات، ولم يفكر أى يهودى جديا فى العيش حتى اليوم التالى.

لم يفهم الفرنسيان وكانا فزعين، وقد ترجمت لهما علـى مضض حديث أفراد الشرطة الـسرية، وكنـت غاضـبا مـن شعورهما بالخوف؛ فلم يمضِ شهر واحد على دخولهما معسكر الاعتقال، ولم يشعرا بعد بالجوع، ولم يكونا حتى مـن اليهـود، وكانا خائفين!

تم توزيع الخبز مرة أخرى، وقد أمضيت العـصر فـى قراءة الكتاب الذى تركه الطبيب. كان شيقا جدًّا وأذكـره بدقـة غريبة. وقد قمت أيضًا بزيارة للقسم المجاور بحثا عن أغطيـة، ومن هناك سمح للعديد من المرضى بالخروج، وبقيت أغطيتهم وحدها، فأخذت معى بعضا منها لا يزال دافئا.

وعندما عرف آرثر أنها قادمة من قسم الدوسنتاريا أشاح بأنفه قائلاً: «لم تكن هناك حاجة إلى أن تقول هذا»؛ فقد كانت مبقعة بالفعل. وقد كنت أعتقد أن من الأفضل على أى حال أن نتغطى جيدًا فى أثناء النوم، نظرا إلى ما كان ينتظرنا.

حلَّ الليل سريعا، ولكن الضوء الكهربى كان لا يزال يعمل، وقد رأينا بفزع هادئ أن أحد أفراد الشرطة السرية المسلحين يقف فى ركن من المعسكر. لم تكن لدىَّ الرغبة فى الكلام، ولم أكن أشعر بالخوف سوى بالطريقة الخارجية والشَرْطِية التى تحدثت عنها. وواصلت القراءة حتى ساعة متأخرة.

لم تكن هناك ساعات، ولكن ربما كانت الحادية عشرة مساء عندما انطفأت جميع الأنوار، وكذلك أنوار الكشَّافات على أبراج الحراسة. وكانت تُرَى من بعيد حزم الخلايا الضوئية. وظهر فى السماء عنقود من الأضواء المركزة، بقيت ساكنة مضيئة الأرض بشدة، وكنا نسمع أزيز الطائرات.

ثم بدأ القصف. لم يكن شيئا جديدا، ونزلت على الأرض، وأدخلت قدمَىَّ العاريتين فى الحذاء وانتظرت.

كان يبدو بعيدا، ربما عند أوشفيتز، ولكن ها هو انفجار قريب، وقبل أن أكوّن فكرة محددة، يخرق أذنَىَّ انفجار ثانٍ

وثالث. وسمعنا تحطم الزجاج، وتأرجحت التكنة، وسقطت على الأرض الملعقة التى كنت قد غرزتها فى مفصل فـــى الحـــائط الخشبى.

ثم بدا أن الأمر قد انتهى، ولا بد أن كانيولاتى، وهو فلاح شاب، وهو من فوسجى أيضًا، لم يرَ قط غارة من قبـــل؛ فقـــد خرج عاريا من السرير واختبأ فى أحد الأركان وهو يصرخ.

وبعد بضع دقائق كان واضحا أن المعسكر قـــد ضُـــرب، وكانت هناك ثكنتان تحترقان بعنف، واثنتان أخريان تحولتا إلى رماد، ولكنها كانت كلها ثكنـــات خاويـــة. ووصـــل عـــشرات المرضى، عرايا بائسين، من ثكنة تهـــددها النيـــران، وكـــانوا يطلبون المأوى. من المستحيل استقبالهم. وقد ألحُّـــوا متوســـلين ومهددين بلغات عديدة، واضطررنا إلى سدّ الباب. وقد جـــروا أنفسهم إلى مكان آخر، وقد أضاءتهم ألسنة اللهب، وهـــم حفـــاة على الجليد المنصهر. وكان الكثيرون تتدلى وراءهم الأربطـــة المفكوكة، ولم يكن يبدو أن هناك خطرا علـــى ثكنتنـــا، إلا إذا دارت الرياح.

لم يعد هناك ألمان بعد، وكانت الأبراج خاوية، وأنا أعتقد اليوم أن أحدا يجب أن يتحدث فى أيامنا هذه عن العناية الإلهيـــة لمجرد وجود أوشفيتز، ولكن من المؤكـــد أن نكـــرى عمليـــات

الإنقاذ التوراتية فى المصائب الكبرى قد مرت فى تلك الساعة كالريح فى كل النفوس.

لم نكن نستطيع النوم؛ فقد كان هناك زجاج مكسور وكان الجو باردا جدًا، وكنت أفكر فى أننا سيتعين علينا البحث عن مدفأة نضعها، والحصول على الفحم والخشب والمؤن. كنت أعلم أن كل هذا كان ضروريا، ولكن دون مساندة البعض لم أكن سأحصل أبدا على الطاقة على تنفيذ ذلك. وقد تحدثت فى هذا مع الفرنسيين.

١٩ يناير. كان الفرنسيان متفقين، ونهضنا عند الفجر نحن الثلاثة. كنت أشعر بأننى مريض وأعزل، وكنت أشعر بالبرد والخوف.

ونظر المرضى الآخرون إلينا بفضول واحترام. ألم يكونوا يعرفون أن المرضى لم يكن مسموحا لهم بالخروج من العيادة؟ وماذا لو أن الألمان لم يكونوا كلهم قد رحلوا بعد؟ ولكنهم لم يقولوا شيئا، فقد كانوا مسرورين لأن هناك من يقوم بالتجربة.

لم تكن لدى الفرنسيين أية فكرة عن تضاريس معسكر الاعتقال، ولكن تشارلز كان شجاعا وقويا، وكان آرثر حكيما، وكان يتمتع بحس عملى سليم كفلاح. خرجنا وسط رياح يوم جليدى يلفه الضباب، وقد التحفنا بالأغطية على عجل.

ما رأيناه لا يشبه أى مشهد رأيته أو سمعت له وصفا من قبل؛ كان معسكر الاعتقال الذى مات لتوه يبدو متحللا بالفعل؛ فلم تعد هناك مياه ولا كهرباء، وكانت النوافذ والأبواب المفدوغة تصطدم وسط الرياح، وكانت صفائح الأسقف المفككة تُحدِث صريرا، وكان رماد الحريق يطير عاليا وبعيدا، وقد أضيف لعمل القنابل عمل البشر، وقد كان المرضى الذين يستطيعون الحركة يجرُّون أنفسهم إلى كل مكان، فى ثياب رثة وهم يتهاوون، كالهياكل العظمية، كغزو للديدان على الأرض الصلبة من الجليد.

وكانوا قد بحثوا فى كل الثكنات الخاوية بحثا عن الطعام والخشب، وانتهكوا باندفاع لا يُعقل غرف الرؤساء المكروهين، المزيَّنة بطريقة مضحكة، والمحظورة حتى اليوم السابق على المعتقلين العاديين؛ فبعد أن زالت سيادتهم عن ممتلكاتهم، نشروا القاذورات فى كل مكان، ولوَّثوا الجليد الثمين، وهو المصدر الوحيد للماء الآن لكل المعسكر.

وحول أطلال الثكنات المحترقة التى يتصاعد منها الدخان كانت هناك مجموعات من المرضى الملتصقين بالأرض، لكى يمتصوا منها الحرارة الأخيرة، وكان آخرون قد عثروا على بطاطس فى بعض الأنحاء، وكانوا يشوونها على جمر الحريق،

وهم ينظرون حولهم بعيون متوحشة. وكان قلة قد وانتهم القوة على إشعال نار حقيقية، وصهروا فيها الجليد فى أوانٍ بدائية.

وقد اتجهنا إلى المطابخ بأقصى سرعة، ولكن البطاطس كانت قد انتهت تقريبا. وقد ملأنا بها جوالين، وتركناها فى حراسة آرثر. وبين أنقاض بلوك القادة عثرت أنا وتشارلز أخيرا على ما كنا نبحث عنه: مدفأة ثقيلة من الحجر الزهر، مع خراطيم لا تزال صالحة للاستخدام. وقد هُرع تشارلز بعربة صغيرة وقمنا بالتحميل، ثم ترك لى مهمة حلها إلى الثكنة وجرى لإحضار الجوالات. وهناك عثر على آرثر وقد فارق الوعى بسبب البرد، وحمل تشارلز كلا الجوالين ونقلهما إلى مكان آمن، ثم عُنى بالصديق.

وفى الوقت نفسه كنت أحاول أنا تحريك العربة على أفضل وجه، وأنا أسند نفسى بصعوبة. وسُمع دوران محرك، وها هو أحد أفراد الشرطة السرية يدخل المعسكر بدراجته النارية. وكما يحدث دائما عندما نرى وجوههم المتشددة، شعرت بأننى أغوص فى الرعب والكراهية. وكان الوقت قد فات لكى أختفى، ولم أكن أريد ترك المدفأة. كانت تعليمات معسكر الاعتقال تنص على الوقوف انتباهًا وكشف الرأس. ولم أكن أضع قبعة، وكنت متدثرا بالغطاء. ابتعدت بضع خطوات عن

العربة وقمت بنوع من الانحناءة المضحكة. وقد تجاوزنى الألمانى دون أن يرانى، ودار حول إحدى الثكنات، ورحل. وقد عرفت فيما بعدُ الخطرَ الذى تعرضت له.

وصلت أخيرًا إلى عتبة ثكنتنا وأنزلت المدفأة فى أيدى تشارلز. كان نَفَسى قد انقطع من الجهد، وكنت أرى تراقص بقع كبيرة سوداء.

كان لا بد من تشغيلها. كانت أيادينا نحن الثلاثة مشلولة، وكان المعدن البارد يلتصق بجلد أصابعنا، ولكن كان لا بد من تشغيل المدفأة بسرعة، لتدفئتنا ولغلى البطاطس، وكنا قد عثرنا على خشب وفحم، وجمر أيضًا، من الثكنات المحترقة.

وعندما تم إصلاح النافذة المفدوغة، وبدأت المدفأة فى بث الحرارة بدا أن شيئا ما كان يتمدد فى كل منا، وعندئذ حدث أن تواروسكى (وهو فرنسى- بولندى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما، ومريض بالتيفود) اقترح على المرضى الآخرين أن يقدم كل منهم شريحة من الخبز لنا نحن الثلاثة الذين كنا نعمل، وقد قبلنا هذا الأمر.

قبل ذلك بيوم واحد فقط لم يكن من الممكن تخيُّل مثل هذا الحدث. كان قانون معسكر الاعتقال يقول: "كل خبزك، وخبز

جارك إن استطعت ذلك"، ولم يكن يترك مجالاً للعرفان بالجميل. كان هذا يعنى بوضوح أن معسكر الاعتقال قد مات.

كان هذا أول موقف إنسانى يحدث بيننا، وأعتقد أننا يمكن أن نحدد فى تلك اللحظة بداية العملية التى تحولنا فيها بالتدريج، نحن الأحياء، من معتقلين إلى بشر. كان آرثر قد استعاد قوته إلى حد ما جيدًا، ولكنه تجنب منذ ذلك الحين التعرض للبرد، وتولى مسئولية صيانة المدفأة، وطهى البطاطس، وتنظيف الغرفة، ورعاية المرضى. وقد اقتسمت أنا وتشارلز مختلف الخدمات فى الخارج، وكانت لا تزال هناك ساعة من الضوء. وقد أثمرت غارة قمنا بها نصف لتر من الكحول وعلبة من الخميرة البيرة، لا ندرى من ألقى بها فى الجليد، وقمنا بتوزيع البطاطس المسلوقة وملعقة من الخميرة على كل فرد؛ كنت أعتقد بصورة غامضة أن هذا يمكن أن يفيد ضد نقص الفيتامينات.

حلّ الظلام، وكانت غرفتنا هى الوحيدة المزوَّدة بمدفأة فى كل المعسكر، وهو ما كنا نفخر به جدًّا. وكان هناك كثير من المرضى من أقسام أخرى يتزاحمون على الباب، ولكن القامة الفارهة لتشارلز كانت تبقيهم بعيدا. ولم يكن أحد، منا أو منهم، يعتقد أن المخالطة الحتمية مع مرضانا كانت تجعل الإقامة فى غرفتنا بالغة الخطورة، وأن المرض بالدفيتريا فى تلك الظروف كان بالتأكيد أشد فتكا من القفز من الطابق الثالث.

وأنا نفسى، الذى كنت على وعى بذلك، لم أكــن أتوقــف كثيرا عند هذه الفكرة؛ فمنذ وقت طويل تعودت على التفكير فى الموت بالمرض كحدث محتمَل، ولا مفر منه فى هذه الحالة، ولا حيلة لنا فيه على أى حال. ولم يخطر حتى علـــى بـــالى أننـــى سأستطيع الاستقرار فى غرفة أخرى، فى ثكنة أخرى مع خطر أقل للعدوى؛ هنا كانت المدفأة، وهى من عملنا، وكانــت تنــشر دفئا رائعا، وهنا كان عندى سرير، وفى النهاية كان هنـــاك الآن رباط يربطنا، نحن المرضى فى قسم العدوى.

ونادرا ما كنا نسمع صخبا قريبا وبعيدا للمدفعيـــة، وعلـــى فترات متقطعة صوت طلقات لبنادق آلية. وفى الظلام الذى تظهر منه فقط حمرة الجمر، كنت أنا وتشارلز وآرثر نجلــس ونحــن ندخن سجائر الأعشاب الأروماتية التى عثرنا عليها فى المطبخ، مع الحديث عن العديد من الأشياء الماضية والقادمة. وفى وســط السهل اللامنتناهى الملىء بالصقيع والحرب، فى الغرفة الصغيرة التى تتملئ بالجراثيم، كنا نشعر أننا فى سلام مع أنفــسنا ومــع العالم. كنا محطمين من التعب، ولكن كان يبدو لنـــا بعــد وقــت طويل، أننا قمنا بشىء مفيد، ربما مثل الله بعد اليوم الأول للخلق.

٢٠ يناير. بزغ الفجر، وكان الدور علىّ فى إيقاد المدفأة، وعلاوة على الضعف العام، كانت المفاصل الموجوعة تــذكِّرنى

فى كل لحظة أن الحمَّى القرمزية عندى أبعد ما تكون عن الاختفاء. وكانت فكرة اضطرارى إلى الخوض فى الهواء البارد بحثا عن النار للثكنات الأخرى تجعلنى أرتعد من الرعب. وقد تذكرت أحجار الولاعة؛ وبللت بالكحول قطعة صغيرة من الورق وقمت بصبر بكشط حفنة صغيرة من المسحوق الأسود من أحد الأحجار الصغيرة، ثم أخذت أكشط الحجر الصغير بقوة أكبر بالسكين، وها هو، بعد حدوث بعض الشرر انفجرت الحفنة الصغيرة، وارتفع من الورق اللهب الصغير الباهت للكحول.

نزل آرثر متحمسًا من السرير وقام بتسخين ثلاث ثمرات من البطاطس لكل منا من بين البطاطس المسلوقة فى اليوم السابق، وبعد ذلك رحلت أنا وآرثر من جديد، ونحن جائعان وتملؤنا الرعشة، لاستكشاف المعسكر المتحلل.

كانت عندنا مؤن (أى بطاطس) ليومين فقط، وبالنسبة إلى المياه وصل بنا الحال إلى حد صهر الجليد، وهى عملية مرهقة لنقص الأوانى الكبيرة، وكنا نستخلص منه سائلا مسودًا وعكرا كان لا بد من تصفيته.

كان المعسكر ساكنًا، وكانت هناك أشباح أخرى جائعة تتجول مثلنا للاستكشاف: لحى أصبحت طويلة، وعيون غائرة، وأجساد كالهياكل العظمية ومصفرَّة بين الأثمال البالية. وقد كانوا يدخلون

ويخرجون من الثكنات المهجورة، وسيقانهم تحملهم بصعوبة، ليأخذوا منها مختلف الأشياء: بلطات، دلاء، مغارف، مسامير، كل شيء كان يمكن أن تكون له فائدة، وكان الأكثر حكمة منهم يفكرون في أسواق مثمرة مع البولنديين في الأرياف المجاورة.

وفي فناء المخزن كانت هناك كومتان من الكرنب والبنجر (ثمار البنجر الكبيرة التي لا طعم لها، أساس غذائنا). وقد كانت مجمَّدة جدًّا حتى أنه لم يكن من الممكن فصلها إلا بالفأس، وقد تناوبنا أنا وتشارلز، بتركيز كل طاقاتنا في كل ضربة، واستخلصنا منها ما يقرب من خمسين كيلوجراما. وكان هناك أيضًا شيء آخر؛ فقد وجد تشارلز كيسا من الملح و("اكتشافًا رائعًا") صفيحة من المياه ربما سعة خمسمائة لتر، على شكل ثلج صلب.

قمنا بتحميل كل شيء على عربة صغيرة (كانت تُستخدم من قبل في توزيع التعيين على الثكنات، وكان هناك منها عدد كبير متروك في كل مكان)، وعدنا ونحن ندفعها بصعوبة فوق الجليد.

في ذلك اليوم اكتفينا أيضًا بالبطاطس المسلوقة وقطع البنجر المحمَّرة على المدفأة، ولكن آرثر وعدنا بتجديدات مهمَّة في الغد.

ذهبت عصرًا إلى العيادة السابقة، بحثا عن شىء مفيد، وكان هناك من سبقنى؛ فقد كان كل شىء مبعثرا بفعل أشخاص قاموا بالنهب والسلب بلا خبرة، ولم تكن هناك زجاجة كاملة، وعلى الأرض كانت هناك طبقة من الخرق البالية، والروث، ومواد طبية، وجثة عارية وملتوية. ولكن ها هو شىء فات من سبقونى: بطارية شاحنة. لامست الأقطاب بالسكين؛ شرارة صغيرة؛ كانت مشحونة... فى المساء كان هناك ضوء فى غرفتنا.

وكنت أرى من النافذة وأنا على السرير جزءا طويلا من الشارع، وقد كان يمر فيه على موجات منذ ثلاثة أيام، القوات المسلحة: سيارات مدرعة، ودبابات "النمر" مموَّهة باللون الأبيض، وألمان يمتطون صهوة الخيل، وألمان يركبون الدراجات، وألمان يسيرون على أقدامهم، مسلحين وغير مسلحين. وقد كنا نسمع فى الليل صخب الجنازير قبل أن نرى العربات بكثير.

كان تشارلز يسأل قائلاً: هل لا تزال تسير؟

- هذه تسير دائما.

كان يبدو أن هذا لن ينتهى أبدًا.

٢١ يناير. ولكنه انتهى، فمع فجر الحادى والعشرين بدا لنا السهل مهجورا ورماديا وأبيض على مرمى البصر تحت طيران الغربان، وحزينا بصورة مميتة.

كنت أفضل تقريبًا لو أننى رأيت أيضًا شيئا يتحرك. كان المدنيون البولنديون قد اختفوا أيضًا، ولا أحد يدرى أين اختبئوا. كان يبدو أن الريح نفسها قد توقفت، وكنت أرغب فى شىء واحد فقط: البقاء فى السرير تحت الأغطية، وأن أترك نفسى للتعب الشامل للأعضاء والأعصاب والإرادة، وانتظار أن ينتهى أو لا ينتهى كان يستوى بالنسبة إلىَّ كشخص ميت.

ولكن تشارلز كان قد أشعل المدفأة بالفعل، وكان الإنسان تشارلز النشيط، الواثق والصديق، يدعونى إلى العمل:

هيا، يابريمو، انزل من أعلى، هناك Jules، وعليك أن تمسكه من أذنيه...

كان "Jules" هو دلو المرحاض الذى كان يجب أن نمسكه من مقابضه، ونحمله إلى الخارج ونقلبه فى البئر الأسود. كان هذا هو الاحتياج الأول فى النهار، وإذا فكرنا فى أنه لم يكن من الممكن أن نغسل أيدينا، وأن ثلاثة منا كانوا مرضى بالتيفود، فإننا سنفهم أنه لم يكن عملا سارًّا.

كان علينا أن نحتفل بالكرنب واللفت. وبينما كنت أذهب أنا للبحث عن الخشب وتشارلز لجمع الجليد المطلوب إذابته، قام آرثر بتعبئة المرضى الذين كان بوسعهم البقاء جالسين لكى يتعاونوا فى التقشير. وقد لبى النداء تواروسكى وسيرتليت وألكالاى وشينك.

كان سيرتليت أيضًا فلاحًا من فوسجى، فى العشرين من عمره، وكان يبدو فى أحوال جيدة، ولكن صوته كان يتخذ يوما بعد يوم نبرة خنفاء، تذكرنا بأن الدفتريا نادرا ما تسامح.

وكان ألكالاى زجَّاجا يهوديا من مدينة تولوز، وكان هادئا وعاقلا جدًا، وكان يعانى من التهاب فى الوجه.

وكان شينك تاجرا سلوفاكيا يهوديا. كان فى فترة النقاهة من التيفود يتمتع بشهية رائعة، وكذلك كان أيضًا تواروسكى، وهو يهودى فرنسى – بولندى، أبله وثرثار، ولكنه مفيد لجماعتنا بسبب تفاؤله الصريح...

وبينما كان المرضى إذن يعملون بالسكين، وكل منهم جالس على سريره، توليت أنا وتشارلز البحث عن مقر ممكن لعمليات المطبخ.

كانت هناك قذارة لا توصف قد اجتاحت كل قسم من المعسكر؛ امتلأت كل المراحيض، التى لم يكن أحد بالطبع يُعنَى بصيانتها، وكان المرضى بالدوسنتاريا (وكانوا أكثر من مائة تقريبا) قد لوَّثوا كل ركن من أركان العيادة، وملئوا كل الأكياس، وكل الصفائح المخصصة أصلا للتعيين، وكل القصعات. ولم يكن من الممكن أن تتحرك خطوة واحدة دون مراقبة قدمك، وفى الظلام كان من المستحيل التحرك. وعلى الرغم من المعاناة بسبب البرد، الذى ظل حادًّا، كنا نفكر فى رعب فيما كان سيحدث لو أن ذوبان الثلوج قد داهمنا؛ كانت العدوى ستنتشر دون حدود، وكانت الرائحة المنتنة ستصبح خانقة، وعلاوة على ذلك كنا سنبقى بلا مياه، بعد ذوبان الجليد.

وبعد بحث طويل، وجدنا أخيرا، فى مكان كان يُستخدم أصلا كمغسلة، مساحة صغيرة من الأرضية غير الملطخة بصورة زائدة. وأشعلنا هناك نيرانا حية، وبعد ذلك، لتوفير الوقت والتعقيدات، قمنا بتطهير أيدينا بدعكها بالكلورامين المخلوط بالجليد.

وانتشر الخبر بأن هناك حساء يُطهى بسرعة بين حشد أشباه الأحياء؛ وتكوَّن على الباب تجمع من الوجوه الجوعى. وقد ألقى تشارلز عليهم خطبة قصيرة وقوية، وهو يرفع المغرفة،

وعلى الرغم من أنها كانت بالفرنسية إلا أنها لم تكن تحتاج إلى ترجمة.

تفرق معظمهم، ولكن واحدا منهم تقدم إلى الأمام؛ كان باريسيا، وترزيا راقيا (كما يقول هو)، ومريضا برئتيه، وفى مقابل لتر من الحساء كان سيضع نفسه تحت تصرفنا ليقص لنا ملابسنا من الأغطية العديدة التى بقيت فى المعسكر.

وقد برهن ماكسيم حقا على براعته، وفى اليوم التالى كنت أنا وتشارلز نمتلك سترة وحمالات وقفازات كبيرة من النسيج الخشن بألوان مبهرجة.

وفى المساء، بعد الحساء الأول الذى وُزّع بحماس والتهمناه بنهم، توقف الصمت المخيم على السهل. ومن أسرّتنا، ونحن متعبون جدًّا بحيث يصعب إزعاجنا، كنا ننصت لانفجارات المدفعيات الغامضة التى كان يبدو أنها موضوعة فى كل نقاط الأفق، وهسيس الطلقات فوق رؤوسنا.

كنت أعتقد أن الحياة فى الخارج جميلة، وأنها ستصبح أكثر جمالا، وستكون خسارة فعلا أن نترك أنفسنا نغرق الآن. وقد أيقظت من كان يغالبه النعاس من بين المرضى، وعندما تأكدت من أن الجميع كانوا ينصتون قلت لهم، بالفرنسية أولا، وبعد ذلك بأفضل ألمانية عندى، إن الجميع كان عليهم الآن

التفكير فى العودة إلى البيت وإنه كان لا بد أن نقوم ببعض الأشياء، وتجنب بعض الأشياء الأخرى. أن يحتفظ كل منا بانتباه بقصعته وملعقته، وألا يقدم أحد للآخرين الحساء الذى قد يقدَّم له، وألا ينزل أحد من السرير إلا للذهاب إلى المرحاض، ومن يحتَجْ إلى أية خدمة لا يتوجه إلى أحد سوانا نحن الثلاثة؛ وكان آرثر مكلفا بصفة خاصة بالسهر على النظام والصحة، وكان عليه أن يذكر أن من الأفضل أن نترك القصعات والملاعق متسخة، بدلا من غسلها مع خطر استبدال تلك الخاصة بمريض الدفتيريا مع تلك الخاصة بمريض التيفود.

وكان عندى انطباع بأن المرضى أصبحوا الآن غير مكترثين بأى شىء ولا يعبئون بما قلته، ولكننى كنت أثق كثيرا فى نشاط آرثر.

٢٢ يناير. إذا كان من يواجه خطرا جسيما بقلب ثابت يُعَدُّ شجاعا، فإن تشارلز وأنا فى ذلك الصباح كنا من الشجعان، فقد مددنا استكشافاتنا لمعسكر الشرطة السرية، خارج السياج الكهربى مباشرة.

لا بد أن حراس المعسكر قد رحلوا بأقصى سرعة؛ فقد عثرنا فوق الموائد على أطباق مليئة حتى نصفها بالحساء الذى تجمَّد الآن، والذى التهمناه باستمتاع شديد، وأباريق لا تزال

ممتلئة بالبيرة التى تحولت إلى ثلج أصفر، ورقعة شطرنج مع مباراة بدأت للتو، وفى عنابر النوم كمية من الأشياء الثمينة.

حملنا معنا زجاجة من الفودكا، وأدوية منوَّعة، وجرائد ومجلات، وأربعة أغطية ممتازة مبطنة، توجد إحداها اليوم فى منزلى فى تورينو. وفى حالة من السعادة وغياب الوعى حملنا إلى الغرفة الصغيرة ثمرة غارتنا، وعهدنا بها لإدارة آرثر. وعرفنا فقط فى المساء ما حدث ربما بعد ذلك بنصف الساعة.

وقامت بعض قوات الشرطة السرية، التائهة ربما، ولكنها مسلحة، بدخول المعسكر المهجور، ووجدوا أن ثمانية عشر فرنسيا كانوا قد استقروا فى صالة الطعام الخاصة بقوات الشرطة السرية، وقد قتلوهم كلهم بانتظام بطلقة فى مؤخرة الرأس، ووضعوا بعد ذلك الجثث الملتوية على جليد الشارع، ثم رحلوا. وبقيت الثمانى عشرة جثة معروضة حتى وصول الروس، ولم يجرؤ أحد على دفنها.

من ناحية أخرى، كانت هناك فى كل الثكنات الآن أسرَّة تشغلها جثث جامدة كالخشب، لم يعد أحد يعبأ بإزالتها. كانت الأرض متجمدة جدًّا ولا يمكن حفر حفرات فيها؛ وكان هناك العديد من الجثث المكوَّمة فى أحد الخنادق، ولكن منذ الأيام الأولى كانت الكومة تبرز من الحفرة، وكانت ظاهرة بصورة مشينة من نافذتنا.

كان هناك فقط حائط من الخشب يفصلنا عن قسم المرضى بالدوسنتاريا، وهنا كان يوجد الكثير من المحتضَرين، وكثير من الموتى، وكانت الأرضية مغطاة بطبقة من الروث المتجمد. ولم يكن أحد يقوى على الخروج من تحت الأغطية للبحث عن الطعام، ومن فعل ذلك من قبل لم يعد لإغاثة الزملاء. وفى نفس السرير، كان هناك إيطاليان ملتصقان لمقاومة البرد بصورة أفضل، بجوار الحائط الفاصل مباشرة، وكنت أسمعهما يتحدثان فى معظم الأحيان، ولكن بما أننى لم أكن أتحدث سوى الفرنسية، فإنهما لم يلحظا وجودى لوقت طويل. وقد سمعا اسمى بالمصادفة فى ذلك اليوم، عندما نطقه تشارلز على الطريقة الإيطالية، ومن ذلك الحين لم يتوقفا عن التأوه والتوسل.

وبالطبع كنت أودُّ مساعدتهما، حيث كانت لدى الإمكانيات والقوة؛ لا لشىء إلا لوقف صرخاتهما الملحَّة. وفى المساء، عندما كانت كل الأعمال قد انتهت، بالانتصار والرعب، سحبت نفسى أتلمَّس طريقى عبر الممر القذر والمظلم، حتى قسمهم، مع قصعة من الماء وبقايا حساء اليوم لدينا. وكانت النتيجة أن قسم الإسهال كله نادى اسمى ليل نهار، من خلال الجدار الرقيق، مع أصوات كل اللغات الأوروبية، مصحوبا بدعوات غير مفهومة، دون أن أتمكن على أى حال من اتقائها. وقد كنت أشعر أننى على وشك البكاء، وكنت سألعنهم.

وأيقظ الليل مفاجآت سيئة.

كان لاكماكر، فى السرير الواقع أسفل سريرى، حطاما بشريا بائسا، وكان (أو كان من قبل) يهوديا هولنديا يبلغ من العمر سبعة عشر عاما، طويلا نحيفا ووديعا. وكان فى السرير منذ ثلاثة أشهر، ولا أعرف كيف أفلت من عمليات الانتقاء. وقد أصيب فيما بعد بالتيفود، والحمى القرمزية، وفى الوقت نفسه كان قد ظهر عنده عيب خطير فى القلب، قرحة فراش سيئة، حتى إنه لم يكن يستطيع الآن النوم سوى على بطنه. ومع كل هذا، شهية متوحشة. لم يكن يتحدث سوى الهولندية، ولم يكن أى منا يستطيع فهمه.

ربما كان السبب فى كل هذا هو حساء الكرنب والبنجر الذى أراد منه لاكماكر وجبتين. وفى منتصف الليل تأوه، ثم سقط عن السرير. كان يريد الوصول إلى المرحاض، ولكنه كان ضعيفا جدًّا وسقط على الأرض، وهو يبكى ويصرخ بشدة.

أوقد تشارلز الضوء (وقد ظهر أن البطارية هبة من العناية الإلهية)، واستطعنا أن نستنتج خطورة الحادثة. كان سرير الشاب والأرضية ملطخين، وسرعان ما أصبحت رائحة المكان الصغير لا تُحتمل. ولم يكن لدينا سوى احتياطى ضئيل من الماء، ولم تكن معنا أغطية ولا مراتب للتغيير. وكان المسكين،

المريض بالتيفود، بؤرة رهيبة للعدوى، ولم يكن من الممكن بالطبع تركه طوال الليل على الأرضية يتأوه ويرتعش من البرد وسط القاذورات.

ارتدى تشارلز ملابسه فى السرير فى صمت بينما كنت أمسك أنا بالضوء، وقطع بالسكين من المرتبة والأغطية كل النقاط المتسخة، ورفع لاكماكر عن الأرض برقّة الأم، وقام بتنظيفه على أحسن وجه بقشٍ انتزعه من الجوال الكبير، وأعاده دفعة واحدة إلى السرير المرتّب، فى الوضع الوحيد الذى كان المسكين يستطيع النوم فيه، وكشط الأرضية بقطعة من الصفيح، وقام بتخفيف قليل من الكلورامين، وفى النهاية نثر مادة مطهرة على كل شىء، وأيضًا على نفسه.

وكنت أقيس نكرانه للذات بالتعب الذى كان علىّ أن أتجاوزه فى نفسى للقيام بما كان يفعله.

٢٣ يناير. كانت البطاطس لدينا قد نفدت، وكانت تنتشر منذ أيام فى الثكنات شائعة بأن صومعة هائلة للبطاطس موجودة فى مكان ما، خارج الأسلاك الشائكة، غير بعيد عن المعسكر.

لا بد أن بعض الرواد المجهولين قد قاموا بأبحاث صبورة، أو لا بد أن شخصا ما يعرف المكان على وجه الدقة؛ ففى صباح

الـ ٢٣، بالفعل، أسقط جزء من الأسلاك الشائكة، وكان هناك موكب مزدوج من البؤساء يخرجون ويدخلون من الفتحة.

رحلت أنا وتشارلز، وسط رياح السهل الشاحب، وكنا وراء الحاجز الذى أُسقِط.

- قل لى إذن، هل نحن فى الخارج؟!

كان هكذا، وللمرة الأولى منذ يوم اعتقالى، وجدت نفسى حرا، بلا حراس مسلحين وبلا حواجز بينى وبين بيتى!

على بعد أربعمائة متر تقريبًا كانت ترقد البطاطس، كالكنز، حفرتان طويلتان جدًا، مليئتان بالبطاطس يغطيهما التراب والقش بالتبادل لحمايتها من الجليد. لن يموت أحد بعد ذلك من الجوع.

ولكن الاستخراج لم يكن شيئا هيِّنا، وبسبب الصقيع، كان سطح الأرض صلبا كالرخام. وبعمل شاقّ بالفأس كنا نتمكن من ثقب القشرة وكشف المستودع، ولكن الأغلبية كانوا يفضلون الدخول فى الثقوب التى تركها الآخرون، مع الاندفاع إلى أعماق أكبر وتمرير البطاطس للزملاء الذين كانوا فى الخارج.

كان مجرىّ عجوز قد فاجأه الموت هناك، وكان يرقد متخشبا فى وضع الجوعان؛ فقد كان رأسه وكتفاه تحت كومة

التراب، وبطنه فى الجليد، وكان يمد يديه إلى البطاطس. ومن جاء بعد ذلك حرّك الجثة مسافة متر، واستأنف العمل من خلال الفتحة التى أصبحت خالية.

منذ ذلك الحين تحسن طعامنا؛ فعلاوة على البطاطس المسلوقة وحساء البطاطس، قدمنا لمرضانا كعك البطاطس، بناء على وصفة من آرثر: تُكشط البطاطس النيئة بأخرى مسلوقة وذائبة، وتحمَّر الخلطة على صفيحة متوهجة. كانت بطعم الهباب.

ولكن سيرتليت لم يستطع أن يستمتع بها حيث كان مرضه يتفاقم، فعلاوة على كلامه بنبرة خنفاء أكثر فأكثر، فإنه لن يتمكن فى ذلك اليوم من بلع أى غذاء كما يجب: كان هناك شىء ما قد تلف فى حلقه، وكانت كل لقمة تهدد بخنقه.

ذهبت للبحث عن طبيب مجرىٍّ بقى كمريض فى الثكنة المقابلة، وعندما سمع الحديث عن الدفتريا، تراجع ثلاث خطوات إلى الوراء وأمرنى بالخروج.

ولأسباب دعائية بحتة قدمت للجميع قطرة للأنف مشبعة بزيت الكافور، وطمأنت سيرتليت بأنه سيستفيد من ذلك، وأنا نفسى كنت أحاول أن أقنع نفسى بذلك.

٢٤ يناير. الحرية، كانت الفتحة فى الأسلاك الشائكة تعطينا صورة ملموسة لها، وتركيز التفكير فيها بانتباه كان يعنى أنه لم يعد هناك ألمان، ولم تعد هناك عمليات انتقائية، ولا عمل ولا ضرب ولا نداءات، وربما العودة، فيما بعد.

ولكن كان لا بد من القوة لكى يقتنع الإنسان بذلك، ولم يكن لدى أى أحد الوقت للاستمتاع بذلك. وحولنا كان هناك الدمار والموت فى كل مكان.

كانت كومة الجثث أمام نافذتنا تنهار الآن خارج الحفرة، وعلى الرغم من البطاطس كان ضَعف الجميع قد وصل إلى منتهاه؛ فى المعسكر لم يكن هناك أى مريض يُشفى، وكان الكثيرون على العكس من ذلك يمرضون بالالتهاب الرئوى والإسهال، وأولئك الذين لم يكن بوسعهم التحرك، أو لم تكن لديهم الطاقة على ذلك، كانوا يرقدون فى خمول فى أسرَّتهم، متخشبين من البرد، ولم يكن أحد ينتبه إليهم عندما كانوا يموتون.

كان الآخرون كلهم متعَبين بصورة مفزعة: بعد شهور وسنوات فى معسكر الاعتقال، ليست البطاطس هى التى ستعيد القوة إلى الإنسان. وعندما كنت أنا وتشارلز قد سحبنا، عند اكتمال الطهو، الخمسة والعشرين لترا من الحساء اليومى من المغسلة إلى الغرفة، كان علينا بعد ذلك أن نلقى بأنفسنا لاهثين على السرير،

بينما كان آرثر يقوم بالتوزيع، بنشاط وروح عائلية، وهو يحرص على أن تتبقى التعيينات الثلاثة من "المئونة الإضافية للعـــاملين" وشيء من القاع "pour les italiens d'à côté".

في الغرفة الثانية الخاصة بالأمراض المعدية، وهى أيضًا مجاورة لغرفتنا ويستخدمها المرضى بالسلّ فى معظم الأحيـــان، كان الموقف مختلفًا تمامًا، وكل الذين استطاعـــوا ذلك، كانوا قد ذهبوا للاستقرار فى ثكنات أخرى، وكان الزملاء الأكثر خطورة والأكثر ضعفا يموتون واحدا بعد الآخر فى وحدة.

دخلت هناك ذات صباح للبحث عن إبرة أستعيرها. كـــان هناك مريض يتنفس بصعوبة فى أحد الأسرّة العليا، وقد سمعنى ونهض جالسا، ثم تدلى برأسه من حافة السرير، نحوى، بجذعه وذراعيه المتخشبتين وعينيه البيضاوين. وقام الشخص الذى كان بالسرير السفلى بمد ذراعيه إلى أعلى تلقائيا ليسند ذلك الجـــسد، وعندئذٍ تنبَّه إلى أنه كان ميتا. وقد تراجع ببطء تحـــت الـــوزن، وانزلق الآخر على الأرض وبقى هناك، ولم يكن أحـــد يعـــرف اسمه.

ولكن شيئا جديدا حدث فى الثكنة ١٤: كان ينـــزل فيهـــا الذين أُجريت لهم عمليات جراحية، وكان بعـــضهم فـــى حالـــة

معقولة. وقد نظموا بعثة لمعسكر الإنجليز أسرى الحرب، الذى كان يُعتقد أنه تم إخلاؤه. وكانت عملية مثمرة؛ فقد عادوا مرتدين الملابس الكاكية، مع عربة صغيرة مليئة بعجائب لم نرَها قط من قبل: زبد نباتى، ومسحوق للبودينج، ودهن خنزير، ودقيق الصويا، والبراندى.

فى المساء كانوا يغنون فى الثكنة ١٤.

لم يكن أحد منا يشعر بالقدرة على السير كيلومترين من الطريق إلى المعسكر الإنجليزى والعودة بالحمولة، ولكن البعثة المحظوظة عادت بالفائدة على الكثيرين بصورة غير مباشرة؛ فقد أدى التوزيع غير المتساوى للخيرات إلى ازدهار الصناعة والتجارة. وفى غرفتنا الصغيرة ذات الجو المميت، وُلد مصنع للشموع بفتيلة مشبعة بحمض البوريك، تُصَبُّ فى قوالب من الكرتون. كان الأثرياء فى الثكنة ١٤ يستوعبون كل إنتاجنا، ويدفعون لنا بدهن الخنزير والدقيق.

وأنا نفسى كنت قد عثرت على كتلة الشمع الخام فى مخزن الكهرباء، وأذكر تعبير الغضب عند أولئك الذين رأونى أحمله بعيدا، والحوار الذى أعقب ذلك:

- ماذا تريد أن تفعل به؟

لم يكن من المناسب أن أكشف عن سر التصنيع، وشعرت بنفسى أرد بالكلمات التى كنت قد سمعتها غالبا من عجائز المعسكر، والتى تتضمن فخرهم المفضل: أنهم "معتقلون جيدون"، أناس مناسبون، يستطيعون التصرف دائمًا، Ich verstehe versciedene Sachen (إننى خبير بالكثير من الأشياء...).

٢٥ يناير. جاء الدور على سوموجى. كان كيميائيا مجريا فى الخمسين من عمره تقريبا، نحيفا وطويلا وصامتا، ومثل الهولندى، كان يمر بفترة نقاهة من التيفود والحمى القرمزية، ولكن شيئا جديدا طرأ، فقد أصابته حمى شديدة، ومنذ خمسة أيام تقريبًا لم يقل كلمة واحدة، وفتح فمه فى ذلك اليوم وقال بصوت ثابت: إن لدى تعيينا من الخبز تحت الجوال. قسّموه فيما بينكم أنتم الثلاثة. إننى لن آكل بعد ذلك.

لم نجد شيئا نقوله، ولكننا حتى الآن لم نلمس الخبز. كان نصف وجهه قد انتفخ، وطالما احتفظ بوعيه، بقى منغلقا فى صمت مرير.

ولكن فى المساء، وطوال الليل، ولمدة يومين بلا توقف، تبدد الصمت بالهذيان، وقد استغرق فى حلم أخير لا نهاية له بالعودة إلى السجن والعبودية، وأخذ يهمس بكلمة "نعم" مع كل

زفرة نَفَس، بانتظام وثبات مثل الآلة، "نعم" عند كل انخفاض للقفص الصدرى المسكين، آلاف المرات، حتى إنك ترغب فى هزه، فى خنقه، أو على الأقل تغيير كلمته.

لم أفهم قط كما فهمت حينها كم يكون موت الإنسان عسيرا وطويلا.

فى الخارج كان الصمت لا يزال يخيم على المكان. كان عدد الغربان قد زاد جدًّا، وكان الجميع يعرفون لماذا. وعلى فترات طويلة فقط كان يستيقظ حوار المدفعية من جديد.

كان الجميع يقولون فيما بينهم إن الروس سيصلون قريبا، حالا، الجميع يعلنون ذلك والجميع كانوا واثقين من ذلك، ولكن أحدا لم يكن يستطيع الوثوق من ذلك فى هدوء، لأن الإنسان فى معسكر الاعتقال يفقد عادة الأمل، وأيضًا الثقة فى عقله. والتفكير لا يجدى فى معسكر الاعتقال، لأن الأحداث تجرى غالبا بصورة غير متوقعة، وهذا ضار، لأنه يُبقِى الحساسية، التى هى مصدر الألم، حية، وبعض القوانين الطبيعية الحكيمة تضعف عندما تتجاوز الآلام حدا معينا.

ومثلما يحدث فى الفرح والخوف والألم نفسه، هكذا نتعب أيضًا من الانتظار. وعندما وصلنا إلى ٢٥ يناير بعد ثمانية أيام من انقطاع العلاقات مع ذلك العالم المتوحش الذى كان أيضًا

عالما كان معظمنا منهكا جدًا ولا يقوى حتى على الانتظار.

وفى المساء، حول المدفأة، شعرت أنا وتشارلز وآرثر بأننا أصبحنا بشرا من جديد. كان بوسعنا التحدث فى كل شىء. كان يثير شغفى حديث آرثر حول طريقة قضاء أيام الآحاد فى بروفينشير، فى فوسجى، وكان تشارلز يبكى تقريبًا عندما حكيت له عن الهدنة فى إيطاليا، والبداية الكدرة واليائسة للمقاومة، والإنسان الذى خاننا، واعتقالنا على الجبال.

وفى الظلام، وراءنا وفوقنا، لم يكن المرضى الثمانية يفوتهم مقطع واحد، حتى أولئك الذين لم يكونوا يفهمون الفرنسية. كان سوموجى وحده هو الذى يُلِحُّ فى التأكيد على ولائه للموت.

٢٦ يناير. كنا نرقد فى عالم من الأموات والديدان. كان آخر أثر للحضارة قد اختفى حولنا وداخلنا. كانت عملية التوحش التى بدأها الألمان المنتصرون قد استُكملت على أيدى الألمان المهزومين.

إن الإنسان هو الذى يقتل، والإنسان هو الذى يظلم أو يتعرض للظلم، وليس إنسانا من يقتسم السرير مع جثة، بعد ضياع كل حياء. ومن انتظر أن ينتهى جاره من الموت لكى ينتزع منه ربع رغيف، حتى وإن لم يكن له ذنب فى ذلك، هو

أبعد عن نموذج الإنسان العاقل، من القــزم البــدائى والســادى الوحشى.

إن جزءا من وجودنا يكمن فى أرواح من يقتــرب منـــا، وهذا هو السبب فى أن تجربة من عاش أياما كان الإنسان فيهـــا شيئا فى نظر الإنسان ليست تجربة إنسانية، ونحن الثلاثة كنا إلى حد كبير غير إنسانيين وكل منا يعترف للآخر بالجميل فى ذلك؛ ولهذا فإن صداقتى مع تشارلز ستقاوم الزمن.

ولكن على بعد آلاف الأمتار فوقنا فى الفتحات التى تتخلل السحب الرمادية، كانت تجرى المعجزات المعقــدة للمبـــارزات الجوية. فوقنا، نحن العراة العجزة العزل، كان هناك رجال مـــن زماننا يبحثون عن الموت المتبادل بأدق الأدوات. وكان يمكــن لحركة واحدة من إصبعهم أن تؤدى إلى تدمير المعسكر بأسره، وإبادة آلاف البشر، بينما لم يكن سيكفى مجموع كـــل طاقاتنـــا وإرادتنا لإطالة حياة واحد فقط منا دقيقة واحدة.

توقف الضجيج ليلا، وكانت الغرفة مليئـــة مـــرة أخـــرى بحديث سوموجى مع نفسه.

فى قلب الظلام وجدت نفسى مستيقظا فجـــأة. "العجـــوز المسكين" كان صامتا؛ لقد انتهى. فمع القفزة الأخيرة فى الحيـــاة

سقط على الأرض من السرير، واستمعت إلى صدمة الركبة والفخذين، والكتفين والرأس.

وقد وصف آرثر هذا قائلاً: لقد طرده الموت من سريره.

لم يكن بوسعنا بالطبع أن ننقله إلى الخارج فى الليل، ولم يبقَ لنا سوى النوم من جديد.

٢٧ يناير. الفجر. على الأرضية، الفوضى الشائنة من الأعضاء النحيلة، الشىء سوموجى.

هناك أعمال أكثر إلحاحا: لا يمكن الغسيل، ولا يمكننا أن نلمسه إلا بعد أن نطبخ ونأكل، وعلاوة على ذلك، كما يقول بحق تشارلز :"لا شىء يبعث على الاشمئزاز أكثر من التجاوزات..."؛ لا بد من إفراغ المرحاض. الأحياء تزداد مطالبهم العاجلة، والأموات يمكنهم الانتظار. وبدأنا العمل مثل كل يوم.

وصل الروس بينما كنت أنا وتشارلز نحمل سوموجى بعيدا قليلا. كان خفيفا جدًا. قلبنا النقالة على الجليد الرمادى.

نزع تشارلز البيريه، وأسفت لأننى لم يكن معى بيريه.

ومن الاثنى عشر فى قسم العدوى، كان سوموجى الوحيد الذى مات فى الأيام العشرة. أما سيرتليت وكانيولاتى

وتواروسكى ولاكماكر ودورجيه (وهذا الأخير لم أتحدث عنه حتى الآن؛ فقد كان رجل صناعة فرنسيًّا، أصيب بمرض الدفتيريا الأنفية، بعد أن أُجريت له جراحة التهاب الغشاء البريتونى)، وقد ماتوا بعد ذلك ببضعة أسابيع، فى العيادة الروسية المؤقتة فى أوشفيتز. وفى كاتوفيس، تقابلت فى شهر أبريل مع شينك وألكالاى وهما فى صحة جيدة. لحق آرثر بأسرته فى سعادة، واستأنف تشارلز مهنته كمدرس، وقد تبادلنا خطابات طويلة، وآمل أن أتمكن من زيارته من جديد فى يوم من الأيام.

أفيليانا – تورينو

ديسمبر ١٩٤٥ – يناير ١٩٤٧

مُلحَق

كتبتُ هذا الملحق فى عام ١٩٧٦ للطبعة المدرسية من رواية "إذا كان هذا إنسانا"، للرد على الأسئلة التى تُوجَّه إلىّ باستمرار من القراء الطلبة. ولكن بما أنها تتطابق على نطاق واسع مع الأسئلة التى أتلقاها من القراء الكبار فقد رأيت أن من المناسب أن أورد إجاباتى بالكامل أيضًا على هذه الطبعة.

منذ زمن بعيد، كتب بعضهم يقول إن الكتب أيضًا، مثل الكائنات البشرية، لها مصير لا يمكن التنبؤ به، ومختلف عن المصير الذى كانوا يرغبونه أو يتوقعونه. وهذا الكتاب أيضًا كان له مصير غريب؛ فحادث ولادته بعيد، ويمكنكم أن تجدوه فى إحدى صفحاته، صفحة ١٧٨ من هذه الطبعة، هناك حيث نقرأ أننى "أكتب ما قد لا أستطيع أن أقوله لأحد". لقد كانت الحاجة إلى الرواية قوية جدًّا فينا، حتى أننى كنت قد بدأت فى كتابته هناك، فى ذلك المعمل الألمانى الملىء بالصقيع والحرب والنظرات الفضولية، على الرغم من أننى كنت أعلم أننى لن أستطيع بأى حال من الأحوال أن أحتفظ بتلك الملاحظات المكتوبة على عجل بقدر المستطاع، وأننى سأُضطر إلى إلقائها على الفور، لأنها لو كانت وُجدت معى لكلفتنى حياتى.

ولكننى كتبت الكتاب بمجرد أن عدت، فى بحر بضعة أشهر؛ حيث كانت تلك الذكريات تتأجج داخلى. وبعد أن رفضه بعض الناشرين الكبار، قبلَت المخطوط فى عام ١٩٤٧ دار نشر صغيرة، يديرها فرانكو أنتونيتشيللى، وطبعت ٢٥٠٠ نسخة. ثم انحلّت دار النشر وسقط الكتاب فى هوَّة النسيان، لأن الناس أيضًا فى تلك الفترة الحادَّة بعد الحرب، لم تكن ترغب كثيرا فى العودة بالذاكرة إلى السنوات المؤلمة التى انتهت لتوِّها. وقد بُعث من جديد فقط فى عام ١٩٥٨ عندما أعاد طبعه الناشر إيناودى، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع اهتمام الجمهور. وقد تُرجم إلى ست لغات، وتحول للإذاعة والمسرح.

وقد قوبل من الطلبة والأساتذة بتشجيع تجاوز كثيرا توقعات الناشر وتوقعاتى، وقد دعتنى المئات من المجموعات الطلابية فى المدارس فى جميع الأقاليم الإيطالية للتعليق على الكتاب، كتابةً أو شخصيا إن أمكن، وفى حدود مشاغلى لبَّيت كل هذه الطلبات، حتى أننى أضفت عن طيب خاطر لحرفتى حرفة ثالثة هى حرفة المذيع والمعلِّق على نفسى، أو بمعنى أصح نفسى التى عاشت فى ذلك الزمان البعيد مغامرة أوشفيتز وروتها. وفى خلال هذه اللقاءات العديدة مع قرائى الطلبة حدث لى أننى اضطُررت إلى الإجابة على العديد من الأسئلة: الساذجة

أو الواعية، المنفعلة أو الاستفزازية، السطحية أو العميقة... وسرعان ما لاحظت أن بعض هذه الأسئلة يتكرر بانتظام، ولم تغب قط، وكان لا بد إذن أن تتبع من فضول له مبرراته وأسبابه، ولم يقدِّم الكتاب إجابة شافية بصورة ما. وقد سعيت للرد على هذه الأسئلة هنا:

١- لا توجد في كتابك تعبيرات تنم عن الكراهية ولا الضغينة ولا الرغبة في الانتقام تجاه الألمان، فهل سامحتهم؟

أنا شخصيا بطبعي لا أميل بسهولة إلى الغضب؛ فأنا أعدُّهُ شعورا حيوانيا وفظا، وأفضِّل على العكس من ذلك أن تنبع أعمالي وأفكاري من العقل، في حدود المستطاع؛ ولهذا السبب فإنني لم أكنّ قط داخل نفسي الكراهية كرغبة بدائية للانتقام، والمعاناة التي تنزل بعدوِّي الحقيقي أو المزعوم للانتقام الشخصي. ويجب أن أضيف أن الكراهية، حسبما يتراءى لي، هي شخصية وموجَّهة ضد شخص أو اسم أو وجه. والآن الذين اضطهدونا آنذاك لم يكن لهم وجه أو اسم، وهو ما نستخلصه من هذه الصفحات نفسها؛ كانوا بعيدين ولا يمكن رؤيتهم أو الوصول إليهم. وكان النظام النازي يعمل بحذر بحيث تكون الاتصالات المباشرة بين العبيد والسادة عند أقل حدّ ممكن. وقد لاحظتم أننا

وصفنا فى هذا الكتاب لقاء وحيدا للمؤلف – بطل الرواية – مع أحد أفراد الشرطة السرية (ص٢٠) وليس من قبيل المصادفة أنه وقع فقط فى الأيام الأخيرة، ومعسكر الاعتقال فى حالة تفكك، عندما انتهى النظام.

وفى الوقت نفسه، وفى الشهور التى كُتب فيها هذا الكتاب، أى فى عام ١٩٤٦، كانت النازية والفاشية تبدوان حقا بلا وجه، وكان يبدو أنهما عادا إلى اللاشىء، وقد تبددا كحلم مفزع، بحق وباستحقاق، هكذا كما تختفى الأشباح عند صياح الديك. كيف كان بوسعى أن أكنّ الضغينة والرغبة فى الانتقام ضد فرقة من الأشباح؟

وبعد ذلك بسنوات ليست بالكثيرة، تنبهت أوروبا وإيطاليا إلى أن هذا كان وهما ساذجا؛ فالفاشية كانت أبعد عن أن تكون قد ماتت، كانت مختفية فقط ومختبئة؛ فقد كانت تتسلخ من جلدها، لكى تظهر مرة أخرى فى ثوب جديد، يصعب فيه التعرف عليها وهى أكثر احتراما قليلا، وأكثر ملائمة للعالم الجديد الذى خرج من كارثة الحرب العالمية الثانية التى كانت الفاشية نفسها قد تسببت فيها. ويجب أن أعترف أننى أشعر بالنزوع للكراهية وأيضًا مع بعض العنف أمام بعض الوجوه غير الجديدة وبعض الأكاذيب القديمة وبعض الشخصيات التى تبحث عن الاحترام، وبعض التساهل وبعض التواطؤ، ولكننى

لست فاشيا، إننى أؤمن بالعقل والنقاش كأدوات عليا للتقدم، ولذا فإننى أقدم العدالة على الكراهية. ولهذا السبب بالذات فإننى استخدمت فى هذا الكتاب عن عمد لغة الشاهد الهادئة والمقتصدة، وليس لغة الضحية الشاكية ولا لغة المنتقم الغاضبة. وكنت أعتقد أن كلمتى ستكون معقولة ومفيدة بقدر ما تبدو موضوعية وأقلَّ انفعالا. هكذا فقط يقوم الشاهد بوظيفته فى الحكم، وهى تمهيد السبيل أمام القاضى، والقضاة هم أنتم.

ولكننى لا أودُّ أن يختلط ابتعادى هذا عن الحكم الصريح بالصفح دون تمييز. لا، إننى لم أصفح عن أحد من المذنبين، ولا أنا مستعد الآن أو فى المستقبل عن الصفح عن أحد، إلا إذا برهن (بالحقائق وليس بالكلمات، وليس متأخرا) على أنه أصبح واعيا بذنوب وأخطاء الفاشية الإيطالية والأجنبية، ومصمما على إدانتها واجتثاثها من ضميره ومن ضمير الآخرين. فى هذه الحالة نعم، أنا غير المسيحى مستعد لتطبيق التعاليم اليهودية والمسيحية فى الصفح عن عدوٍّى؛ ولكن عدوًّا تائبا يتوقف عن أن يكون عدوًّا.

٢- هل كان الألمان يعلمون؟ هل كان الحلفاء يعلمون؟ كيف يمكن للمذبحة وإبادة ملايين البشر أن تتم فى قلب أوروبا دون أن يعلم أحد عنها شيئا؟

إن العالم الذى نعيش فيه اليوم نحن الأوروبيين به عيوب وأخطار كثيرة وجسيمة للغاية، ولكنه بالقياس بعالم الأمس يتمتع بميزة هائلة: الجميع يستطيعون أن يعرفوا على الفور كل شيء عن كل شيء. إن الإعلام اليوم هو "السلطة الرابعة"؛ على الأقل من الناحية النظرية يتمتع المحرر والصحفى بحرية الحركة فى كل مكان، ولا يمكن لأحد أن يوقفهما أو يبعدهما أو يسكتهما. لقد أصبح كل شيء سهلا، وتستطيع - إن أردت - أن تستمع إلى إذاعة بلادك أو أى بلد آخر، وتذهب إلى كشك الصحف وتختار الصحيفة التى تفضلها، الإيطالية من أى اتجاه، أو الأمريكية أو السوفيتية، فى مجال واسع من البدائل. اشترِ واقرأ الكتب التى تريد دون خطر اتهامك بالـ "الأنشطة المعادية لإيطاليا" أو أن تتعرض فى بيتك لتفتيش البوليس السياسى. وبالطبع ليس من السهل الابتعاد عن كل القيود، ولكن يمكن على الأقل أن تختار القيد الذى تفضله.

الأمر ليس هكذا فى أى دولة مستبدة فالحقيقة واحدة، تُعلَن من أعلى، والصحف كلها متماثلة وكلها تكرر الحقيقة الوحيدة نفسها، وهكذا تفعل أيضًا الإذاعات، ولا يمكنك الاستماع لإذاعات الدول الأخرى لأنك تخاطر بدخول السجن فى النهاية لأن هذه جريمة فى المقام الأول، ثانيا تصدر الإذاعات فى بلدك

على أطوال موجة مناسبة إشارة تشويش تغطى على الرسـائل الأجنبية وتمنع الاستماع لها. أما فيما يتعلق بالكتب، فالكتب التى تنشر وتترجَم هى فقط التى تروق للدولة، أما الكتب الأخرى فإن عليك أن تذهب للبحث عنها فى الخارج، وتدخلها بلـدك علـى مسئوليتك، لأنها تُعَدُّ أشد خطورة من المخدرات والمتفجـرات، وإذا عثروا عليها معك على الحدود فإنها تصادَر منك وتعاقَـب. وأمَّا الكتب غير المرغوب فيها، أو التى لم يعد مرغوبا فيها، من عهود سابقة فإنها تُحرَق على الملأ فى الميادين. هكذا كان الأمر فى إيطاليا بين عامَىْ ١٩٢٤ و١٩٤٥، وهكذا فى ألمانيا القومية الاشتراكية، وهكذا حتى الآن فى العديد من البلدان، ويؤلمنى أن أذكر منها الاتحاد السوفييتى، الذى حارب أيضًا ببطولـة ضـد الفاشية. وفى أى دولة مستبدة يباح تغيير الحقيقة وإعادة كتابـة التاريخ بأثر رجعى، وتحريف الأخبار، وقمع الأخبار الحقيقيـة منها، وإضافة الزائفة: تُستبدل الدعاية بالإعلام. وبالفعـل، فـى مثل هذا البلد أنت لست مواطنا، تمتلك حقوقـا، ولكنـك أحـد الرعايا، وعلى هذا الأساس فإنك مَدين للدولة (وللطاغية الـذى يجسدها) بالولاء المتعصب والطاعة الخانعة.

ومن الواضح أنه يصبح من السهل فى هـذه الظـروف شطب أجزاء كبيرة أيضًا من الحقيقة (حتى وإن لم يكـن هـذا

سهلا دائمًا؛ فليس من السهل أبدا انتهـاك الطبيعـة الإنـسانية بالكامل). فى إيطاليا الفاشية نَجَحَتْ جيدًا إلى حـد مـا عمليـة اغتيال النائب الاشتراكى ماتيوتّى والسكوت عن الواقعة بعد ذلك ببضعة أشهر، وقد ظهر أن هتلر ووزير دعايته جوبلز أقـوى بكثير من موسولينى فى عملية السيطرة وإخفاء هذه الحقيقة.

ولكن إخفاء الجهاز الهائل لمعسكرات الاعتقال عن الشعب الألمانى لم يكن ممكنا، وعلاوة على ذلك، لم يكن حتى مرغوبا (من وجهة النظر النازية). وخلق جو من الرعب غير المحدود فى البلاد والإبقاء عليه كان جزءا من أهداف النازية؛ كان مـن الأفضل أن يعرف الشعب أن الاعتراض على هتلر فـى غايـة الخطورة. وبالفعل فإن مئات الألوف من الألمان احتجزوا فـى معسكرات الاعتقال منذ الشهور الأولـى للنازيـة: شـيوعيين واشتراكيين ديمقـراطيين وليبـراليين، ويهـود وبروتـستانت وكاثوليك، وكانت كل البلاد تعرف ذلك، وكانت تعرف أن الناس كانت تتألم وتموت فى معسكرات الاعتقال.

وعلى الرغم من ذلك فإنه حقيقى أن الغالبية العظمى مـن الألمان كانت تجهل دائمًا أشنع التفصيلات لما حدث بعد ذلك فى معسكرات الاعتقال: الإبادة المنتظمة والمتسلـسلة بـالملايين، وغرف الغاز السامّ، وأفران الحـرق والاسـتغلال الـوضيع

للجثث... كل هذا لم يكن يجب أن يُعرف، وبالفعل كان قليلون هم الذين عرفوه، حتى نهاية الحرب. وللإبقاء على السر، من بين الاحتياطات الأخرى، كانت تُستخدم فى اللغة الرسمية مجرد توريات حذرة وصلفة، فلم تكن تُكتب "إبادة" ولكن "حل نهائى"، وليس "إبعاد" ولكن "نقل"، وليس "قتل بالغاز" ولكن "معاملة خاصة"، وهكذا. وليس من قبيل المصادفة، أن هتلر كان يخشى من أن هذه الأخبار الرهيبة، إذا انتشرت، ستهدد الإيمان الأعمى للبلاد به والروح المعنوية للقوات المحاربة، وعلاوة على ذلك، فإنها كانت ستصل إلى علم الحلفاء وستُستغل كموضوع دعائى، وهو ما حدث فى الواقع، ولكن بسبب ضخامة البشائع نفسها فى معسكرات الاعتقال، والتى وصفتها مرارا إذاعات الحلفاء، ولم يصدقها أحد عمومًا. والملخص المقنع للموقف الألمانى آنذاك وجدته فى كتاب "دولة الشرطة السرية" ليوجين كوجان، الذى كان معتقلا فى بوخنفالد، ثم أستاذا للعلوم السياسية فى جامعة ميونيخ.

ماذا كان يعرف الألمان عن معسكرات الاعتقال؟ علاوة على وجودها الفعلى، لا شىء تقريبا، وحتى اليوم، يعلمون القليل عنها، ولا شك فى أنه ظهرت فاعلية طريقة إخفاء الأسرار الخاصة بالنظام الإرهابى بصورة صارمة، مما جعل الألم غير محدود، وبالتالى أكثر عمقا بكثير. وكما قلت فى مواضع أخرى،

فإن الكثيرين حتى من الجستابو كانوا يجهلون ما كـــان يحـــدث داخل معسكرات الاعتقال، التى كانوا يرســلون إليهــا أيــضًا معتقليهم، وغالبية المعتقلين أنفسهم كانت لديهم فكرة غير محددة جدًا لعمل معسكرهم وللأساليب التى كانت تُستخدم فيـــه. كيـــف كان يمكن للشعب الألمانى أن يعرفها؟ من كان يدخلها كان يجد نفسه أمام عالم سحيق جديد تمامًا بالنسبة إليه، وهذا أفضل دليل على قوة السرِّية وفاعليتها.

مع ذلك، لم يكن هناك حتى ألمانى واحد لم يكــن يعلــم بوجود المعسكرات، أو أنه كان يعتبرها مصحَّات. وكان هنـــاك ألمان قليلون ليس لهم قريب أو معرفة فى المعـــسكر، أو علـــى الأقل لم يعرفوا أن هذا الشخص أو ذاك قد أُرسِلَ إلـــى هنـــاك. وكان كل الألمان شهودا على البربرية متعددة الأشـــكال ضـــد السامية، وكان ملايين منهم قد شهدوا، بعدم اكتراث، أو بفضول، أو باستياء، أو ربما بفرح خبيث، حرق المعابد اليهودية أو إذلال اليهود واليهوديات المضطرين إلى الركوع فى طين الـــشوارع. وكان الكثير من الألمان قد علموا شيئا من الإذاعات الأجنبيـــة، واتصل الكثيرون منهم بمعتقلين كانوا يعملون خارج معسكرات الاعتقال. وقد حدث لعدد غير قليل من الألمان أن قـــابلوا، فـــى الشوارع أو فى محطات السكك الحديدية، مجموعات بائسة مـــن المعتقلين، وفى منشور بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٤١، موجَّه من قائد

الشرطة وأجهزة الأمن [...] وجميع مكاتب الشرطة وقادة معسكرات الاعتقال، نقرأ: "بصفة خاصة، تَعيَّن علينا أن نكتشف أن عددا لا يُستهان به من المعتقلين يسقطون فى الطريق موتى أو مغشيًّا عليهم من الانهيار فى أثناء عمليات الانتقال سيرا على الأقدام، على سبيل المثال من المحطة إلى المعسكر، ومن المستحيل منع السكان من العلم بمثل هذه الأحداث". ولم يكن من الممكن حتى لأى ألمانى أن يجهل أن السجون مكتظة وأنه كانت تحدث فى كل البلاد عمليات إعدام باستمرار، وكان هناك الآلاف من القضاة وموظفى الشرطة والمحامين والقساوسة والمشرفين الاجتماعيين الذين كانوا يعرفون بصورة عامة أن الموقف خطير جدًّا. وكان هناك الكثير من رجال الأعمال الذين كانت لهم علاقات توريد مع الشرطة السرية فى معسكرات الاعتقال، ورجال الصناعة الذين كانوا يقدمون طلبا لتعيين عاملين-عبيد فى المكاتب الإدارية والاقتصادية للشرطة السرية، وكان موظفو مكاتب التعيين [...] على علم بأن العديد من الشركات الكبرى كانت تستغل الأيدى العاملة من العبيد، وكان هناك الكثير من العاملين الذين يقومون بنشاطهم بالقرب من معسكرات الاعتقال أو حتى داخلها. وكان هناك العديد من الأساتذة الجامعيين الذين كانوا يتعاونون مع مراكز الأبحاث الطبية التى أسسها هيملر، وكان العديد من أطباء الدولة والمعاهد الخاصة يتعاون مع القتلة

المحترفين، وكان هناك عدد كبير من رجال الطيران الحربى قد انتقلوا للعمل فى خدمة الشرطة السرية، وكان لا بد أن يكونوا هم أيضًا على علم بما كان يجرى فيها. وكان هناك الكثيرون من كبار ضباط الجيش الذين كانوا يعلمون بالمذابح الجماعية لأسرى الحرب الروس فى معسكرات الاعتقال، وكثيرون جدًّا من الجنود وأعضاء الشرطة العسكرية الذين كان لا بد أن يعلموا بدقة البشائع المخيفة التى كانت ترتكب فى المعسكرات وفى أحياء اليهود وفى الحملات فى الأراضى الشرقية المحتلة. هل يمكن لأى من هذه الآراء أن يكون زائفا؟

وأنا أرى أنه لا يوجد رأى زائف من هذه الآراء، ولكن رأيا آخر يجب أن يضاف لاستكمال الصورة: فعلى الرغم من الإمكانيات العديدة للإعلام فإن الجانب الأكبر من الألمان لم يكونوا يعرفون لأنهم لم يكونوا يرغبون فى المعرفة، بل لأنهم كانوا يريدون عدم المعرفة. وحقيقى بالتأكيد أن إرهاب الدولة هو سلاح بالغ القوة، من الصعب مقاومته، وكان حقيقيا أيضًا أن الشعب الألمانى، فى مجمله، لم يحاول حتى المقاومة؛ ففى ألمانيا هتلر كان ينتشر تقليد خاص: من كان يعرف لم يكن يتكلم، ومن كان لا يعرف لم يكن يسأل أسئلة، ومن كان يسأل أسئلة لم يكن يتلقى إجابة. وبهذه الطريقة كان المواطن الألمانى

العادى يكتسب جهله ويدافع عنه، الجهل الذى كان يبدو له مبررا كافيا لانضمامه للنازية؛ فبإغلاق فمه وعينيه وأذنيه كان يبنى لنفسه الوهم بأنه ليس على علم، وبالتالى بأنه غير مشارك فيما كان يحدث أمام بابه.

وكانت المعرفة، وتعريف الآخرين، طريقة (غير خطيرة جدًا بعد ذلك فى نهاية المطاف) للابتعاد عن النازية، وأعتقد أن الشعب الألمانى، فى مجموعه، لم يلجأ إليها، وأنا أعتبره مسئولا مذنبا تمامًا عن هذا التقصير المتعمد.

٣- هل كان هناك معتقلون يهربون من معسكرات الاعتقال؟ وكيف لم تحدث حالات تمرد بالجملة؟

هذا من الأسئلة التى توجَّه إلىَّ مرارا وتكرارا، ولهذا فإنه لا بد أن ينبع من فضول أو احتياج بصفة خاصة. وأنا تفسيرى متفائل: إن شباب اليوم يشعرون بالحرية على أنها لا يمكن التخلى عنها بأى حال من الأحوال، ولهذا فإن فكرة السجن بالنسبة إليهم، مرتبطة على الفور بفكرة الهروب أو الثورة. وفى الوقت نفسه فإن الحقيقة هى أن أسير الحرب طبقا للقوانين العسكرية فى العديد من الدول، عليه أن يحاول التحرر بأى طريقة، لكى يستعيد مكانه كمقاتل، وأن محاولة الهروب طبقا لمعاهدة لاهاى لا يجب أن يعاقَب عليها. ومفهوم الهروب

كالتزام أخلاقى يؤكد عليه باستمرار الأدب الرومانسى (هل تذكرون الكونت دى مونت كريستو؟) والأدب الشعبى والسينما التى يحاول فيها البطل، المسجون ظلما (أو ربما عدلا) الهروب دائما، حتى فى الظروف الأقل احتمالا، وهذا يتوَّج بالنجاح باستمرار.

وربما يُستحسن أن يشعر الناس بأن حالة المعتقل وعدم الحرية غير واجبة وغير طبيعية، أى كمرض يجب أن يشفى بالهروب أو التمرد. ولكن هذه الصورة تشبه قليلا جدًّا للأسف الصورة الحقيقية لمعسكرات الاعتقال.

والمعتقلون الذين حاولوا الهروب، على سبيل المثال من أوشفيتز، كانوا بضع مئات، والذين نجحوا فى الهروب بضع عشرات. وقد كان الهروب صعبا وفى غاية الخطورة؛ فقد كان السجناء ضعافا، علاوة على انخفاض روحهم المعنوية من الجوع وسوء المعاملة، وكانوا حليقى الرؤوس، وملابسهم مخططة ويمكن التعرف عليهم على الفور، وأحذيتهم الخشبية كانت تعرقل الخطوة السريعة الصامتة، ولم يكن معهم مال، وعمومًا لم يكونوا يتحدثون البولندية، التى كانت اللغة المحلية، ولم تكن لهم اتصالات بالمنطقة، التى لم يكونوا حتى يعرفونها جغرافيًّا. وعلاوة على ذلك، كانت تُستخدم لقمع عمليات الهروب

عمليات انتقام وحشية: من كان يُقبض عليه كان يُشنق علانية فى ميدان النداء، وغالبا بعد عمليات تعذيب قاسية. وعندما كان يُكتشف الهروب، كان أصدقاء الهارب يُعتبرون متواطئين معه؛ وكانوا يموتون من الجوع فى زنزانات السجن، وكل الثكنة كانت تُجبَر على الوقوف أربعًا وعشرين ساعة، وأحيانا كان يُعتقل ويُنقل إلى معسكر الاعتقال والدا "المذنب".

وجنود الشرطة السرية الذين كانوا يقتلون معتقلا فى أثناء محاولة الهروب كانوا يُمنَحون إجازة كجائزة؛ ولهذا كان يحدث غالبا أن يطلق أحد أفراد الشرطة السرية النار على معتقل لم تكن لديه أية نية للهروب؛ بهدف الحصول على الجائزة فقط. وهذا الحدث يزيد بصورة مصطنَعة من العدد الرسمى لحالات الهروب المسجلة فى الإحصائيات، ولكن العدد الفعلى كان صغيرا جدًّا كما أشرت من قبل. وبما أن هذا هو الموقف، فإن معسكرات الاعتقال فى أوشفيتز هرب منها بنجاح فقط بعض المعتقلين البولنديين "الآريين" (أى غير اليهود، بمفردات العصر آنذاك)، الذين كانوا يسكنون فى مكان لا يبعد كثيرا عن معسكر الاعتقال، وبالتالى كانت لهم وجهة يقصدون إليها واليقين بأنهم سيتمتعون بحماية السكان. وفى المعسكرات الأخرى سارت الأمور بصورة مماثلة.

وفيما يتعلق بعدم التمرد، فإن الحديث يختلف قليلا. قبل كل شيء يجب أن نذكر أن بعض الانتفاضات قد حدثت بالفعل في بعض معسكرات الاعتقال: في تريبلينكا، وفي سيبوبور، وأيضًا في بيركناو، وهو أحد المعسكرات التابعة لمعسكر أوشفيتز. ولم يكن لها ثقل عددي كبير، وهي تمثل بالأحرى أمثلة للقوة المعنوية الفائقة مثل الانتفاضة المماثلة في الحي اليهودي في وارسو. وفي كل الحالات، قام بالتخطيط لها وقيادتها معتقلون مميزون بصورة ما، وبالتالي في ظروف بدنية وروحية أفضل من ظروف المعتقلين العاديين. وهذا لا يجب أن يدهشنا؛ فللوهلة الأولى فقط يمكن أن تبدو مفارقة أن يتمرد من يعاني أقل. وخارج معسكرات الاعتقال أيضًا نادرا ما يقود الصراعات الطبقات العمالية الدنيا؛ "الخرق البالية" لا تتمرد.

وفي معسكرات المعتقلين السياسيين، أو حيث يسود السياسيون، ظهرت الخبرة التآمرية لهؤلاء، وغالبا ما كانوا يصلون إلى أنشطة من الدفاع الفعال إلى حد ما أكثر من الثورات الصريحة. وتبعا لمعسكرات الاعتقال والأوقات، نجحوا على سبيل المثال في ابتزاز أو رشوة قوات الشرطة السرية، مع كبح جماح سلطاتها التمييزية وتخريب العمل لصناعات الحرب الألمانية، وتنظيم عمليات هروب، والاتصال باللاسلكي مع

الحلفاء، مع تزويدهم بأخبار حول الظروف البشعة للمعسكرات، وتحسين معاملة المرضى، باستبدال أطباء الشرطة السرية بأطباء معتقلين، و"توجيه" عمليات الانتقاء، بإرسال الجواسيس أو الخونة للموت وإنقاذ المعتقلين الذين كان لبقائهم على قيد الحياة أهمية خاصة لأى سبب، والاستعداد عسكريا أيضًا، للمقاومة فى حالة ما إذا قرر النازيون تصفية معسكرات الاعتقال تمامًا (كما قرروا ذلك بالفعل)، مع اقتراب الجبهة.

وفى المعسكرات التى تسودها أغلبية من اليهود، مثل المعسكرات فى منطقة أوشفيتز كان أى دفاع إيجابى أو سلبى صعبا بصورة خاصة؛ فهنا كان المعتقلون، بصفة عامة، لا يمتلكون أيه خبرة تنظيمية أو عسكرية، وكانوا قادمين من كل الدول الأوروبية، ويتحدثون لغات مختلفة، ولهذا لم يكونوا يفهم بعضهم بعضًا، وفوق كل شىء، كانوا أكثر جوعا وأكثر ضعفا وأكثر تعبا من الآخرين، لأن ظروفهم المعيشية كانت أكثر شدة، ولأنهم كانوا غالبا ما يحملون على أكتافهم تاريخا طويلا من الجوع والاضطهاد والإذلال فى أحياء اليهود. وكنتيجة تالية، كانت مدة إقامتهم فى معسكر الاعتقال قصيرة بصورة مأساوية، أى كانوا سكانا تتقاذفهم الأمواج، ويحصدهم الموت باستمرار، ويتجددون بالأفواج التى لا تنقطع من القوافل الجديدة. ومن

المفهوم ألا تعلق جرثومة الثورة بسهولة فى نسيج بشرى مهترئ وغير مستقر على هذا النحو.

ويمكن أن نتساءل لماذا لم يكن يتمرد المعتقلون الذين هبطوا لتوهم من القطارات، وكانوا ينتظرون لساعات (وأحيانا لأيام!) لدخول غرف الغاز. وعلاوة على ما قلته فإننى يجب أن أضيف هنا أن الألمان كانوا قد طوروا لعملية الموت الجماعى هذه استراتيجية خبيثة ومتعددة الجوانب بصورة شيطانية، ففى معظم الحالات لم يكن الواصلون الجدد يعلمون ما ينتظرهم؛ فقد كانوا يُستقبلون بكفاءة باردة ولكن بلا وحشية، وكانوا يُرسَلون لخلع ملابسهم "من أجل الدش"، وأحيانا كانت تعطى لهم منشفة وصابون، ويوعدون بقدح من القهوة بعد الحمام. وكانت غرف الغاز، بالفعل، مموَّهة على أنها صالات للأدشاش، بمواسير وصنابير وصالات لخلع الملابس وشماعات ومقاعد إلى آخره. ولكن عندما كان يبدو على المعتقلين أدنى علامة على أنهم عرفوا أو شكّوا فى مصيرهم الوشيك، كانت قوات الشرطة السرية وأعوانها يتصرفون فجأة، بتدخلهم بمنتهى الوحشية مع الصيحات والتهديدات والركلات وطلقات الرصاص وهم يحرِّضون كلابهم المدرَّبة على نهش الآدميين ضد أولئك الناس الحائرين واليائسين والممزقين منذ خمسة أو عشرة أيام من السفر فى عربات مغلقة.

ومادامت الأمور على هذا النحو، فإن الرأى الـذى يقـال أحيانا بأن اليهود لم يتمردوا لجبنهم يبدو سخيفا ومهينا. لم يكـن أحد يتمرد، ويكفى أن نذكر أن غرف الغاز فى أوشفيتز كانـت مجرَّبة على مجموعة من ثلاثمائة من أسرى الحـرب الـروس الشباب والمدرَّبين عسكريا والمؤهَّلين سياسيا، ولا يعوقهم وجود نساء أو أطفال، وحتى هم لم يتمردوا.

وأودُّ فى النهاية أن أضيف ملحوظة واحدة: الوعى الراسخ بأن القمع لا يجب السماح به بل يقاوَم لم يكن منتشرا جدًّا فـى أوروبا الفاشية، وكان ضعيفا بصفة خاصة فى إيطاليا. لقد كـان هذا ميراثا لدائرة ضيقة من الرجال النـشطين سياسـيا ولكـن الفاشية - النازية عزلتهم وطردتهم وأرهبتهم أو حتى دمـرتهم، ولا يجب أن ننسى أن الضحايا الأوائل لمعـسكرات الاعتقـال الألمانية، بأعداد تصل إلى مئات الآلاف، كانوا بالضبط كـوادر الأحزاب السياسية المناهضة للنازية. ومع غياب إسهامهم، فـإن الإرادة الشعبية فى المقاومة وتنظيم نفسها للمقاومة، نهضت بعد ذلك بكثير، وخصوصًا بفضل الأحزاب الشيوعية الأوروبية التى ألقت بنفسها فى الكفاح ضد النازية بعد أن قامت ألمانيـا، فـى يونيو ١٩٤١، بمهاجمة الاتحاد السوفييتى فجأة منتهكـة بـذلك اتفاق ريبنتروب - مولوتوف فى سبتمبر ١٩٣٩. وختاما فـإن

لوم المعتقلين على عدم التمرد يمثل بعد كل شىء خطأ من المنظور التاريخى؛ فهذا يعنى أن نطلب منهم وعيا سياسيا يُعَدُّ اليوم ميراثا مشتركا تقريبًا ولكنه كان ينتمى آنذاك إلى نخبة واحدة.

٤- وهل عدتم إلى أوشفيتز بعد التحرير؟

لقد عدت إلى أوشفيتز فى عام ١٩٦٥ بمناسبة احتفال لإحياء ذكرى تحرير المعسكرات. وكما أشرت فى كتبى لم تكن معسكرات الاعتقال فى أوشفيتز مكونة من معسكر اعتقال واحد، ولكن مما يقرب من أربعين، فمعسكر أوشفيتز بالتحديد كان قد بُنى فى ضواحى المدينة التى تحمل الاسم نفسه (Oświęcim باللغة البولندية)، كانت سعته تصل إلى ما يقرب من عشرين ألف معتقل، وكان بمثابة العاصمة الإدارية للمجمع إذا جاز التعبير، ثم كان هناك معسكر الاعتقال (أو بمعنى أدق مجموعة معسكرات الاعتقال: من ثلاثة إلى خمسة، تبعا للفترات) فى بيركناو الذى وصل لاحتواء ستين ألف معتقل، منهم ما يقرب من أربعين ألفا من النساء، وكانت تعمل به غرف الغاز وأفران الحرق. وفى النهاية كان هناك عدد متغير دائمًا لمعسكرات العمل، البعيدة أيضًا مئات الكيلومترات عن "العاصمة". وكان معسكرى، المسمى مونوفيتز، أكبر هذه المعسكرات، حيث وصل

لاحتواء ما يقرب من اثنى عشر ألف معتقل، وكان واقعا على بعد سبعة كيلومترات تقريبًا شرق أوشفيتز، والمنطقة كلها توجد حاليا فى الأراضى البولندية.

ولم أشعر بتأثر كبير عند زيارة المعسكر المركزى؛ فقد حولته الحكومة البولندية إلى نوع من النُصب القومى، ونُظفت الثكنات ودُهنت، وزُرعت بعض الأشجار، ورُسمت أحواض للزهور.. وهناك متحف عرضت فيه مخلفات بائسة: أطنان من الشعر البشرى، ومئات الآلاف من النظارات، وأمشاط وفرشات حلاقة، وعرائس أطفال وأحذية أطفال... ولكنه متحف مع ذلك، وشىء ساكن، وأعيد تنظيمه وترتيبه. لقد بدا لى كل المعسكر متحفا. أما فيما يتعلق بمعسكر اعتقالى، فإنه لم يعد موجودا؛ فمصنع المطاط الذى كان ملحقا به – وهو الآن فى أيدٍ بولندية – كبر كثيرا حتى أنه احتل أرضه بالكامل.

ولكننى شعرت بألم عنيف عند دخولى معسكر بيركناو، الذى لم أكن قد شهدته قط كمعتقل. هنا لم يتغير شىء، فقد كان هناك الطين ولا يزال هناك طين، أو غبار الصيف الخانق، والثكنات (تلك التى لم تُحرق فى أثناء انتقال الجبهة) بقيت كما كانت، منخفضة وقذرة، من ألواح منفصلة، مع أرضية من الأرض المدقوقة، ولا توجد أسرة ولكن طاولات رديئة من

الخشب العارى، حتى السقف. هنا لم يجمّل شيء. وقد كانت معى صديقة، هى جوليانا تيديسكى، من الذين نجوا من بيركناو. وقد أرتنى أن كل منضدة رديئة مساحتها ١,٨٠ × مترين كانت تنام عليها حتى تسع من النسوة. وأوضحت لى أن أطلال المحرقة تُرى من النافذة، وفى ذلك الوقت كانٍ يُرى اللهب عند قمة المدخنة. وكانت قد سألت السيدات المسنّات قائلة: "ما هذه النار؟"، ورددن عليها بقولهن: "نحن اللائى نُحرق".

وأمام القوة المثيرة للذكريات الحزينة لهذه الأماكن فإن كلا منا – نحن العائدين – يتصرف بطريقة مختلفة، ولكننا يمكن أن نرسم فئتين محددتين. الأولى ينتمى إليها أولئك الذين يرفضون العودة إليها، أو حتى الحديث فى هذا الموضوع، وأولئك الذين يودون النسيان، ولكنهم لا يستطيعون، ويعذّبون من الكوابيس التى تنتابهم، وأولئك الذين نسوا على العكس من ذلك، وأزالوا كل شىء، وبدءوا من جديد فى العيش من الصفر. وقد لاحظت أن كل هؤلاء بصفة عامة أفراد انتهى بهم الحال إلى معسكر الاعتقال "بمحض الكارثة"، أى دون التزام سياسى معيَّن، وبالنسبة إليهم كانت المعاناة تجربة كالصدمة ولكنها خالية من المعنى والتعليم، مثل إصابة أو مرض، والذكرى بالنسبة إليهم شىء غريب، وجسد مؤلم دخل حياتهم، وحاولوا (أو لا يزالون

يحاولون) القضاء عليه. وتتكون الطائفة الثانية على العكس من ذلك من المعتقلين "السياسيين" السابقين، أو على أى حال الذين يتمتعون بتأهيل سياسى، أو اقتناع دينى، أو ضمير أخلاقى قوى. بالنسبة إلى هؤلاء العائدين، يُعَدّ التذكر واجبا؛ فهم لا يريدون النسيان، وفوق كل شىء لا يريدون أن ينسى العالم، لأنهم أدركوا أن تجربتهم ليست خالية من المعنى، وأن معسكرات الاعتقال لم تكن حادثة، وشيئا غير متوقع فى التاريخ.

كانت معسكرات النازية ذروة وتتويجا للفاشية فى أوروبا، فى أبشع تجلياتها، ولكن الفاشية كانت موجودة قبل هتلر وموسولينى، وبقيت على قيد الحياة فى أشكال سافرة أو مقنّعة بعد الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية. وفى جميع أنحاء العالم، حيث يبدأ الناس بإنكار الحريات الأساسية للإنسان، والمساواة بين البشر، فإنهم يتجهون إلى النظام المركزى، وهذا هو الطريق الذى يصعب التوقف فيه. وأنا أعرف العديد من المعتقلين السابقين الذين فهموا جيدًا الدرس الرهيب الذى تنطوى عليه تجربتهم، والذين يعودون كل عام إلى "معسكرهم" وهم يقودون رحلات حج شبابية. وأنا نفسى على استعداد لعمل ذلك عن طيب خاطر إن سَمَح لى الوقت بذلك، وإن لم أعلم أننى أصل إلى الهدف نفسه بكتابة الكتب وقبول التعليق عليها للطلاب.

٥- لماذا تتحدثون فقط عن معسكرات الاعتقال الألمانية وليس عن تلك الروسية؟

كما كتبت فى الرد على السؤال الأول، إننى أفضل دور الشاهد على دور القاضى. إن علىّ أن أحمل شهادة، وهى شهادة على الأشياء التى تعرضت لها ورأيتها. وكتبى ليست كتب تاريخ، وفى كتابتها اقتصرت بصورة صارمة على الأحداث التى كانت لى خبرة مباشرة بها، مستبعدا تلك الأحداث التى عرفتها فيما بعد من الكتب أو الصحف. فعلى سبيل المثال، ستلاحظون أننى لم أذكر أرقام مذبحة أوشفيتز، ولا حتى وصفت تفصيلات غرف الغاز فى المحارق؛ وبالفعل لم أكن أعرف هذه الحقائق عندما كنت فى معسكر الاعتقال، وقد عرفتها فقط فيما بعد، عندما عرفها كل العالم.

ولهذا السبب نفسه لا أتحدث عن معسكرات الاعتقال الروسية، ولحسن حظى أننى لم أكن هناك، ولا يسعنى سوى أن أكرر الأشياء التى قرأتها، لا تلك التى يعرفها كل أولئك المهتمين بهذا الموضوع. ومن الواضح أننى بهذا لا أريد ولا أستطيع أن أتنصل من واجبى، الذى هو واجب كل إنسان، فى أن يكوّن لنفسه حكما ويصوغ رأيا. وأمام تشابهات واضحة، بين معسكرات الاعتقال السوفييتية ومعسكرات الاعتقال النازية يبدو لى أننى أستطيع أن ألاحظ اختلافات جوهرية.

الاختلاف الرئيسى يكمن فى الغاية؛ فالمعسكرات الألمانية تمثل شيئا فريدا فى التاريخ الدموى للإنسانية؛ فالهدف القديم، وهو القضاء على الخصوم السياسيين أو إرهابهم، كان مصحوبا بهدف حديث وبشع، وهو القضاء على شعوب وثقافات بأكملها من العالم. وبداية من ١٩٤١ تقريبًا أصبحت هناك آلات عملاقة للموت، فغرف الغاز والمحارق صُمِّمت عن عمد لتدمر الحياة والأجساد البشرية بالملايين، والسبق البشع يخص أوشفيتز مع ٢٤٠٠٠ قتيل فى يوم واحد، فى أغسطس ١٩٤٤. ومعسكرات الاعتقال السوفييتية لم تكن وليست بالطبع أماكن تطيب فيها الإقامة، ولكن موت المعتقلين فيها لم يكن مطلوبا صراحة، حتى فى أحلك سنوات الاستالينية؛ فقد كان حادثة متكررة، ومسموحا بها بعدم اكتراث وحشى، ولكنه غير مقصود أساسا، أى أنه نتيجة ثانوية للجوع والبرد والعدوى والتعب. وفى هذه المقارنة الكئيبة بين نموذجين من الجحيم لا بد أن نضيف مرة أخرى أن معسكرات الاعتقال الألمانية، بصفة عامة، كان الناس يدخلونها لكى لا يخرجوا منها، ولم يكن يُتوقع أى حدٌّ آخر سوى الموت. وفى مقابل ذلك كان هناك دائمًا حدٌّ فى المعسكرات السوفييتية؛ ففى عهد ستالين كان "المذنبون" يُحكم عليهم أحيانا بعقوبات طويلة للغاية (لخمسة عشر أو لعشرين عاما أيضا) بخفة مفزعة، ولكن كان هناك أمل ولو ضئيل فى الحرية.

ومن هذا الاختلاف الأساسى تتبثق الاختلافات الأخــرى، فالعلاقات بين الحراس والمعتقلين فى الاتحاد السوفيتى هى أكثر إنسانية؛ فهم ينتمون جميعا للشعب نفسه، ويتحدثون اللغة نفسها، وليسوا "فوق مستوى البشر" و"أدنى من مستوى البشر" كما كان الحال تحت حكم النازية. فالمرضى، ربما فى حالــة حرجــة، يعالَجون، وأمام عمل شاق أكثر من اللــزوم يمكــن أن نتخيــل حدوث احتجاج، فردى أو جماعى، والعقوبات الجــسدية نــادرة وليست قاسية جدًّا، ويمكن أن تتلقى من البيت خطابات وطرودا بها أطعمة، أى أن الشخصية الإنسانية لا يتم إنكارها ولا تضيع تمامًا. وفى مقابل ذلك، على الأقل فيما يتعلق باليهود والغجــر، كانت المذبحة شاملة تقريبًا فى معسكرات الاعتقال الألمانية؛ فلم تكن تتوقف حتى أمام الأطفال، الذين كانوا يُقتلون فـــى غــرف الغاز بمئات الألوف، وهو شىء فريــد بــين بــشائع التــاريخ الإنسانى. وكنتيجة عامة، فإن حصص الوفيــات مختلفــة جــدًّا بالنسبة إلى النظامين؛ ففى الاتحاد السوفييتى يبدو أن الوفيات فى أصعب الفترات كانت تدور حول الـــ ٣٠ فى المائة، بالنسبة إلى كل الداخلين، وهذا بالتأكيد رقم مرتفع بصورة لا يمكن التسامح معها، ولكن فى معسكرات الاعتقال الألمانية كانت الوفيات بنسبة ٩٠-٩٨ فى المائة.

ويبدو لى خطيرا جدًّا الابتكار السوفييتى الأخير الذى يعلن بموجبه بسرعة أن بعض المثقفين المنشقين مجانين، ويُسجنون فى مصحات نفسية ويخضعون " لعلاجات" لا تتسبب فقط فى آلام قاسية، ولكنها تغير وتضعف الوظائف العقلية. وهذا يعنى أن هناك من يخشى المعارضة، ولم يعد يعالج، ولكنهم يحاولون تدميره بالأدوية (أو بالخوف من الأدوية). وربما لا تكون هذه التقنية منتشرة جدًّا (ويبدو أن هؤلاء المحتجَزين السياسيين، فى عام ١٩٧٥، لم يكن عددهم يتجاوز المائة)، ولكنها كريهة، لأنها تنطوى على استخدام وضيع للعلم، ودعارة لا يمكن التسامح فيها من جانب الأطباء الذين يقدمون أنفسهم هكذا فى خنوع لمساندة رغبات السلطة. وهى تلقى الضوء على احتقار بالغ للمواجهة الديمقراطية والحريات المدنية.

وفى مقابل ذلك وفيما يتعلق بالضبط بالجانب الكمّى، يبقى أن نلاحظ أن ظاهرة معسكرات الاعتقال تبدو حاليا فى انحسار فى الاتحاد السوفييتى، ويبدو أن عدد المعتقلين السياسيين فى عام ١٩٥٠ تقريبًا كان بالملايين، وطبقا لبيانات "وكالة العفو الدولية" (وهى جمعية غير سياسية تهدف لإغاثة كل المعتقلين السياسيين فى كل البلدان وبصرف النظر عن أفكارهم) ربما يبلغ عددهم اليوم (١٩٧٦) ما يقرب من عشرة آلاف.

وختاما فإن المعسكرات السوفييتية تظل دائمًا مظهرا مؤسفا لعدم الشرعية وعدم الإنسانية. فهي لا علاقة لها بالاشتراكية، بل إنها تَبرز كبقعة قبيحة على ثوب الاشتراكية السوفييتية، وهى تُعتبر بالأحرى ميراثا بربريا للحكم المطلق القيصرى، الذى لم تستطع أو لم ترغب الحكومات السوفييتية فى التحرر منه. ومن يقرأ «ذكريات منزل ميت»، التى كتبها دوستويفسكى فى عام ١٨٦٢ لن يجد صعوبة فى أن يتعرف فيها على ملامح السجون نفسها التى وصفها سولجنتسين بعد ذلك بمائة عام. ولكن من الممكن، بل من السهل، أن نتصور اشتراكية بلا معسكرات اعتقال، ففى أجزاء كثيرة من العالم تم هذا. ولكن نازية بلا معسكرات اعتقال لا يمكن تصورها.

٦- مَن الشخصيات التى رأيتها مرة أخرى بعد التحرير من بين شخصيات "إذا كان هذا إنسانا"؟

غالبية الشخصيات التى تظهر فى هذه الصفحات تُعتبر - للأسف - قد اختفت فى أيام معسكر الاعتقال أو فى أثناء مسيرة الجلاء الرهيبة التى نتحدث عنها فى (ص١٩٦)، وهناك آخرون ماتوا بعد ذلك لأمراض أصيبوا بها فى أثناء السجن، وهناك آخرون أيضًا لم أستطع أن أعثر على آثارهم مرة أخرى، وبعض القلة بقوا على قيد الحياة، وقد استطعت الاحتفاظ بالاتصال معهم أو إعادته.

جون، "الصغير" صاحب أنشودة عوليس حى وفى حالة جيدة. كانت عائلته قد دُمِّرت، ولكنه تزوج بعد العودة، ولديه الآن ابنان ويعيش حياة هادئة جدًّا كصيدلى فى مدينة صغيرة فى الإقليم الفرنسى. ونحن نتقابل أحيانا فى إيطاليا، حيث يأتى للإجازة، وفى مرات أخرى ذهبت أنا لزيارته. ومن الغريب أنه نسى كثيرا من عامه فى مونوفيتز، وتتغلب عنده الذكريات البشعة فى رحلة الجلاء، التى رأى خلالها موت العديد من أصدقائه من الإعياء (ومن بين هؤلاء كان ألبرتو).

وغالبا ما أرى أيضًا الشخصية التى أسميتها بييرو سونينو (ص٦٦)، وهو الشخص نفسه الذى يظهر على أنه "القيصر" فى "الهدنة". فهو أيضًا، بعد فترة صعبة من إعادة الاندماج، عثر على عمل وكوّن أسرة، ويعيش فى روما. ويروى عن طيب خاطر، وبحيوية كبيرة، الأهوال التى تعرض لها فى المعسكر وفى أثناء رحلة العودة الطويلة، ولكنه فى رواياته التى غالبا ما تصبح تقريبًا حوارات مسرحية مع النفس، يميل إلى إيضاح أحداث المغامرات التى كان بطلا لها بدلا من الأحداث المأساوية التى شهدها بصورة سلبية.

وقد رأيت من جديد أيضًا شارل؛ كان قد اعتقل على تلال فوسجى، بالقرب من بيته، حيث كان من رجال المقاومة، فى

نوفمبر ١٩٤٤ فقط، وبقى فى معسكر الاعتقال فقط لمدة شــهر، ولكن هذا الشهر من المعاناة والأحداث الوحشية التى شــهدها، أثرفيه بعمق وانتزع منه فرحة الحياة والرغبة فى أن يبنى لنفسه مستقبلا. وبعد أن عاد إلى وطنه بعد رحلة لا تختلف كثيرا عن تلك التى حكيتها فى "الهدنة"، استأنف عمله كمدرس ابتدائى فى المدرسة الصغيرة فى قريته، التى كان يعلّم الأطفال فيها أيــضًا تربية النحل وزراعة مزرعة من أشجار التنوب والصنوبر. وهو على المعاش منذ سنوات قليلة، وتزوج مؤخرا زميلة لـــه غيــر شابة، وقد بنيا معا لنفسيهما بيتا جديدا صــغيرا ولكنــه مــريح ولطيف. وقد ذهبت لزيارته مرتين، فى عامى ١٩٥١ و ١٩٧٤. وفى هذه المناسبة الأخيرة حدثنى عن آرثر، الذى يــسكن فــى قرية غير بعيدة، وهو عجوز ومريض، ولا يرغب فى اســتقبال زيارات يمكن أن تثير فيه آلاما قديمة.

كان العثور من جديد على "مندى"، "الحاخــام العــصرى" الذى أشرت إليه فى الصفحتين ٨٥ و١٣٢، دراميا وغير متوقع ومليئا بالفرح لكلا الطرفين، وقد تعرف على نفسه عندما قــرأ بمحض المصادفة فى عام ١٩٦٥ الترجمة الألمانية لهذا الكتاب، وكان يذكرنى، وكتب لى خطابا طويلا موجهــا إيــاه للجاليــة اليهودية فى تورينو. وتبادلنا الكتابة طويلا، وأخبر كل منا الآخر

بالتبادل عن مصائر أصدقائنا المشتركين. وفي عام ١٩٦٧ ذهبت لزيارته في دورتموند، في ألمانيا الاتحادية حيث كان حاخاما آنذاك. وبقي كما كان، "عنيدا وشجاعا وحاد الذهن"، ومثقفا على نحو غير عادى علاوة على ذلك. وقد تزوج إحدى العائدات من أوشفيتز، ولديهما ثلاثة أبناء كبار الآن، والأسرة كلها تنوى الانتقال إلى إسرائيل.

ولم أرَ بعد الدكتور بانفيتز، الكيميائى الذى أخضعنى "لامتحان دولة" بارد، ولكننى عرفت أخباره من ذلك الدكتور موللر الذى خصصت له فصل "الفاناديوم" من كتابى الأخير "النظام الدورى". وقبيل وصول الجيش الأحمر إلى مصنع بونا، تصرف باستبداد وخسة، وأمر مساعديه المدنيين بالمقاومة إلى آخر مدى، ومنعهم من الصعود على متن آخر قطار مسافر للخطوط الخلفية، ولكنه ركب فيه فى اللحظة الأخيرة مستغلا الفوضى. ومات فى عام ١٩٤٦ بسرطان المخ.

٧- كيف يمكن تفسير الكراهية المتعصبة للنازيين ضد اليهود؟

إن العداء ضد اليهود، المسمى خطأ بالعداء للسامية، هو حالة خاصة من ظاهرة أكبر اتساعا، أى العداء ضد من هو مختلف عنا. فلا شك فى أن الأمر يتعلق، فى الأصل، بحقيقة

حيوانية؛ فالحيوانات التى من النوع نفسه، ولكن المنتمية إلى مجموعات مختلفة، تُظهِر فيما بينها ظواهر من عدم التسامح. وهذا يحدث أيضًا بين الحيوانات المستأنسة، فمن المعروف أن دجاجة من حظيرة دجاج معينة عندما تدخل حظيرة أخرى تُرفض بضربات المناقير لعدة أيام. والشيء نفسه يحدث بين الفئران والنحل، وبصفة عامة فى جميع الأنواع الحيوانية الاجتماعية. والآن، الإنسان هو بالتأكيد حيوان اجتماعى (وهذا ما كان أرسطو قد أكده من قبل)، ولكن الويل إذا ما تَعيَّن علينا أن نتسامح مع كل الاندفاعات الحيوانية التى بقيت فى الإنسان! والقوانين الإنسانية تُستخدم بالذات لهذا، لتقييد الاندفاعات الحيوانية.

والعداء للسامية هى ظاهرة مميزة لعدم التسامح، ولكى يبرز عدم التسامح لا بد أن يوجد بين الجماعتين المتصلتين اختلاف ملموس، وهذا يمكن أن يكون اختلافا بدنيا (السود والبيض، أصحاب البشرة السمراء والشقراء)، ولكن حضارتنا المعقدة جعلتنا حساسين لاختلافات أكثر دقة، مثل اللغة أو اللهجة أو حتى النبرة (وهذا ما يعرفه جيدًا الجنوبيون عندنا عندما يضطرون إلى الهجرة إلى الشمال)، والدين بكل تجلياته الخارجية وتأثيره العميق على طريقة الحياة، وطريقة الملبس

والإيماءات، والعادات العامة والخاصة. والتاريخ المضنى للشعب اليهودى أراد أن يُظهِر اليهودُ فى كل مكان تقريبًا واحدة أو أكثر من هذه الاختلافات.

وفى التشابك المعقد للغاية للشعوب والأمم المتصادمة فيما بينها يظهر تاريخ هذا الشعب بخصائص خاصة؛ فقد كان (ولا يزال كذلك جزئيا حتى الآن) يمتلك رابطة داخلية قوية للغاية، ذات طبيعة دينية وتقليدية؛ وبالتالى فإنه على الرغم من صغر حجمه العددى والعسكرى فقد اعترض بشجاعة مستميتة للغزو من جانب الرومان، وهُزم ورحل وتشتت، ولكن تلك الرابطة بقيت على قيد الحياة. والمستوطنات اليهودية التى راحت تتشكل على كل سواحل البحر المتوسط فى البداية وفى أعقاب ذلك فى الشرق الأوسط، وفى إسبانيا، وفى إقليم الراين، وفى روسيا الجنوبية، وفى بولندا، وفى بوهيميا وفى أماكن أخرى، بقيت دائمًا وفى عناد وفية لهذه الرابطة، التى راحت تتدعم على شكل جسم هائل من القوانين والتقاليد المكتوبة لديانة مقننة بدقة ولها شعائر خاصة وواضحة، تتخلل كل أعمال اليوم. واليهود الذين يعيشون فى أقلية فى كل تمركزاتهم كانوا إذن مختلفين ويتعرف الناس عليهم على أنهم مختلفون، ومتفاخرون (بحق أو بغير حق) باختلافهم، وقد كان كل هذا يجعلهم عرضة للخطر كثيرا،

وبالفعل كانوا مضطهَدين بشدة فى كل البلاد وفى كل القــرون تقريبا. وردَّ اليهود على عمليات الاضطهاد فى جــزء صــغير منهم بالاندماج، أو الانصهار مع السكان المحيطين بهم؛ وفــى معظمهم هاجروا من جديد نحو بلاد أكثر ترحيبا بهــم. ولكــن اختلافهم كان يتجدد بهذه الطريقة، وهو ما كان يعرِّضهم لقيــود واضطهادات جديدة.

وعلى الرغم من أن العداء للسامية فى جوهره العميق هو ظاهرة غير عقلانية من عدم التسامح فإنه اتخذ فى الغالب ثوبــا دينيا، بل لاهوتيا فى كل البلاد المسيحية منذ أن راحت المسيحية تتدعم كديانة للدولة. وطبقا لتصريح القديس أجوستينو، فــإن الله نفسه حكم على اليهود بالشتات، وهذا لسببين: لأنهم بهذا يعاقَبون لأنهم لم يعترفوا بالمسيح على أنه المسيح، ولأن وجودهم فى كل البلدان ضرورى للكنيسة الكاثوليكية، الموجودة هى أيضًا فى كل مكان، حتى يكون واضحا لجميع المؤمنين فى كل مكان تعاســة اليهود التى يستحقونها. ولهذا فإن تشتيت اليهود وانفــصالهم لا يجب أن ينتهى؛ فهم بذنوبهم، يجب أن يشهدوا إلى الأبد علــى خطئهم، وبالتالى على حقيقة الديانة المسيحية. وبالتالى، بمــا أن وجودهم ضرورى فإنهم يجب أن يُــضطهدوا، ولكــن دون أن يقتلوا.

ومع ذلك فإن الكنيسة لم تُظهِر اعتدالها دائمًا على هذا النحو؛ فمنذ القرون الأولى للمسيحية وُجّه لليهود اتهام أخطر بكثير، بأنهم، بصورة جماعية وإلى الأبد، مسئولون عن صلب المسيح، أى أنهم "شعب يقتل إلهه". وهذه الصياغة التى تظهر فى الشعائر الدينية لعيد الفصح فى أزمنة بعيدة، وقد ألغاها فقط مجلس الفاتيكان الثانى فقط فى (١٩٦٢ –٦٥)، هى الأصل فى العديد من المعتقدات الشعبية المترددة دائمًا والمشئومة بأن اليهود قاموا بتسميم الآبار ونشر الطاعون؛ وأنهم يقومون عادة بتدنيس القربان المقدس وأنهم فى عيد الفصح يقومون باختطاف أطفال مسيحيين، ويعجنون دماءهم بالخبز غير المختمر. وقد قدمت هذه المعتقدات الذريعة للعديد من المذابح الدموية، وفى الوقت نفسه للطرد الجماعى لليهود من فرنسا وإنجلترا أولا، وبعد ذلك (١٩٩٢–٩٨) من إسبانيا ومن البرتغال.

وعبر سلسلة لم تنقطع قط من المذابح والهجرات، نصل إلى القرن التاسع عشر، الذى تميز بالصحوة العالمية للضمائر القومية والاعتراف بحقوق الأقليات، فباستثناء روسيا القيصرية، تسقط فى كل أوروبا القيود القانونية ضد اليهود والتى كانت قد دعت إليها الكنائس المسيحية (الالتزام بالإقامة فى أحياء أو فى مناطق خاصة، والالتزام بحمل علامة مميزة على الملابس،

وحظر الاشتغال بحرف أو مهن معينة، وحظر الزيجات المختلطة... إلخ، تبعًا للأماكن والأزمنة). ولكن العداء للسامية بقى على قيد الحياة، حيويا بصفة خاصة فى البلاد التى كان التدين الفظ يشير فيها بإصبع الاتهام لليهود على أنهم قتلة السيد المسيح (فى بولندا وفى روسيا)، وحيث كانت المطالب القومية قد تركت أثرا من العداء العام ضد المجاورين والأجانب (فى ألمانيا ولكن أيضًا فى فرنسا، وفى نهاية القرن التاسع عشر وجد القساوسة والوطنيون والعسكريون أنفسهم متفقين على شن حملة عنيفة من العداء للسامية، بمناسبة الاتهام الزائف بالخيانة العظمى الموجه ضد ألفريد دريفوس الضابط اليهودى فى الجيش الفرنسى).

وفى ألمانيا بصفة خاصة، طوال القرن الماضى، كانت هناك سلسلة لا تتوقف من الفلاسفة والساسة ألحُّوا فى تنظير متعصب، يرى أن الشعب الألمانى الذى تعرض للتقسيم والإذلال لوقت طويل، كان يحتفظ بالسبق فى أوروبا وربما فى العالم، وكان وريث تقاليد وحضارات بعيدة وفى غاية النبل، ومكوَّنا من أفراد متجانسين جوهريا من حيث الدم والعِرق. وكان لا بد للشعوب الألمانية أن تتوحد فى دولة قوية ومحاربة، ومهيمنة فى أوروبا، وتكتسى بمهابة شبه إلهية.

وبقيت فكرة رسالة الأمة الألمانية هذه بعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية، بل إنها خرجت أشد قوة من إذلال معاهدة السلام في فرساى. ويستولى عليها واحد من أكثر الشخصيات شؤما ونحسا في التاريخ، وهو المشاغب السياسى أدولف هتلر. وينصت البرجوازيون ورجال الصناعة الألمان لخطبه المشتعلة؛ فهتلر يبشر بالخير، وسينجح في أن يوجه لليهود العداء الذى تنسبه الطبقة العاملة الألمانية للطبقات التى قادتها للهزيمة والكارثة الاقتصادية. وفى بحر بضع سنوات، بداية من عام ١٩٣٣، ينجح فى الاستفادة من غضب بلد ذليل ومن الكبرياء الوطنى الذى أثاره الأنبياء الذين سبقوه؛ لوثر وفيشت وهيجل وفاجنر وجوبينو وتشامبرلين ونيتشه، وتصبح فكرته المتسلطة هى أن تكون ألمانيا مهيمنة، ليس فى المستقبل البعيد ولكن على الفور، ليس من خلال رسالة حضارة ولكن بالسلاح. وكل ما هو ليس ألمانيا يبدو أدنى بل كريها، وأول أعداء ألمانيا هم اليهود، لأسباب كثيرة كان هتلر يعلنها بحميّة عقدية؛ لأنه تجرى فى عروقهم "دماء مختلفة"؛ لأنهم يتصلون بصلة قرابة بيهود آخرين فى إنجلترا وفى روسيا وفى أمريكا، ولأنهم ورثة ثقافة يفكرون ويناقشون فيها قبل الطاعة، وفيها يُحظَر الركوع للآلهة، بينما هو نفسه يطمح فى أن يبجّل كإله، ولا يتردد فى الإعلان عن "أننا يجب ألا نثق فى الذكاء وفى

العلم وأن نضع كل إيماننا فى الغرائز". وفى نهاية المطاف، وصل العديد من اليهود الألمان إلى مواقع مرموقة فى الاقتصاد والمالية والفنون والعلم والأدب، وهتلر الرسام المخفق والمهندس المعمارى الفاشل يصبُّ على اليهود جام غضبه وحقده كإنسان محبَط.

وعند سقوط بذرة التعصب هذه على أرض مهيأة أصلا، تعلق بها بقوة غير معقولة ولكن بأشكال جديدة. فالعداء للسامية ذو الطابع الفاشىّ - وهو العداء الذى أيقظه فى الشعب الألمانى الكلام الذى روّج له هتلر - هو أكثر بربرية من كل العداوات السابقة؛ فقد تضافرت فيه المذاهب البيولوجية المحرّفة بصورة مصطنعة، والتى ترى أن الأجناس الضعيفة يجب أن تستسلم أمام القوية والمعتقدات الشعبية السخيفة التى كان الحس السليم قد دفنها منذ قرون طويلة، ودعاية دون توقف. وقد وصل الأمر إلى حدود قصوى لم نسمع بها من قبل. واليهودية ليست ديانة يمكن أن نبتعد عنها بالتعميد، ولا تقليدًا ثقافيًّا يمكن أن نهجره من أجل آخر: إنها سلالة بشرية فرعية، وسلالة مختلفة وأدنى من كل السلالات الأخرى. إن اليهود بشر فى الظاهر فقط؛ فى الواقع هم شىء مختلف، مقيت ولا يوصف، "وهم أبعد عن الألمان من القردة عن البشر"، وهم يتحملون وزر كل شىء،

الرأسمالية الأمريكية الضارية والبولشيفية السوفييتية، وهزيمة عام ١٩١٨ والتضخم عام ١٩٢٣، والليبرالية والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية هى بدع شيطانية يهودية تهدد الاستقرار الراسخ للدولة النازية.

وكان الانتقال من الدعوة النظرية إلى التطبيق العملى سريعة ووحشية، ففى عام ١٩٣٣، بعد شهرين فقط على تولى هتلر السلطة، يُنشأ داخاو، أول معسكر اعتقال. وفى مايو من العام نفسه تُشعَل أول نيران لحرق كتب لمؤلفين يهود أو أعداء للنازية (ولكن قبل ذلك بأكثر من مائة عام، كان هاينه - وهو شاعر يهودى ألمانى - قد كتب يقول: "إن من يحرق الكتب سينتهى به الحال عاجلا أم آجلا بحرق البشر"). وفى عام ١٩٣٥ يُقنِّن العداء للسامية فى تشريع هائل وبالغ الدقة، وهو قوانين نورمبرج. وفى عام ١٩٣٨ فى ليلة واحدة من الاضطرابات موجَّهة من أعلى يُحرق ١٩١ معبدا يهوديا وتدمَّر الآلاف من محالٍ اليهود. وفى عام ١٩٣٩ يُحبس يهود بولندا التى احتلت لتوها فى أحيائهم. وفى عام ١٩٤٠ يُفتتح معسكر الاعتقال فى أوشفيتز. وفى عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ تعمل آلة الإبادة بكامل طاقتها. ويرتفع عدد الضحايا للملايين فى عام ١٩٤٤...

وفى الممارسة اليومية لمعسكرات الإبادة تجد الكراهية والاحتقار اللذين نشرتهما الدعاية النازية تطبيقا لهما، وهنا لم يكن هناك فقط الموت ولكن مجموعة من التفصيلات المهووسة والرمزية، ولكنها تتجه لإثبات وتأكيد أن اليهود والغجر والسلافيين بهائم وروث وقمامة. ونذكر وشم أوشفيتز الذى كان يفرض على الرجال العلامة التى تُستخدم للثيران، والرحلة تتم فى عربات للماشية لا تكون أبدا مفتوحة بحيث يُجبَر المبعَدون (من الرجال والنساء والأطفال!) على النوم لأيام فى قاذوراتهم، ورقم القيد بدلا من الاسم، وعدم توزيع الملاعق (على الرغم من أن مخازن أوشفيتز، عند التحرير، كانت تحتوى منها على قناطير) ولهذا كان يتعين على المعتقلين لعق الحساء مثل الكلاب، والاستغلال الذى لا يرحم للجثث، التى كانت تُعامَل كأى مادة أولية مجهولة، كان يؤخذ منها ذهب الأسنان، والشعر كمادة للنسيج، والرماد كمخصبات زراعية... والرجال والنساء الذين كانوا يُعامَلون بمهانة كحيوانات تجارب تُجرَّب عليهم أدوية للقضاء عليهم بعد ذلك.

والطريقة نفسها التى اختيرت - بعد تجارب دقيقة - للإبادة كانت رمزية بصورة سافرة، وكان لا بد من استخدام، واستُخدم ذلك الغاز السام نفسه الذى كان يُستخدم لتطهير مخازن

السفن، والأماكن التى يجتاحها البَقّ أو القمل. وقد ابتدعت عبر القرون أنواع من الموت أكثر تعذيبا، ولكن أيا منها لم يكن مليئا على هذا النحو بالاستهزاء والاحتقار.

وكما هو معروف فإن عملية الإبادة تقدمت كثيرا؛ فالنازيون، الذين كانوا أيضًا منهمكين فى حرب بالغة الضراوة، أصبحت الآن دفاعية، أظهروا فيها عجلة لا يمكن تفسيرها؛ فقوافل الضحايا الذين كان يتعين إرسالهم إلى الغاز، أو نقلهم من معسكرات الاعتقال القريبة من الجبهة، كانت لهم الأولوية على القطارات العسكرية. ولم تتم فقط لأن ألمانيا هُزمت، ولكن الوصية السياسية التى أملاها هتلر قبل انتحاره ببضع ساعات، والروس على بعد بضعة أمتار، اختُتمت على هذا النحو: "فوق كل شيء، آمر الحكومة والشعب الألمانيين بالإبقاء على القوانين العنصرية سارية المفعول تمامًا، والحرب دون هوادة ضد اليهودية الدولية، المفسدة لكل الأمم".

خلاصة القول، يمكن إذن أن نقول إن العداء للسامية هو حالة خاصة من التعصب، ولقرون طويلة كان له طابع دينى فى الغالب، وقد ازداد حدة فى الرايخ الثالث من الاستعداد الوطنى والعسكرى للشعب الألمانى، ومن "الاختلاف" الخاص للشعب اليهودى، وانتشر بسهولة فى كل ألمانيا، وفى جزء كبير من

أوروبا، بفضل كفاءة الدعاية الفاشية والنازية التى كان يلزمها كبش فداء تلقى عليه كل الذنوب وكل الضغائن، ووصلت الظاهرة إلى ذروتها مع هتلر، الطاغية المجنون.

ولكننى يجب أن أعترف مع ذلك أن هذه التفسيرات، المقبولة عمومًا، لا ترضينى؛ فهى مصغرة، ولا تتفق ولا تتناسب مع الأحداث التى يتعين شرحها. فعندما أعيد قراءة وقائع النازية، من بداياتها المضطربة إلى نهايتها المتشنجة؛ لا أستطيع أن أنتزع نفسى من التأثر بمناخ عام من الجنون المنفلت يبدو لى أنه فريد من نوعه فى التاريخ، وهذا الجنون الجماعى، هذا التشتت، يفسَّر عادة بافتراض تضافر عديد من العوامل المختلفة، غير الكافية إذا أُخذت بصورة منفردة، وأكبر هذه العوامل قد يكون شخصية هتلر نفسها، وتفاعله العميق مع الشعب الألمانى. فمن المؤكد أن أفكاره المتسلطة الشخصية، وقدرته على الكراهية، ودعوته للعنف، التى كانت تجد استجابة محمومة مع إحباط الشعب الألمانى ومنه كانت تعود إليه مضاعفة، من المؤكد أنها مثبّتة له فى اقتناعه الهاذى بأنه هو البطل نفسه الذى تنبأ به نيتشه، السوبرمان مخلّص ألمانيا.

وقد كُتب الكثير عن أصل عدائه لليهود، فقد قيل إن هتلر كان يصب على اليهود كراهيته للجنس البشرى بأسره، وإنه كان

يتعرف فى اليهود على بعض عيوبه هو نفسه، وإنه بكراهيته لليهود كان يكره نفسه، وإن عنف عدائه كان نابعا من خوفه من أن يكون هناك "دم يهودى" يجرى فى عروقه.

مرة أخرى: هذه التفسيرات لا تبدو لى مناسبة، فلا يبدو لى أن من حقنا تفسير ظاهرة تاريخية بإلقاء التهمة كلها على فرد واحد (فمنفذو الأوامر البشعة ليسوا أبرياء!)، وعلاوة على ذلك فإن من الصعب تفسير المبررات العميقة لفرد ما. والافتراضات التى تقترح تفسِّر الأحداث فقط بصورة جزئية، وتشرح نوعيتها وليس كميتها. ويجب أن أعترف بأننى أفضل التواضع الذى يعترف به بعض المؤرخين، ومن بين أكثرهم جدية (بولوك شرام وبراخر، بأنهم لا يتفهمون العداء المحموم للسامية عند هتلر وألمانيا من خلفه.

وربما ما حدث لا يمكن تفهمه، بل لا يجب تفهمه، لأن التفهم هو تقريبًا التبرير. سأشرح ما أقول: إن "تفهم" نية شخص معين أو سلوكه يعنى (فى أصل الكلمة أيضًا) احتواءه واحتواء مؤلفه، وأن نضع أنفسنا مكانه والتوحد معه. الآن لا يمكن لأى إنسان طبيعى أن يتوحد أبدا مع هتلر وهيملر وجوبلز وأيخمان وآخرين لا حصر لهم، وهذا يفزعنا، وفى الوقت نفسه يريحنا؛ لأنه ربما يريد البعض ألا نفهم كلماتهم (وربما أيضًا أعمالهم،

للأسف)، وهى كلمات وأعمال غير إنسانية، بل إنها ضد الإنسانية، ولم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ويصعب مقارنتها بأبشع الأحداث فى الصراع البيولوجى من أجل البقاء. والحرب يمكن أن ترجع لهذا الصراع، ولكن أوشفيتز لا دخل لها بالحرب، فهى ليست حادثة فيها، وليست صورتها النهائية. الحرب أمر رهيب منذ الأزل، ويمكن أن نلعنها، ولكنها فينا، ولها عقلانيتها، و"تفهمها".

ولكن الكراهية النازية ليس بها عقلانية؛ فهى كراهية ليست فينا، إنها خارج الإنسان، وهى ثمرة سامة وُلدت من الجذع المشئوم للفاشية، ولكنها خارج الفاشية نفسها ووراءها. ونحن يمكن أن نفهم هذا، ولكننا نستطيع ويجب علينا أن نفهم من أين تنشأ، وأن نحترس. وإذا كان الفهم مستحيلا فإن المعرفة ضرورية، لأن ما حدث يمكن أن يعود، والضمائر يمكن إغراؤها والتعتيم عليها من جديد، حتى ضمائرنا.

ولهذا فإن تدبر ما حدث هو واجب الجميع. الجميع يجب أن يعرفوا أو يذكروا أن هتلر وموسولينى، عندما كانا يتحدثان علانية، كانت الناس تصدقهم وتصفق لهم وتُعجَب بهم وتعبدهم كآلهة. كانا زعيمين يتمتعان بالـ"كاريزما"، وكانا يمتلكان قدرة سرية على الإغراء لم تكن نابعة من مصداقية أو من عدالة

الأشياء التى كانا يقولانها، ولكن من الطريقة الإيحائية التى كانا يتحدثان بها، ومن بلاغتهما، ومن فنهما المسرحى وربما التلقائى، وربما يكونان قد مارساه وتعلماه فى صبر. ولم تكن الأفكار التى كانا يدعوان إليها واحدة، وكانت بصفة عامة منحرفة أو حمقاء أو قاسية، ومع ذلك فإن الملايين من الموالين كانوا يهتفون لها ويتبعونها حتى موتهم. ويجب أن نذكر أن هؤلاء الموالين، ومن بينهم أيضًا المنفذون النشطون للأوامر غير الإنسانية، لم يكونوا قتلة بفطرتهم، ولم يكونوا وحوشا (مع استثناءات قليلة). كانوا أناسا عاديين؛ فالوحوش موجودة، ولكنها قليلة جدًا حتى أنها ليست خطيرة حقا؛ فالأكثر خطورة هم الرجال العاديون، والموظفون المستعدون للتصديق والطاعة دون مناقشة، مثل أيخمان، ومثل هوس قائد أوشفيتز، ومثل ستانجل قائد تريبلينكا، ومثل العسكريين الفرنسيين القتلة بعد ذلك بعشرين عامًا فى الجزائر، ومثل العسكريين الأمريكيين القتلة بعد ذلك بثلاثين عامًا، فى فيتنام.

لا بد إذن أن نكون متشككين مع من يحاول إقناعنا بأدوات مختلفة عن العقل، أو بالزعماء الذين يتمتعون بالكاريزما، ويجب أن نكون حذرين فى أن نعهد للآخرين بحكمنا وإرادتنا. وبما أنه من الصعب التمييز بين الأنبياء الحقيقيين والزائفين فيُستحسن أن

نكون فى شك من كل الأنبياء، ومن الأفضل التخلى عن حقائق الوحى، حتى وإن كانت تحمّسنا ببساطتها وروعتها، حتى وإن وجدناها مريحة لأننا نكتسبها مجانا. ومن الأفضل أن نرضى بحقائق أخرى أكثر تواضعا وأقل حماسا، وهى التى نكتسبها بصعوبة، شيئا فشيئا دون طرق مختصرة، بالدراسة والمناقشة والتفكير، ويمكن أن نتحقق منها ونبرهن عليها.

ومن الواضح أن هذه وصفة بسيطة جدًا بحيث لا تكفى فى جميع الحالات؛ إن فاشية جديدة، مع ما تُخلفه من تعصب وقمع وعبودية، يمكن أن تولد خارج بلادنا وتُستورَد إليها، ربما على استحياء، بعد أن تُسمَّى بأسماء أخرى، أو يمكن أن تنطلق من الداخل وبعنف لتجاوز كل الحواجز، وعندئذ فإن نصائح الحكمة لن تنفع بعد ذلك، ولا بد أن نجد القوة على المقاومة، وفى هذا أيضًا، يمكن أن تكون ذاكرة ما حدث فى قلب أوروبا، ومنذ زمن غير بعيد، سندا وتحذيرا.

٨- ماذا كنتم ستصبحون اليوم، لو لم تكونوا معتقلين فى معسكر اعتقال؟ وبماذا تشعرون عند تذكُّر ذلك الزمن؟ وما العوامل التى يرجع إليها بقاؤكم على قيد الحياة؟

إذا تحدثنا بدقة، فإننى لا أعرف ولا أستطيع أن أعرف ماذا كنت سأصبح اليوم لو لم أكن فى معسكر اعتقال. لا أحد من

البشر يعرف مستقبله، وهنا قد يتعين بالضبط وصف مستقبل لم يكن موجودا. وهناك مغزى معين فى محاولة القيام بتنبؤات (وهى تقريبية دائمًا فى الوقت نفسه) حول سلوك شعب ما، ولكن من الصعب للغاية ومن المستحيل التنبؤ بسلوك فرد واحد، حتى على مدار الأيام. وبالطريقة نفسها فإن الفيزيائى يستطيع أن يتنبأ بدقة كبيرة بالوقت الذى سيستغرقه جرام من الراديوم لخفض نشاطه إلى النصف، ولكنه لا يستطيع أن يقول على الإطلاق متى ستتفكك ذرة واحدة من ذلك الراديوم. وإذا اتجه إنسان نحو تقاطع، ولم يدخل الطريق الأيسر فمن البديهى أنه سيدخل ذلك الأيمن، ولكن اختياراتنا لا تكون أبدا تقريبًا بين بديلين وحيدين فقط، ثم إن كل اختيار تتبعه اختيارات أخرى، كلها متعددة، وهكذا إلى ما لا نهاية، وفى النهاية، يعتمد مستقبلنا بشدة أيضًا على عوامل خارجية، غريبة تمامًا عن اختياراتنا المتعمَّدة، وأيضًا على عوامل داخلية، ولكننا لا نشعر بها. ولهذه الأسباب المعروفة فإننا لا نعرف مستقبلنا ولا المستقبل القريب منا، وللأسباب نفسها لا يمكن لأى أحد أن يقول ماذا سيكون ماضيه "لو".

ولكننى أستطيع أن أصوغ رأيا معينا، هو التالى: لو أننى لم أعش موسم أوشفيتز، لما كتبت شيئا قط ربما، ولمَا كان عندى المبرر والحافز للكتابة؛ فقد كنت طالبا دون المستوى فى اللغة الإيطالية ورديئًا فى التاريخ، وكنت شغوفا أكثر بالفيزياء

والكيمياء، وكنت قد اخترت عملا بعد ذلك، عمـــل الكيميـــائى، الذى لم تكن له أية صلة بالكلمة المكتوبة. كانت تجربة معـــسكر الاعتقال هى التى أجبرتنى على الكتابة، لم أكـــن بحاجـــة إلـــى محاربة الكسل، وكانت مشكلات الأسلوب تبـــدو لـــى بـــسيطة، ووجدت بمعجزة الوقت للكتابة، ولكن دون أن أنتزع قط ســـاعة واحدة من عملى اليومى؛ فقد كان هذا الكتاب بالفعل يبـــدو لـــى جاهزا بالكامل فى رأسى، وأننى يجب فقط أن أتركـــه يخـــرج وينزل على الورق.

والآن مرت سنوات طويلة، ومر الكتاب بأحـــداث كثيـــرة، ومن الغريب أنه وُضع، كذاكرة مصطنعة، كحاجز دفـــاعى، بـــين حاضرى العادى للغاية، والماضى المتوحش فى أوشـــفيتز. وأنـــا أقول هذا بتردد، لأننى لا أود أن أُوصَف بأننى صـــلف. عنـــدما أتذكر معسكر الاعتقال اليوم لم أعد أشعر بـــأى انفعـــال عنيـــف ومؤلم، بالعكس، فتجربتى القصيرة والمأساوية كمَرحَّل طغت عليها تجربتى الأطول والأعقد بكثير ككاتب. شاهدوا والمحصلة إيجابية بالقطع؛ فهذا الماضى فى مُجمَله جعلنى أكثر ثراء وأكثـــر أمنـــا، وهناك صديقة لى، كانت قد رحلت فى سن مبكرة جدًّا إلى معسكر اعتقال النساء فى رافنسبروك، تقول إن المعسكر كـــان جامعتهـــا، وأنا أستطيع أن أقول الشىء نفسه، أى أننى بالعيش ثم الكتابة ثـــم بتدبر الأحداث، تعلمت أشياء كثيرة عن البشر وعن العالم.

ولكننى يجب أن أسارع بتوضيح أن هذه النتيجة الإيجابية كانت حظا مسّ القليلين للغاية، فمن المرحَّلين الإيطاليين، على سبيل المثال، هناك فقط خمسة فى المائة تمكنوا من العودة، وفقد الكثيرون من هؤلاء العائلة والأصدقاء والممتلكات والصحة والتوازن والشباب. وبقائى أنا على قيد الحياة وعودتى سليما، يرجع فى رأيى أساسا للحظ. وفى نطاق محدود فقط لعبت عوامل كانت موجودة من قبل، مثل تدرُّبى على الحياة فى الجبل، وعملى ككيميائى، وهو ما منحنى بعض المزايا فى الشهور الأخيرة من السجن، وربما ساعدنى أيضًا اهتمامى، الذى لم يفتر قط، بالنفس البشرية، والرغبة ليس فقط فى البقاء على قيد الحياة (وهو ما كان لدى الكثيرين)، ولكن البقاء على قيد الحياة بهدف محدد، وهو رواية الأحداث التى شهدناها وتحملناها. وربما لعبت فى النهاية أيضًا الرغبة، التى أحتفظ بها بعناد، فى أن أتعرف دائما، حتى فى أحلك الأيام، فى زملائى وفى نفسى، على البشر وليس الأشياء، وأن أنتزع نفسى هكذا من ذلك الإذلال التام وضعف المعنويات الذى كان يقود الكثيرين للغرق الروحى.

بريمو ليفى

نوفمبر ١٩٧٦

المؤلف فى سطور

- بريمو ليفى
- ولد فى تورينو عام ١٩١٩، وكان كاتبًا للذكريات والحكايات والأشعار والروايات.
- أعاد إلى الأذهان تجربة اليهودى المعتقل فى معسكرات الاعتقال النازية فى رواية Se Questo Un Uomo (١٩٤٧) و La tregua (١٩٣٦).
- تناول بعد ذلك موضوعات من العالم العلمى والتكنولوجى Il sistema Periodico (١٩٧٥) La chave a stella, (١٩٧٩).
- عاد إلى موضوع الحرب وعالم اليهود فى Se non ora, Quando?.
- مات منتحرًا فى عام ١٩٨٧.

المترجم فى سطور

- عماد البغدادى
- ولد فى دمياط عام ١٩٥١.
- تخرج فى كلية الألسن عام ١٩٧٣ بتقدير عام ممتاز.
- حصل على الدكتوراه فى اللغة الإيطالية من كلية الآداب- جامعة روما عام ١٩٨١.
- شارك فى ترجمة كتاب «من الأدب الإيطالى الحديث» - دراسات وترجمات - المعهد الثقافى الإيطالى القاهرة ١٩٨٨: ١٩٩٩.
- شارك فى ترجمة كتاب «تاريخ مسلمى صقلية» للمؤرخ الإيطالى ميكيلى أمارى، لى مونييه، فلورنسا، ٢٠٠٣.
- ترجم كتاب «الإسهامات الإيطالية فى دراسة مصر الحديثة فى عصر محمد على باشا» مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.
- ترجم كتاب «تاريخ مصر الحديث»، من النهضة فى القرن التاسع عشر إلى مبارك، للمؤرخ ماسيمو كامبانينى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦.

- ترجم كتاب «أوروبا والإسلام» تاريخ من سوء التفاهم، للمؤرخ فرانكو كاردينى (تحت النشر).
- يعمل حاليًا رئيسًا لقسم اللغة الإيطالية بكلية الألسن - جامعة عين شمس.

التصحيح اللغوى : محمود عبد الرازق

الإشراف الفنى : حسن كامل